بلاز سندرار

الدهشة

رواية

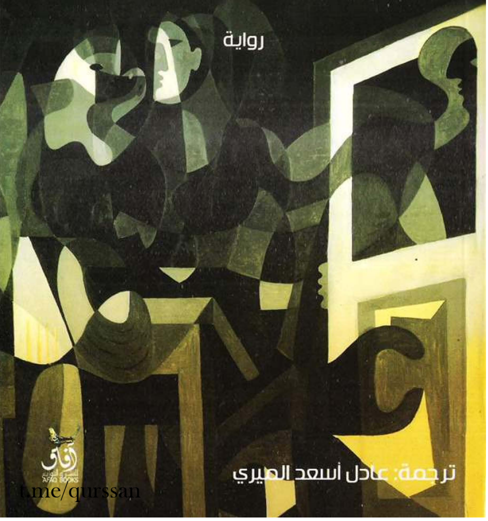

ترجمة: عادل أسعد الميري

آفاق
AFAQ BOOKS

t.me/qurssan

• المؤلف: بلاز سندرار
• العنوان: الدهشة
• ترجمة: عادل أسعد الميري
• طبعة آفاق الأولى 2019
• تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
• مستشار النشر: سوسن بشير
• المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ٢٠٨٨٨
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977 - 765 - 197 - 4

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO - EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

t.me/qurssan

بلاز سندرار

الدَّهشــة

رواية

ترجمة

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

t.me/qurssan

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

سندرار، بلاز.

بلاز سندرار : الدهشة - ترجمة: عادل أسعد الميري

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

344 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20888 / 2018

الترقيم الدولي 4 - 197 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - سندرار، بلاز

t.me/qurssan

مقدّمة المؤلّف

كانت حياتي تتميّز بقدر كبير من العشوائية، فتقريبًا لم يكن هناك أي تخطيط على الإطلاق في أي شيء فعلته خلال خمسين عامًا؛ بين الثالثة عشرة والثالثة والستّين، إذ كنت أتنقّل بسهولة بين المهن المختلفة، وبين البلاد المختلفة، من روسيا إلى بكين، ومن نيويورك إلى البرازيل، ومن إيران إلى كينيا، أحيانًا كتاجر مجوهرات أو كتب قديمة، وأحيانًا كمراسل صحفي، وأحيانًا كبحّار موسمي، وأحيانًا كمخرج للأفلام التسجيلية.

لذلك فعندما جلستُ لأكتب قصصًا مستوحاةً من حياتي، حاولت أن أضفي عليها الطابع الروائي، بأن يكون الراوي هو نفس الشخص دائمًا، وهذا الشخص هو أنا، وبأن يكون الموضوع المروي غالبًا في شكل بطل وأحداث. إلَّا أنني رغم ذلك الحرص المبدئي، لم أستطع أبدًا أن أمنع نفسي من إيراد فقرات بها معلومات عن الجغرافيا أو التاريخ أو السياسة أو الاجتماع، ولذلك أريد أن أقول: إنه حتى لو كانت هناك فقرات فيها قدر من التقريرية أو المباشرة، فهي لا تأتي خارج سياق نصّ الموضوع الذي يعالجه الفصل.

إذَنْ فأنا كتبت أربع روايات، خلال أربع سنوات أو خمس، بين ١٩٤٤ و١٩٤٩، في شكل فصول قصيرة، بعضها من صفحة واحدة،

t.me/qurssan

وبعضها الآخر من ثلاثين صفحة، عن أحداث وقعت في حياتي، أو عن شخصيات عرفتها في حياتي، إلا أنني عندما وضعت هذه القصص في فصول رواياتي الأربع، لم أُعر أدنى اهتمام للترتيب الزماني، أو للترتيب المكاني، أو حتى للترتيب المنطقي، وذلك ببساطة لأنه لم يكن هناك أي منطق في حياتي.

إذَنْ فقد كتبت هذه الفصول منفصلة، بما في ذلك من عشوائية أحيانا، إلا أنني عندما جمعتها في أربعة أجزاء مستقلّة، حاولت قدر الإمكان التقليل من ملامح العشوائية، وهكذا تخيّلت أن:

- فصول الرواية التي أسميتها (المغامرة) يغلب على أحداثها طابع المغامرة.
- وفصول الرواية التي أسميتها (الدهشة) يغلب على أحداثها طابع الدهشة.
- وفصول الرواية التي أسميتها (اليد المقطوعة) تحكي عن كيف قُطِعَت يدي، وكيف درّبت نفسي على أن أعيش، من سن الثلاثين إلى سن الستّين، بيد واحدة.
- أما رواية (نصيب من السماء)، فهي عن الأحداث القدرية في حياتي، التي لم أخترها ولم أتوقّعها.

بلاز سندرار

باريس/ ١٩٤٩

t.me/qurssan

الفصل الأول

قصر صديقتي بخيتة

(١)

من أكثر الأشخاص المدهشين في حياتي، كانت بخيتة تقف على رأس القائمة. وقبل أن أجيبكم على السؤال مَن باكيتا أو بخيتة، هذا إذا كنت سأجاوبكم عليه، فالاسم كان ينطق بالكاف وبالخاء؛ لأن أصول هذا الاسم إسبانية من أمريكا اللاتينية، وغالبًا سيكون الأصل الإسباني مأخوذًا من جذر عربي، قيل لي إنه يدلّ على الحظّ الحسن في الحياة، ولا يمكن لأي شخص قابلته في حياتي، أن يكون أكثر حظًّا من بخيتة. لكني أودّ أولًا أن أتحدّث إليكم عن القصر.

كانت بخيتة صديقتي تسكن قصرًا من قصور ما وراء الأحلام، فهو قصر ملكي فخم جدًّا من قصور عصر الملك لويس الخامس عشر، أي أنَّ بناءه قد بدأ حوالي سنة ١٧١٥ ميلادية، السنة التي اعتلى فيها هذا الملك عرش البلاد، ورغم أن هذا القصر تعدّى عمره مائتي عام، إلا إنهم لحسن الحظ قد صانوه صيانة جيّدة، فهو لا يزال في حالة حفظ

t.me/qurssan

ممتازة. بالإضافة إلى أنه بضربة حظّ قدرية بحتة، لم يمسّه أي سوء خلال سنوات الاضطرابات، التالية على الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، حين أدّت الغوغائية إلى احتراق عشرات القصور الملكية والكنائس القديمة في عموم فرنسا.

سكن هذا القصر أفراد من العائلة المالكة، حتى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، ثم هُجِرَ لبعض الوقت، إلى أن عادت الملكية بعد وفاة نابليون الأول، على زمن الملك لويس الثامن عشر، فعاد بعض الأفراد من أقرباء العائلة المالكة -أو من طبقة النبلاء أصحاب الإقطاعيات الزراعية الضخمة- إلى سكناه حتى بدايات القرن العشرين. ليس لديّ سجل كامل لأسماء الذين سكنوا هذا القصر.

يقع هذا القصر الذي تحيط به حديقة شاسعة، في موقع متوسّط من شرق باريس، على أرض أقرب إلى الاستواء في أغلب أنحائها، تقع بين نهري السين والمارن، في إقليم *Seine et Marne*، كما لو أن وجود هذين العائقين المائيين يوحي بأن الموقع لم يختر عشوائيًّا، بل كان من المقصود اختيار المكان بهذه العوائق الطبيعية، التي قد تمنع عنه غزوًا أجنبيًّا قادمًا من جهة شرق فرنسا. كانت الاستحكامات العسكرية البسيطة، في القرن الثامن عشر، تتحرّى في أغلب الحالات، أن تكون قصور العائلة الملكية، في أماكن تحصّنها الطبيعة ببعض العوائق، كمجاري الأنهار أو الجبال أو الغابات الكثيفة.

يحيط بهذه الحديقة سور مربّع، يبلغ ارتفاعه في بعض أجزائه خمسة أمتار، ويبدو بوضوح أن الارتفاع الأصلي كان ثلاثة أمتار، تمّت

t.me/qurssan

زيادتها لاحقًا إلى خمسة أمتار، وهذا ما يعطي الانطباع كما لو أنه كان قد تمّ تحويل هذا القصر إلى قلعة حصينة، وهو طبعًا إجراء وقائي، ضد أعمال الشغب التي وقعت خلال الثورة الفرنسية، التي قد تكون هي السبب في زيادة ارتفاع السور.

إلا أنني أثناء التنزّه في أرجاء الحديقة، خلال الإقامة المتكرّرة فيها بين ١٩٢٦ و١٩٣٦، اكتشفت في مواضع عديدة من هذا السور، وجود انهيارات حديثة بفعل الزمن، أو بفعل تغلغل المياه الجوفية في الأساسات، إلا أن هذا لم يكن يزعج بخيتة وأولادها؛ إذ كانوا يقولون إنه من المستحيل -في الزمن الحالي- الإبقاء على ملكية عقارية بمثل هذه الضخامة، وإن الحكومة ستتدخّل يومًا ما بالتأكيد، لقطع أجزاء من الحديقة للاستفادة منها في أغراض أخرى. وقد بدأت هذه الخطّة الحكومية، مع أول حكومة اشتراكية في البلاد، سنة ١٩٣٦ برئاسة ليون بلوم.

(٢)

أكثر ما يثير الدهشة في هذا القصر: حديقته؛ إذ تحيط بالقصر حديقة هائلة المساحة، ويمكنني هنا التعبير عن هذه المساحة باستخدام ثلاث طرق علمية:

أولًا- بالكيلو مترات: تقدّر مساحة الحديقة بمئة كيلو متر مربّعًا، وهذا الكلام معناه أن طول ضلع سورها المربّع هو عشرة كيلو مترات، ١٠ كيلومتر × ١٠ كيلومتر= ١٠٠ كيلو متر مربّعًا.

t.me/qurssan

ثانيًا- بالهكتارات: هذه المساحة معبّر عنها بالهكتار هي عشرة آلاف هكتار، وهو مقياس مساحة الأرض المعروف في أوروبا منذ العصر الوسيط وحتى الآن، ويقدّر الهكتار بعشرة آلاف متر مربّعًا.

ثالثًا- بالفدادين: الهكتار بحسب المقاييس التركية التي كانت منتشرة في أوروبا الشرقية تحت الاحتلال العثماني، يقدر بفدّانين ونصف، والفدّان هو حوالي أربعة آلاف متر مربّعًا، أي أن مساحة الحديقة خمسة وعشرون ألف فدّان.

كانت هذه الحديقة إذنْ:

١- مترامية الأطراف، وكلّما ذهبت إلى النزهة فيها على الأقدام اكتشفت المزيد من خفاياها، ففي البداية كنت أجد أحواضًا مقسّمةً بخطوط مستقيمة وبطريقة هندسية، لزراعة العديد من محصولات الحقول من الخضراوات وأشجار الفواكه، ثم أجد هناك العديد من أحواض المياه، التي تغذّيها مساقط مياه طبيعية، آتية من جهة المرتفعات الموجودة هي كذلك داخل أسوار الحديقة.

٢- لكني في الحقيقة لم أتمكّن أبدًا من متابعة أي مجرى مائي واحد، حتى الوصول إلى منبعه لمعرفة من أين يأتي، بسبب أنني كنت أتقدّم في السنّ، ولم أعد قادرًا على المشي عشرات الكيلو مترات، ورغم دوراني الحثيث في مكتبات القصر، إلا أنني للأسف لم أعثر أبدًا على خريطة تفصيلية لهذه الحديقة، التي كان يعمل فيها خلال الثلاثينيات حوالي مائة مزارع.

٣- لم تكن هناك فقط بحيرات للمياه المتحرّكة، بل كانت هناك

t.me/qurssan

كذلك مسطّحات من مستنقعات المياه الراكدة، التي تعلوها الطحالب الخضراء. وفي أجزاء من هذه المسطّحات المائية في الحديقة وجدت هناك الكثير من الفسقيّات وبها تماثيل ملوك فرنسا، وأحيانًا تماثيل لبعض شخصيات الأساطير اليونانية، وهو ما يجعل هذه الحديقة شبيهة بتلك المحيطة بالقصر الملكي في فرساي.

٤- بعض أجزاء هذه الحديقة كانت تجعلها تشبه الغابة بأدغالها الكثيفة، وبأشجارها المرتفعة المتزاحمة، وفي أجزاء أخرى هي مناطق صخرية جبلية، بها مرتفعات قليلة تصل في بعض الأحيان إلى مائة متر، وبها كهوف تبدو طبيعية، أي كأن الطبيعة هي التي حفرتها، وليست يد الإنسان، وبالتالي قد يكون عمر بعض هذه الكهوف مئات الآلاف من السنوات.

٥- من ملحوظاتي الأخرى وجود إضاءة داخل أجزاء الحديقة، تسمح بالتجوّل فيها ليلًا، وقد حلّت المصابيح الكهربائية الحديثة، منذ بداية القرن العشرين، محلّ القناديل القديمة، التي كانت سابقا تُملأ بزيوت الإضاءة التقليدية، التي تشتعل فيها النار.

(٣)

كانت بخيتة إذَنْ من أصول غجرية مكسيكية، وصلت ذات يوم إلى فرنسا، ليقع أحد نبلاء الأسرة المالكة في هواها، ويقرّر أن يتزوّجها بعقد كنسي شرعي يعترف به الجميع، وبالتالي حصلت هي الأخرى بهذا الزواج على ألقاب النبالة، التي احتفظت بها بعد موت زوجها،

t.me/qurssan

كما احتفظت ضمن إرث زوجها، بهذا القصر الباذخ. هذه هي الأقدار العجيبة التي لا تتوقّف أبدًا عن إدهاشنا. أعتقد أن هذه الحالة فريدة من نوعها في تاريخ فرنسا كلّه.

كانت بخيتة على قدر كبير من الذكاء، بحيث إنها كانت قادرة على فهم كل ما أتحدّث به إليها، بل ومناقشتي فيه، رغم أنها لم تحصل إلا على قدر ضئيل من التعليم النظامي، إلا أن محبّة زوجها الأول لها، كانت لها الفضل فيما حصلت هي عليه من ثقافة عامة، إذ حاول زوجها دائما تثقيفها قدر استطاعته، أولًا بتعليمها اللغة الفرنسية الكلاسيكية، وثانيًا بإقامة ما يشبه الصالون الثقافي في قصره، حيث كان يدعو المفكّرين والكتّاب والموسيقيين والفنّانين التشكيليين، لتتمكن هي من الاستماع إلى ما يقولونه، حيث كانت لها الحرّية الكاملة في إلقاء كل ما يخطر على بالها من أسئلة، يحاولون هم الإجابة عليها بأبسط وسيلة ممكنة.

عدا ذلك فقد أشركها الزوج في كل المسائل المتعلّقة بإدارة هذا القصر وهذه الحديقة، بما فيهما من موظّفين قد يبلغ عددهم مائتي شخص، مائة من العاملين في القصر، ومائة من العاملين في الحديقة. بل إنه كان يطلعها أولًا بأول، على كل الأرقام الخاصة بالإنتاج الحقلي من فواكه وخضراوات، وأساليب التعامل مع التجّار الزراعيين، حيث إن الزوج كان حصيفًا؛ إذ أدرك أن المخصّصات الملكية في ميزانية الدولة الجمهورية، ستقلّ بالتدريج مع السنوات، فكان يحاول دائما الحصول على مصادر دخل أخرى.

وقد لاحظتُ خلال إقامتي المنتظمة لديها، خلال أشهر الصيف

t.me/qurssan

كل عام، لمدّة حوالي عشرة أعوام، بين ١٩٢٦ و١٩٣٦، كما سبق وأن ذكرت، أنها تدير كل هذا، ولكن بقدر من الاستخفاف والتهكّم، كأنها لا تعنيها كل هذه المكاسب المالية، أو كأنها تودّ لو عادت إلى حياتها الأولى، كغجرية تعيش حياتها يومًا بيوم.

كانت تكره هذه المسؤوليات، لكنها استطاعت أن تحتفظ بالتوازن النفسي، بين إدارة هذا القصر وهذه الحديقة من ناحية، وبين الاحتفاظ بروحها الغجرية التي كانت لا تزال تحتفظ بها في كوامنها من ناحية أخرى. لم تفسدها هذه الثروة الطائلة. لم تجعلها تفقد روحها الحقيقية. هذه هي المعجزة الحقيقية المسمّاة بخيتة

(٤)

في الوقت الذي عرفت فيه بخيتة، في عشرينيات القرن العشرين، كانت قد تعدّت الستّين من عمرها، جدّة لثمانية أحفاد، جاؤوها من ثمانية أبناء، جاؤوها من أزواجها الأربعة. وطبعًا خلال السنوات الأخيرة من عمر بخيتة كان إنتاج الأحفاد لا يزال مستمرًا، ولم أعرف أبدًا كم كان بالضبط عددهم عندما ماتت. كان منطق قبيلة الغجر التي يجب أن تكون كبيرة العدد قدر المستطاع، ويجب أن يلتزم أفرادها بالحياة معًا في عيشة مشتركة، يبدو هذا واضحًا جدًا في سلوك بخيتة مع أبنائها وأحفادها، إذ إنها كانت تحاول بأقصى طاقتها أن تحتفظ بهم كلهم معها في القصر.

t.me/qurssan

الاتزان. هذا الرجل عندما عرفته في بداية زواجهما سنة ١٩٢٦، كان كل دخله هو معاش شهري يأتيه من أحد أقاربه الأثرياء.

ثم أصابه طموح مفاجئ، غالبًا بعدوى من طموح زوجته. فرغم أنها لم تمكّنه من وضع يده على أي جزء من ثروتها، إلا أنها شجّعت المشاريع التي انغمس فيها، عندما بزغت مجموعة من الأفكار المدهشة في رأسه، وهو الرأس الذي لم يعرف أبدًا من قبل مثل هذه النوعية من الأفكار:

١ - كانت هناك قطعة كبيرة من أرض الحديقة، تقع إلى جوار جزء مهدّم من سورها القديم، وهذه الأرض كانت في حالة بوار دائم، ومغمورة بشكل تام بمياه مستنقعات راكدة، قام الزوج بردمها وتحويلها في أقل من عام إلى أحد أكبر أندية الجولف في ضواحي باريس، وقام ببناء الجزء المهدّم من السور، وفتح فيه بوّابة، وضع عليها اسم نادي الجولف، الذي حصل المتردّدون عليه خلال العام الأول على عضوية دائمة.

٢ - في العام التالي نجح في شراء قطعة أرض، كانت هي الأخرى في حالة بوار دائم تغمرها مياه المستنقعات الراكدة، ملاصقة لسور القصر من خارجه، ردمها هي الأخرى وحوّلها إلى أرض صالحة للبناء.

٣ - أدخل معه شركاء من العاملين في مجالات البناء، بنوا عليها مجمّعات سكنية لعمّال مصانع الضواحي، من المساكن المعروفة منذ وقتها، باسم مساكن ذات إيجارات معتدلة *HLM*.

٤ - بفضل النجاح الجماهيري والإعلامي الكبير لهذين المشروعين، تمّ تعيينه من قِبَل حكومة الدولة الفرنسية، في هيئة مستشاري الدولة لقطاع الإسكان.

t.me/qurssan

٥- الخطوة التالية هي أنه نجح في انتخابات الإدارة المحلية، وحصل على منصب العمدة في القرية القريبة، التي كانت مساكن العمّال قد دخلت إداريًّا في نطاقها.

٦- في الانتخابات التشريعية القومية، على مستوى الدولة الفرنسية، نجح في الحصول على أكبر عدد من الأصوات، على مستوى فرنسا كلها؛ لأن عدد العمّال الذين سكنوا في مشروعه الإسكاني، بالإضافة إلى عدد سكّان القرية القريبة التي أصبح عمدة لها، بلغ إجمالهما ٤٥ ألفًا، وهو ما أهّله لدخول مجلس النوّاب.

٧- عندما أقحم نفسه هكذا في مجال السياسة، وجد أنه من الطبيعي كذلك أن يقحم نفسه في مجال الصحافة، وهكذا أنشأ لنفسه جريدة خاصة به.

حدثت كل هذه التطوّرات في أقل من عشر سنوات، كأنه كان يريد أن يقول لبخيتة إنه جدير بها. وقد أصبح هذا الشخص معروفًا في فرنسا كلها في الثلاثينيات، لذلك لن أذكر اسمه. لكني كنت ممتنعًا تمامًا عن المشاركة في تحرير جريدته، عندما دعاني هو إلى ذلك، وقد امتنعت كذلك تمامًا عن قراءة جريدته، والحمد لله أن الإذاعة الفرنسية لم تكن قد بدأت بعد، في دعوة رجال المال والسياسة إلى الحديث فيها عبر الأثير، وإلا لكنت امتنعت عن الاستماع إليها.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثاني

ضواحي باريس

(١)

كنت إذَنْ أذهب للإقامة في القصر بضعة أشهر كل عام، باحثًا عن العزلة اللازمة للكتابة، وكانت بخيتة تصرّ دائمًا على بقائي لديها أطول مدّة ممكنة؛ إذ إنها كانت كما تقول تستمتع ببقائي لديها، وكانت بالتالي توفّر لي كل أسباب الراحة حتى أتفرّغ تمامًا للكتابة، أمّا باقي الوقت فكنا نقضيه في نزهات خلوية على الأقدام، قد نخرج أثناءها معًا إلى بعض مناطق الريف المحيط بالقصر، ونحن نتخفّى في ثياب عادية، حتى لا يعرف الناس أن هذه السيّدة هي ساكنة القصر، لكن في أغلب الأحوال كنت أخرج وحدي، مبكّرًا جدًّا قدر الإمكان، للنزهة على الأقدام.

هنا آتي إلى لبّ الموضوع، إذ إن السبب الرئيس لرغبتي في الكتابة عن هذا القصر وعن بخيتة، هو رغبتي في الإشارة إلى أنه حتى ذلك الوقت من ثلاثينيات القرن العشرين، كان سكّان المناطق الريفية المحيطة بالقصر، أي ما يقع حاليًا ضمن نطاق ما يسمّى ضواحي

t.me/qurssan

باريس، لا يزالون يعيشون بشكل تام الوضوح، في حالة شديدة من البؤس والمعاناة.

كنت في ذلك الوقت مشغولًا بكتابة رواية، كنت أنوي تسميتها (خبزنا اليومي)، في إشارة إلى إحدى العبارات الواردة في الإنجيل، ضمن العبارات التي ذكرها يسوع المسيح، عندما طلب منه حواريّوه وتلاميذه أن يعلّمهم كيف يصلّون، فيما أسماه هو نموذجًا للصلاة إلى الله، وما أسموه هم لاحقًا الصلاة الربّانية، وهي العبارة التي يقول فيها: «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم»، ثم غيّرت العنوان فيما بعد إلى العنوان المعروف به هذا العمل حاليًا وهو (ضواحي باريس).

إذَنْ فإن نزهاتي على الأقدام، أثناء إقامتي في قصر بخيتة، هي التي أوحت إليّ هذا العمل، عن يوميّات الحياة في الريف الفرنسي المحيط بالعاصمة، وعن التطوّر الاقتصادي والاجتماعي خلال حوالي نصف قرن من الزمان.

باختصار شديد العمل يدور حول كيف كان الناس يكسبون قوتهم اليومي، في تلك الفترة ما بين الحربين العالميتين، التي جمعت خلال تلك السنوات العشر، بين نقيضين شديدي الاختلاف، إذ كانت العشرينيات فترة ازدهار اقتصادي كبير في العالم أجمع، حتى إن الناس في باريس أصبحوا يسمّون العشرينيات بالزمن الجميل *la belle epoque*، في حين تسبّبت أزمة الانهيار الاقتصادي الكبير، في سوق الأوراق المالية في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٢٩، في إحداث حالة من الكساد العالمي استمرّت بضع سنوات.

t.me/qurssan

من بين بوادر التغيير التي ظهرت خلال العشرينيات، كان الانتشار الكبير لوسائل التسلية، مثل السينما الناطقة والراديو والتلفزيون، وصالات الرقص الشاسعة، التي تستقبل ألف راقص وراقصة، لليالي السبت والأحد من كل أسبوع، والسيّارات الخاصة الرياضية، التي يمكنها أن تصل إلى سرعات غير مسبوقة، مثل ١٠٠ كيلو متر في الساعة، وخطوط الطيران المنتظمة بين كل عواصم العالم، وظهور نوع جديد من الموسيقى هو الجاز *Jazz*.

تلك كانت أهم ملامح التغيير الفنّية، في حين كانت أهم ملامح التغيير الاجتماعية في الثلاثينيات، بعد الكساد العالمي الكبير، أن فقدت جماهير شعوب العالم الثقة في النظام الرأسمالي، وبالتالي نجحت أول حكومة اشتراكية في الانتخابات التشريعية في فرنسا، سنة ١٩٣٦ بزعامة ليون بلوم، وبالتالي حصل العمّال - لأول مرة في التاريخ الفرنسي - على الحقّ في إجازات سنوية مدفوعة الأجر، كانت هذه الإجازات أسبوعًا ثمّ أصبحت أسبوعين، وهي قابلة للزيادة مع الوقت؛ إذ إن العمال كانوا قبل ذلك التاريخ إذا حصلوا على إجازة من العمل تكون غير مدفوعة الأجر.

(٢)

خلال عشر سنوات بين ١٩٢٦ و١٩٣٦، كتبت عشر كرّاسات، بكل منها حوالي مائة صفحة، أي أن الإجمالي العام لهذا العمل لو قدّر له أن يطبع، هو حوالي ألف صفحة مطبوعة. في ذلك الوقت كنت لا

t.me/qurssan

أزال قادرًا على العمل كبحّار موسمي، وكان يمكنني أن أختار أن أعمل في بعض المواسم، وأختار بعض الرحلات إلى جهات بعينها، وكنت أحبّ كثيرًا الرحلة من موانئ فرنسا إلى موانئ أمريكا الجنوبية، فكنت لذلك في كل مرة أنتهي من كتابة كرّاسة، أثناء واحدة من رحلاتي الطويلة إلى أمريكا الجنوبية، أضعها في خزينة باسمي، في أحد بنوك أمريكا الجنوبية، وهكذا أصبحت لديّ خزائن باسمي في بنوك ساوباولو وريو دي جانيرو في البرازيل، وفي بنوك مونتي فيديو في أوروجواي، وفي بنوك أسونسيون في باراجواي، وفي بنوك بوينس إيرس في الأرجنتين.

في ذلك الوقت كنت أعتقد أن أوروبا ستتعرّض حتمًا لكارثة كبرى، تقضي تمامًا على كل مظاهر الحياة فيها، أو على الأقل تقضي على مظاهر المدنية الحديثة فيها، منذ أن سمعت لأول مرّة عن إمكانية صنع قنابل ذرّيّة، وعن القدرات التدميرية الهائلة لهذه القنابل. لهذا كنت أقول في نفسي: لو قدّر لي أن أظل باقيًا على قيد الحياة، بعد وقوع تلك الكارثة الكبرى، يمكنني أن أذهب إلى أمريكا الجنوبية وأستردّ كرّاساتي.

أو إذا كان مقدّرًا لي أن أموت، بسبب تلك الكارثة الكبرى، يمكنهم في هذه الحالة إن طال غيابي، أن يفتحوا تلك الخزانات، وأن يحصلوا على تلك الكرّاسات، وأن يقرأوا ما فيها ليقرّروا بأنفسهم لاحقًا جدوى أو لا جدوى طبعها في كتاب، أو في عدّة كتب، وعرضها على الناس.

إنها شهادات نقدية قاسية في قالب روائي، شهادات على الناس وعلى الأحداث، وبسبب هذه القسوة في النقد، قدّرت أنه من الأفضل عدم طبعها في وقت الانتهاء من كتابتها، بل كان في اعتقادي أنه من

t.me/qurssan

الأفضل نسيانها، لفترة زمنية طويلة، حتى تكون عند نشرها، تتحدّث عن ناس موتى، وعن أحداث منسيّة.

(٢)

هنا يحضر إلى ذهني على الفور شخصان، الأول هو شخص (أرتور رامبو) *Rimbaud*، الذي كتب شهادته على الناس وعلى الأحداث فيما بين سن السادسة عشرة وسن العشرين، ثم توقّف تمامًا عن الكتابة، وهرب من فرنسا إلى أبعد نقطة ممكنة في أفريقيا الاستوائية، ليبتعد عن الناس قدر الإمكان، حتى وفاته شابًا في سن السابعة والثلاثين، ولم يكن التوقّف بسبب نضوب المعين، بل بسبب ردود أفعال الناس العنيفة على كتابته. لو كنت في مكانه، لفضّلت عدم النشر على الفور، بل الانتظار قليلًا من الوقت حتى الوصول إلى مرحلة متقدّمة في السنّ.

يحضر إلى ذهني كذلك مؤلّف آخر من بين مَن تكلّموا في حياتهم وباحوا بكل ما تكنّه صدورهم، هو جول رومان *Jules Romains* الذي نشر كتابه (الرجال ذوو النوايا الحسنة)، الذي لم يكن يخاطب فيه الأجيال القادمة، بل الأجيال الحالية، بغرض الإصلاح الاجتماعي، لذلك أساء معاصروه فهم رسالته؛ إذ اعتقدوا أنه يبحث عن مصلحة شخصية أو مجد ذاتي. كان رومان يكتب بطريقة توحي كأنه يقول لقارئه، وهو يغمز له بعينه: "أنا وأنت نصنع التاريخ"، وأنا أقول لرومان: "أنت لا تستطيع أن تكون حكمًا عادلًا وجلّادًا في نفس الوقت، وعليك أن تختار بين الحالتين".

t.me/qurssan

في المقابل هناك شخصان آخران، ربطت بينهما فكرة رفضهما أن يكتبا في حياتهما، عمّا عبّرا عنه شفهيًّا أمام آلاف الأشخاص، وهما سقراط والمسيح. الأول زمنيًّا هو سقراط، الذي كان يحكي لتلاميذه ولندمائه الكثير مما يمكن تصنيفه نقدًا اجتماعيًّا، الذي لم يسجّله أبدًا كتابةً، بل سجّله عنه بعض تلاميذه وندمائه، غالبًا في مرحلة لاحقة على وفاته، إذ فضّل هو أن يظلّ هذا التراث شفهيًّا، طالما بقي هو على قيد الحياة.

نفس الشيء يمكن قوله عن يسوع المسيح، الناقد طول الوقت للنظم الاجتماعية في زمنه، الذي فضّل هو الآخر عدم تسجيل أي شيء بمعرفته، بل اكتفى بأن يطلب من حوارييه أن يكتبوه عنه، وأن ينشروه في العالم الأرضي بعد انتقاله إلى العالم الآخر. أنا كذلك فضّلت أن أظل مجهولًا لأطول فترة ممكنة من حياتي.

(٤)

كنت أندهش دائمًا كلما لاحظتُ قلّة عدد كبار الكتّاب الفرنسيين، من الجيل السابق على جيلي، الذين التفتوا إلى/ أو كتبوا عن سوء أوضاع معيشة البشر فيما نسمّيه حاليًا ضواحي باريس، رغم أن كتاباتهم في مجملها تشير إلى قدر فائق من الحساسية تجاه أوضاع البشر. في عبارة واحدة يمكنني أن أقول: إن ضواحي باريس هي الوجه المجهول النازف لمدينة النور، الوجه الذي يشير إلى كمّ خطير من الاعوجاج والغرابة. بالإضافة إلى غرابة أن يكون القائمون على الأمور كأنهم لا يسمعون ولا يرون.

t.me/qurssan

هل سمع سابقونا ورأوا ولكنهم اعتقدوا أنه لا يمكن إصلاح الأوضاع؟ هل اعتقدوا أن العفن والفساد اللذين أصابا جسد المريض، هما الدليل على أن هذا المريض قد مات وأصبح جثّة عفنة فاسدة؟ وبالتالي فليس هناك ما يدعو إلى محاولات إنقاذه؟

ما أستطيع أن أؤكّده هنا، هو أن ضواحي باريس تبدو كما لو كانت على وشك الانهيار التام، منذ رأيتها لأول مرة في حياتي في السنوات الأولى من القرن العشرين، وطوال السنوات التالية، وصولًا إلى الأوضاع الحالية في منتصف القرن. يمكنني أن أقول إنه كانت هناك محاولة لبداية حركة الإصلاح، عندما جاءت أول حكومة اشتراكية بزعامة ليون بلوم سنة ١٩٣٦، إلا أن نشوب الحرب العالمية الثانية أجهض هذه الحركة.

بالمناسبة اعتقدت في ذلك العام، أن مجيء الاشتراكيين إلى الحكم قد يشجّع فقراء الشعب الفرنسي على القيام بثورة فرنسية ثانية ضد النظام الرأسمالي هذه المرة، بعد أن كانت الثورة الفرنسية الأولى قد قامت ضدّ النظام الملكي، إذ كانت بوادر الثورة الاجتماعية واضحة، إلا أن نشوب الحرب سنة ١٩٣٩ أجهضها هي الأخرى.

من الجائز أن كبار رجال الدولة لم يكونوا يستعملون سيّاراتهم الخاصة في الذهاب إلى الضواحي، بل كانوا يستعملون القطارات، وأن هذا هو ما منعهم من مشاهدة ملامح الفقر والبؤس الواضحة على الطرقات الأسفلتية، فأنت من نافذة القطار لا يمكنك أن تشاهد كل شيء، وبالتالي هم لم يعرفوا إلى أيّ درجة من السوء وصلت أوضاع الطرق الريفية.

t.me/qurssan

ملحوظة أخرى تتعلّق بلوحات الإعلانات الضخمة، المعلّقة على جوانب الطرق الريفية، وتحمل صورًا لبضائع استهلاكية، لم تصل أبدًا إلى مستهلكي الأرياف، لأنه لم يكن في الأرياف مستهلكون يستطيعون شراءها. أتساءل كيف أن الإعلان عن هذه البضائع الاستهلاكية الاستفزازية، لم يثر غضب ساكني الأرياف؟ رغم أن هذه الإعلانات كانت تشير إلى الفرق الاجتماعي الضخم بين ساكني المدينة وساكني الأرياف.

(٥)

كان على ساكني الضواحي أن يدفعوا ثمن التطوّر والمدنية، من الهدوء الذي نعموا به طويلًا، إلى الضوضاء والصخب اللذين أصبحا يحيطان بهم في كل مكان. وتفصيل ذلك أنه حتى بداية القرن العشرين، لم تكن هناك طرق دائرية حول باريس، إذ لم تكن هناك بعد سيّارات تدور بمحرّكات، تستلزم إنشاء الطرق السريعة. إلا أن ظهور السيّارات الخاصة، جعل من إنشاء الطرق الدائرية حول باريس حتمية تاريخية وجغرافية واقتصادية.

يحيط بباريس طريقان دائريان، الطريق الدائري الداخلي ويسمّى الحزام الصغير، وهو على بعد حوالي خمسة كيلو مترات من قلب باريس، والطريق الدائري الخارجي ويُسمّى الحزام الكبير، وهو على بعد حوالي عشرة كيلو مترات من قلب باريس. طبعًا بسبب هذين الطريقين الدائريين، تمّ إنشاء المئات من الكباري والأنفاق، التي تنقل السيّارات

t.me/qurssan

من الطرق الفرعية إلى الطرق الرئيسة والعكس، مما استلزم استحداث شبكة جديدة من الشوارع، التي كانت تجور غالبًا على مساكن وحدائق الضواحي في مئات المواضع.

ثم على بعد خمسة عشر كيلو مترًا من الحزام الكبير، أي من الطريق الدائري الخارجي، كانت هناك حلقة ثالثة تحيط بباريس، على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلو مترًا من قلب العاصمة، وهذه الحلقة الثالثة هي خطّ سكّة حديد يدور حول باريس. كان الغرض من إنشاء خطّ السكّة الحديد الدائري، هو السماح للناس من ساكني الضواحي، باستعمال خطوط السكك الحديدة الكبرى، المتجهة من باريس إلى مدن فرنسا الرئيسة الكبرى، مدينة ليل في الشمال الشرقي، ومدينة بوردو في الجنوب الغربي، ومدينتي ليون ومارسيليا في الجنوب، أثناء مرور هذه الخطوط بمحطّات الضواحي، دون الحاجة إلى الذهاب إلى المحطّات الكبرى في باريس، فهذا الخطّ الدائري يتقاطع مع خطوط السكك الحديدية، المتّجهة إلى المدن الكبرى.

هكذا انقلبت أحوال ساكني الأرياف، وأصبح من المستحيل أن يحتفظوا بالهدوء الذي تمتّعوا به طويلًا. هل تساوي المدنية الحديثة أن تنقلب الحياة إلى صخب دائم؟ بالإضافة إلى كل هذا هناك المشكلة النفسية الاجتماعية التي عانى منها سكّان الضواحي، وهي أن أغلبهم -حتى سنوات قليلة من منتصف القرن العشرين- لم يكونوا من بين القلّة الفرنسية التي تستطيع أن تشتري سيّارة حديثة بمحرّك، وهكذا شعر سكّان الضواحي أنهم يضحّون بالهدوء الذي كان لهم، في سبيل راحة

t.me/qurssan

قلّة متميّزة من الباريسيين، لكي تحصل هذه القلّة بذلك على المزيد من الامتيازات.

(٦)

لكن من وجهة النظر المضادة، فإن إنشاء هذه الطرق الدائرية كان حتمية تاريخية واقتصادية؛ إذ إن نقل البضائع من باريس إلى غيرها من المدن، حتى ظهور وانتشار خطوط السكك الحديدية، أي حتى حوالي منتصف القرن التاسع عشر، كان يتمّ إما عبر المراكب التي تمخر عباب الأنهار، في شبكة من المجاري المائية حول العاصمة، أو عبر عربات النقل الخشبية التي تجرّها الخيول، تسير في الطرق الريفية.

وبالتالي كانت عملية نقل البضائع تستغرق وقتًا طويلًا، حيث كانت المشكلة الحقيقية هي غالبًا في عدم وجود خط سير متصل للمجرى المائي، أو للطريق الريفي، بين مكان الشحن في باريس، ومكان التفريغ في المدينة القريبة من باريس، بحيث كان من الضروري أحيانًا تفريغ المركب أو العربة يدويًّا من البضائع، ثم إعادة شحنها على مركب آخر أو عربة أخرى، تقف على بعد عشرات الأمتار في مجرى مائي آخر، أو في طريق ريفي آخر.

إذَنْ جاء خطّ السكك الحديدية الدائري، ليسهّل عمليات نقل البضائع؛ إذ تظل البضائع موجودة فوق نفس عربة السكّة الحديد، وتنتقل العربة محمّلة بالبضائع من فوق خطّ سكك حديدية، إلى فوق خطّ سكك حديدية آخر، بواسطة شبكة متقنة الصنع من خطوط السكك

t.me/qurssan

الحديدية، دون تفريغ العربات وإعادة شحنها.

هنا أشير إلى بعض الحقائق التاريخية الأخرى التي منها مثلًا:

١ - عند إنشاء الطريق الدائري الداخلي، كان كل ما يقع خارجه هو من الأراضي الزراعية، التي كانت لا تزال تنتج الكثير من المحاصيل الزراعية، وكانت حدود الملكيّات الزراعية الضخمة، تفصل فيما بينها صفوف من أشجار السنط الجميلة المنظر.

٢ - تمّ تجريف هذه الأراضي الزراعية تدريجيًّا، مع الاحتفاظ مؤقّتًا بأغلب صفوف أشجار السنط، وكان هدف مشروع التجريف هو بناء مجمّعات هائلة من المساكن الشعبية، التي نسمّيها في فرنسا مساكن ذات إيجارات معتدلة *HLM*.

٣- ثم ظهرت للأسف الشديد مداخن المصانع التي تعمل طول الوقت بنظام ثلاث ورديّات× ثماني ساعات، مما حوّل سماء باريس وضواحيها الى اللون الأسود، ولم يلتفت أحد إلى التأثير الملوّث للبيئة لهذا الدخّان.

٤ - قامت بعض المصانع بإزالة بعض صفوف أشجار السنط، التي تمّ وضع أسوار من الأسلاك الشائكة في أماكنها.

٥- ثم ظهرت محطّات كهرباء الضغط العالي، التي تلوّث السماء بالشحنات الكهربائية غير المرئية، لكني أسمعها كلما مررّت إلى جوارها.

٦- ثم ظهرت في أوائل القرن العشرين، واحدة من أوائل ناطحات

t.me/qurssan

سحاب باريس، التي كانت من خمسة عشر طابقًا، وتستفيد من ظهور اختراع جديد هو المصاعد الكهربائية. من الغريب أن هذا المبنى المرتفع، كان مستشفى يحمل اسم الطبيب الفرنسي كلود برنار، ثم أصبح يحمل اسم بيشا *Bichat*، ويقع حاليا عن باب سانت وان *Porte de Saint Ouen*.

(٧)

أنا أكتب هذه الفصول بين عامي ١٩٤٦ و١٩٤٧، بعد انتصار الحلفاء على النازي، لذلك يمكنني أن أقول إن سكّان ضواحي باريس كانوا من بين أكثر الفرنسيين الذين فقدوا ممتلكاتهم القليلة في هذه الحرب. فإذا حاولت أن أقارن بين أحوال الضواحي عندما أقمتُ فيها، أثناء حبّي لأنطوانيت في السنوات الأولى من القرن العشرين، وبين نفس الأحوال بعد عشرين عامًا، عندما أقمت في قصر بخيتة، ثم بعد أربعين عامًا، عندما عدت إلى الإقامة في باريس في نهاية الحرب، لاحظت بسهولة ووضوح حجم التدهور الذي حدث في نوعية الحياة المتاحة لهم.

١- أول ملاحظة هي أنه مع بداية الحرب، تمّ إسقاط الحقوق المدنية عن هؤلاء السكّان، أي الحقوق التي ينبغي أن يتمتّع بها كل سكّان المدن الحضارية الكبرى في العالم الغربي، مثل الحقّ في الحصول على مياه شرب نقيّة، ونظام صرف صحّي متطور، وأسلاك تمدّ المساكن بالكهرباء طوال ساعات الليل والنهار، وشوارع يمكن

t.me/qurssan

المشي فيها أو قيادة السيّارات عليها للوصول إلى المنازل أو لمغادرتها.

٢- طبعا استمرّ إسقاط هذه الحقوق عنهم، طوال مدّة الاحتلال النازي لباريس حتى أغسطس ١٩٤٤.

٣- تسبّبت محاولات السلطات الفرنسية في إعداد تحصينات حربية خلال العام الأول من الحرب، في تدمير جزء كبير من البنية التحتية في ضواحي باريس، خاصة إلى جهتي الشمال والشرق، التي كان من المتوقّع أن يأتي منها الأعداء، فقامت السلطات الحربية بحفر خنادق لاختباء الجنود داخلها، وبناء تلال صناعية أُقيمت فوقها منصّات إطلاق القذائف.

٤- عندما اعترض بعض الضبّاط الألمان المستنيرين على ضرب باريس بالقنابل، في محاولة منهم للإبقاء على تراثها الحضاري والفنّي، لم يستطيعوا أن يعترضوا كذلك على ضرب ضواحي باريس، فتحمّلت الضواحي كل عبء التدمير بالقنابل.

٥- هذا هو نفسه السبب في أننا نرى -في ضواحي باريس منذ منتصف الأربعينيات- عددًا كبيرًا من سكّانها مشوّهين في أجسادهم وفي وجوههم، بالإضافة إلى عدد كبير من العاهات مثل فقد الأذرع والسيقان.

٦- الشيء الأكثر إثارة للدهشة، هو إدراك حجم الزيادة الهائلة في أعداد المرضى العقليين، المصابين بالهلاوس والضلالات، الذين ازدحمت بهم المصحّات العقلية، منذ نهاية الحرب، بسبب المآسي التي تعرّضوا لها، مثل أخطار التعرّض كل يوم لاحتمال للموت، أو

t.me/qurssan

بسبب الموت الفعلي لأقرب الناس اليهم. تبدو لي هذه المسألة حاليًا كما لو أن المرض العقلي أصبح من الأمراض الوبائية المعدية، التي تصيب كل سكّان بلد ما في نفس الوقت.

* * *

الفصل الثالث

كيف أختار أماكن سكني؟

(١)

كنتُ أحيانًا أسكن قصرًا، وأحيانًا أُخرى أسكن كوخًا، ولم أكن أبدًا في القصر أكثر سعادةً مما كنت عليه في الكوخ. وقبل أن أصل إلى تفصيل ذلك، سأبدأ بالقول (من وفرة ما في قلبك، ينطق لسانك، إن خيرًا أو شرًّا)، ولم أعد أتذكّر إن كان هذا القول مأخوذًا من الإنجيل، أو من مصادر أخرى، ذلك لأني مبدئيًا لم أعد أؤمن بكل ما جاء في الأناجيل، ولكن ببعضه فقط، على أي الأحوال هذا هو المثل الذي ينطبق تمامًا على [الأمّ]، وهي شقيقة ساوو التي تكبره في السن بحوالي عشر سنوات، ولأنهما فقدا أمّهما مبكّرًا، فقد اعتاد ساوو أثناء طفولته أن يناديها (ماما)، واستمر في ذلك طوال حياتها.

إحدى المشاكل في هذه الرواية هي أن هناك شخصين يحملان نفس الاسم (ساوو *Sao*)، لذلك يصحّ أن نطلق على أكبرهما سنًّا اسم ساوو الكبير، وعلى أصغرهما سنًّا اسم ساوو الصغير، والصغير هو

t.me/qurssan

ابن أخت الكبير، وهو الذي كان زميلًا لي في جبهة القتال، حيث قابلته في الخنادق، على الجبهة الفرنسية/ الألمانية، أثناء الحرب العالمية الأولى.

عدا الابن ساوو الصغير كان لدى [الأم] أيضا ثلاث بنات. سأعرفهنّ جميعًا، واحدة واحدة، وستصبح إحداهنّ عشيقة لي لبعض الوقت، وقد تمت هذه العلاقة بمعرفة الجميع، دون أي قدر من التخفّي أو التعمية. لكن الأم في الحقيقة هي مَن تمثّل لي -كمؤلّف- أحد أفضل الأمثلة على كيف تكون حياة الغجر، إذ اتخذتها نموذجًا للغجر في كل كتاباتي عنهم، فلو أراد أحدٌ أن يكتب عنهم، عليه أن يستمع إليها، وقد عاشت أغلب حياتها في تنقّل دائم على الطرقات، بين دول مختلفة في شرق أوروبا ثم في غربها.

في الحقيقة كان أول ما لفت انتباهي إليها أن لسانها لم يكن ينطق إلّا بالحكمة، التي اكتسبتها من الحياة، فهي بالإضافة إلى تنقّلها الدائم، هناك أيضا عشر زيجات، أنجبت منها أحد عشر طفلًا، لم يعد متبقيًا منهم إلا هؤلاء الأربعة، الذَّكَر الواحد والثلاث إناث. كانت الفتيات الثلاث يتبعن سيرة أمّهنّ وطريقتها في الحياة، إلا أنهنّ لم يحصلن على الحكمة التي كانت لها، فقد تزوّجت كلٌّ منهنّ عدّة مرّات، منذ أن كنّ لا يزلن في مراهقتهنّ المتأخّرة، وأنجبت كل واحدة منهنّ عدّة أطفال.

إلّا أن مراقبة الأعمام المستمرّة لهؤلاء الفتيات الثلاث، جعلتهنّ أقلّ حرّيّة في الحركة، مما كانت عليه الأوضاع الخاصة بأمهنّ، التي يبدو لي الآن أنّها كانت مطلقة العنان في شبابها، إذ إنه لم يكن هناك أحدٌ

يراقبها. يبدو لي الآن بوضوح، أن هناك مبدأً مهمًّا في الحياة، وهو: أنه لا يمكنك أن تصبح حكيمًا، ما لم تكن حرًّا.

(٢)

عندما أقول إنها تزوّجت عشر مرّات، ففي الحقيقة لم تكن هذه الزيجات من النوع المألوف لنا، كفرنسيين نعتنق الديانة المسيحية ونعيش في دولة حديثة، حيث إن الزواج في فرنسا الحالية يجب أن يذهب الحبيبان إمّا إلى الكنيسة، وإما إلى مكتب الزواج المدني في دار العمودية. أما بالنسبة للغجر، فليست لديهم في الأساس أوراق إثبات شخصية، لأنّه حيث إنهم في تنقّل دائم، فبالتالي ليست لديهم مقرات إقامة ثابتة، وليست لديهم عناوين ثابتة، لأنه لكي تستخرج لك السلطات الفرنسية بطاقة شخصية، يلزم أن يكون لديك العنوان الثابت، ولهذا ليست للغجر عقود زواج.

ما يحدث عندهم هو أن يتفّق الطرفان على أن يعيشا معًا، وبعد ذلك يتركان الأمر للأقدار، فقد تستمرّ هذه الحياة المشتركة إلى نهاية العمر، وقد لا تدوم إلّا لشهر واحد أو لبضعة أشهر، فليست هناك أيّ ضمانات للمرأة على الإطلاق، فإذا تركها الرجل، تقوم المسكينة وحدها بتربية الأطفال، بمساعدة من أبيها أو من أخيها.

عدا مسألة انعدام الحكمة لدى الفتيات الثلاث، هناك فرق آخر شديد الوضوح بين [الأمّ] وبناتها، فبقدر ما كانت هي ثرثارة، وما في قلبها ينتقل على الفور إلى لسانها، إذ تتنقّل في أحاديثها بسهولة، بين

t.me/qurssan

ذكريات تاريخ ماضيها الطويل، ووقائع حاضرها الزاهر، وتنبؤاتها للمستقبل، بصفتها التي اعتقد فيها الجميع، وهي أنها مكشوف عنها الحجاب، كانت الفتيات الثلاث يَمِلْنَ إلى الصمت، خاصة في حالة حضور مَن هم غرباء عنهنّ، ويملن كذلك إلى اعتبار أن تفاصيل حيواتهنّ لا تخصّ أحدًا آخر عداهنّ. ثم فرق آخر، فإذا كانت الأم لا تذكر أحدًا إلَّا بالخير، كانت الفتيات الثلاث لا يذكرن أيّ شخص بأي خير، بل لم يكن هناك على ألسنتهنّ إلا سوء الظنّ بالآخرين، والرغبة في جرحهم والإساءة إليهم.

فإذا كنتَ أيها القارئ في مثل حالتي، قد قرّرت بسبب حبّك للغجر، وتفضيلك لأسلوب حياتهم، أن تذهب معهم في جولة طويلة، بين مدن وقرى فرنسا، لعرض ألعابهم المسرحية، وأصبحت بالتالي تسير يومًا بعد يوم في قافلة من الغجر، على الطريق بين مدينتين أو قريتين، وأوقعك حظّك العاثر كما أوقعني، أثناء تنقّلك في عربة تجرّها الخيول، لتجد نفسك طوال الوقت، إلى جوار عربة أخرى، من عربات النساء والأطفال.

فلتكن على ثقةٍ من أنك لن تهنأ بلحظة راحة واحدة، ولن تستمتع بسكينة هنيهة واحدة، ولن تتمكن من التحليق في الفضاء المفتوح أمامك فوق الغيطان والحقول والبراري، بسبب تلك الضوضاء الهائلة التي تصمّ الآذان، الصادرة من عربة النساء والأطفال؛ لأنك ستكون طول الوقت مضطرًا إلى الإنصات إلى ما يشبه الأصوات الصادرة عن حظيرة دواجن ممتلئة عن آخرها بالفراخ والكتاكيت، فالنساء لا يتوقّفن عن

t.me/qurssan

الكلام كلّهن في نفس الوقت، ولا واحدة منهنّ تنصت على الإطلاق، أما الأطفال فيواصلون البكاء دون توقّف.

(٣)

ما حدث سنة ١٩١٦ هو أنه عند عودتي من الجبهة مع ساوو الصغير بعد انتهاء خدمتي العسكرية، لم يكن لديّ مقرّ إقامة، لا في باريس ولا في غيرها، لذلك ذهبت مع صديقي إلى القافلة التي تحمل أمه وأخواته، في جولة حول مدن وقرى فرنسا، كانوا يطلقون عليها اسم (قافلة المسرح المتجوّل).

هذه المرّة كان قائد هذه القافلة هو أحد أعمام ساوو الصغير، لم أعرف أبدًا اسمه الحقيقي؛ لأنهم كانوا يلقّبونه بالـ(مجدور)، بسبب أن وجهه كان مشوّهًا بإصابة قديمة بالجدري. تكفي جدًّا هذه المعلومات حتى يدرك القارئ حجم قسوة الحياة التي يعيشونها، فهم يلقّبون قائدهم بالمجدور.

السبب في شغل هذا المجدور للمنصب، هو أن الرئيس الحقيقي ساوو الكبير كان في السجن؛ لأنه كان مدانًا في قضيّة تهريب مشغولات ذهبية عبر الحدود، وفي ذلك الوقت كان الانتقال بمشغولات ذهبية بين الدول الأوروبية ممنوعًا، ويجب على المسافرين عبر الحدود الإعلان عن الكمّيات التي يحملونها معهم من المشغولات الذهبية، أمّا اكتشافها معهم دون إعلانهم عنها، فكان يؤدّي إلى مصادرتها منهم، والحكم عليهم بقضاء فترة في السجن، بين سنة وثلاث سنوات.

في تلك الفترة، أثناء تنقّلي مع (قافلة المسرح المتجوّل)، في منطقة تقع في الجنوب الغربي من باريس، ولا تبعد عنها إلا بخمسين كيلو مترًا، خرج ساوو الكبير من السجن، ولحق بنا في مدينة أنجيه فيل *Anger ville*. ورغم أن أخته وبناتها بل وكل أفراد القافلة كانوا يعاملونه كملك متوّج، أو على الأقل كأمير في البلاط الملكي، إلا أنه لم يُرِد أن يرافق القافلة إلا لمسافة قصيرة، حول المدينة المذكورة أعلاه، ثم اختفى ذات يوم فجأة دون أن يقول أي شيء لأي أحد!

قيل لنا إنهم رأوه يتجه إلى محطّة قطارات المدينة، وغالبًا قد عاد بالقطار إلى باريس، دون كلمة تفسير واحدة، بل ودون كلمة وداع واحدة. قال لي لاحقًا عندما قابلته بعد سنوات: إن الحياة في عربات تجرّها الخيول هي مشقّة هائلة وملل فظيع، وإنه لم يعد يحتمل تلك الطرق الريفية الوعرة غير الممهّدة، ويفضّل عليها مائة مرّة طرق باريس، ذات الإسفلت الناعم، وحياة الليل في باريس.

شاهدت في يوم اختفائه كم بكت عليه أخته وبناتها. والنساء الغجريات يتفوّقن على غيرهنّ من نساء الأرض في النحيب بصوت مرتفع، وفي لطم الخدود وشق الملابس، كأن ساوو هذا قد مات، وليس فقط مجرّد أنه عاد إلى باريس، التي ستعود إليها القافلة كلها حتمًا في يومٍ قريب، بعد أسبوعين أو شهر. كل نساء صقلّية ينتحبن بأصوات مرتفعة، وليس فقط نساء الغجر.

في الحقيقة إن رأيي عن نساء الغجر لا يختلف كثيرًا عن رأي ساوو فيهنّ، فهو يقول إنهنّ لا يمكن احتمال تصرّفاتهنّ لفترة طويلة؛ إذ لا

t.me/qurssan

يستطيع الرجل أن يعيش مع نفس المرأة الغجرية لأكثر من بضعة أشهر، ثم ستقوم هي حتمًا بتحويل حياته إلى قطعة من الجحيم.

وقد حدث -بعد مغادرتنا أنجيه فيل بيومين- أن شعرت أنا نفسي بالوصول إلى الحدّ الأقصى لقوّة احتمالي، لكنّي لم أنتظر الوصول إلى مدينة بها محطّة لقطارات السكك الحديدية، بل قفزت فجأةً من العربة، أثناء سيرها في طريق ريفي بين الحقول، تاركًا لجام الخيل في يد الصبيّ الجالس إلى جواري، واخترقت الحقل المجاور للطريق، على أمل أن يقودني إلى طريق أسفلتي، أستطيع أن أعرف بواسطة اللافتات الموجودة عليه، الاتجاه الذي ينبغي أن أسلكه.

(٤)

كان يومًا صيفيًّا قائظ الحرارة، عندما هبطت من العربة في منتصف النهار، في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، في الوقت الذي تسقط فيه الشمس أفقيًّا فوق قمّة رأسك. اخترقت حقل قمح مشيًا على الأقدام، وكانت نسمات صيفية خفيفة تتلاعب بسنابل القمح، بحيث بدا الحقل في شكل بحر صغير، به تموّجات تمتد حتى خطّ الأفق. لم أجد حولي على مرمى البصر ولا شجرة واحدة، يمكنني أن أحتمي في ظلّها من قسوة الشمس، ولو حتى تنكسر حدّتها بعد ساعة أو ساعتين.

لم أجد حولي على مرمى البصر برج كنيسة ولو كان صغيرًا متواضعًا، فهو العلامة الوحيدة التي يمكن أن يستدلّ بها شخص مثلي على وجود مجتمع بشري قريب، فحول أبراج الكنائس تنمو عادة

مجتمعات صغيرة، لا يقلّ عدد سكّانها غالبًا عن بضع مئات. ليس حولي إلا رتابة شكل السنابل المتماوجة.

ثم حدث فجأة أن زلّت قدمي في شقّ أرضي، لم أتمكن من رؤيته بسبب كثافة سنابل القمح، ثم لمحتُ خيطًا رفيعًا من الماء ينساب داخل هذا الشقّ، ثم تحوّل محتوى الشقّ من ماء صافٍ إلى ماء مضاف إليه مادة طينية كثيفة، ثم اتسع المجرى المائي فجأة، وأنا لا أزال سائرًا فيه، وظهرت بوضوح نباتات تطفو فوق سطح الماء؛ هي زنابق الماء. هكذا أثناء استئناف المشي، اضطررت إلى أن أسحق بقدمي بعض الأعشاب الإسفنجية، محاولًا العثور على أرض صلبة أقف عليها.

إلا أنني في الحقيقة أينما وضعت قدمي، وجدت أنها كانت تغوص في الوحل، إذ يبدو كما لو أنه لم تكن هناك أيّ أرض صلبة في هذه البقعة. إنني حتى لم أتمكن من أن أعود القهقرى إلى الأرض الصلبة التي كنت أقف عليها قبل دقائق قليلة. ثم لمحت على البعد شيئًا غريبًا جدًّا، وهو بيضة ضخمة في حجم رأس إنسان، غالبًا ستكون بيضة طائر النعام. ما الذي جاء بها إلى هنا؟ وأين هو الطائر الأنثى الذي وضعها؟

ثم شاهدت شيئًا غريبًا آخر، وهو نبات فطري عملاق، قرأتُ عنه في الكتب وشاهدت صوره، لكن لم تسبق لي رؤيته على الطبيعة في حياتي كلها، يسمّيه العلماء في تصنيفاتهم العلمية، هذا الاسم العلمي المضحك (العضو الذكري المنتصب ذو الرائحة التي تدعو إلى الغثيان)، وهو التفصيل الدقيق لما تعنيه هاتان الكلمتان الفرنسيّتان *Phallus nauseaux*، وهو فطر ينمو وحده في الطبيعة، لا يزرعه أحد،

ولا يرعاه أحد، تمّ تصنيفه علميًّا لأول مرة وإعطاؤه هذا الاسم المضحك في مؤلّفات علم النبات في القرن السابع عشر.

تابعت السير بحذاء المجرى المائي، حتى بدت لي على البعد أشباح مساكن، توقّعت أن تكون مهجورةً لسبب أو لآخر، إلّا أن ظنّي قد خاب عندما سمعت صوت أطفال يضحكون. في الواقع كنت أقترب من أحد الكفور أو إحدى العزب الصغيرة، التي لن يزيد عدد ساكنيها في الغالب عن مائة أو مائة وخمسين شخصًا، يسكنون في ما لن يزيد عن عشرين أو ثلاثين مسكنًا، وغالبًا سيكون هذا الكفر دون أيّ خدمات مدنية من أي نوع، وقد لا تكون به أسلاك التيّار الكهربائي، أو مواسير المياه الجارية.

وجدت في هذا الكفر أو العزبة المكانَ المعزولَ تمامًا عن العالم، الذي كنت أبحث عنه، ووقعت على الفور في هواه. كان إحساسي هذا بالرغبة في العزلة، بسبب الإرهاق الشديد منذ بداية الحرب، ورغبتي في الاسترخاء التام، ونسيان كل شيء. ثم حدث ما لم أكن أتوقّعه، إذ قمت في نفس يوم الوصول باستئجار مخزن مهجور، ليس به إلا أربع قطع أثاث: ١- فراش للنوم. ٢- مائدة صغيرة وكرسي. ٣- حوض للغسيل بالماء الجاري. ٤- موقد لطبخ الطعام بالجاز السائل. استأجرته لمدة عام كامل، اثني عشر شهرًا، ودفعت مقدّمًا إيجارًا إجماليًّا قدره ٢٦ فرنكًا، أي ما يساوي سبعة سنتيمات (ملّيمات) في اليوم.

(٥)

في ذلك المخزن المهجور، بدأتُ في كتابة رواية (الكاهن)، وهي عن تلك الرحلة الروحية، التي تقطعها النفس الإنسانية بين نقائضها، إذ تنتقل النفس داخل ذاتها بين الشيء ونقيضه، وأتذكّر أنني في ليلة عيد ميلادي التاسع والعشرين، أيّ في يوم الأول من سبتمبر سنة ١٩١٦، كتبتُ الفصل الذي أعتبره من أجمل ما كتبتُ في حياتي، وهو الفصل من الرواية المذكورة أعلاه، الذي يحمل العنوان الغريب التالي [نهاية العالم التي قام بتصويرها سينمائيًّا الملاكُ الحارس الذي يعلو كنيسة العذراء سيّدة الرسل].

كنت أرسل هذه النصوص -التي تمّ جمعها وطباعتها لاحقًا، تحت اسم رواية [الكاهن]- إلى المسيو دوسيه *Doucet* في باريس، بالبريد العادي مرّة كل شهر، فيردّ عليّ بعد أيام قليلة، بحوالة بريديّة بمبلغ ١٠٠ فرنك. كنت أرسل إليه هذه الفصول في شكل مخطوطة مكتوبة بيدي اليسرى، التي كانت لا تزال تحتاج إلى تدريب طويل؛ لأني كنت في ذلك الوقت أستعملها للمرّة الأولى في الكتابة، بعد أن فقدتُ اليد اليمنى، بل الذراع الأيمن كله، بسبب انفجار قنبلة أثناء العمليات القتالية.

ومع ذلك فقد تمكّنتُ في فترة وجيزة، من أن تصبح هذه اليد اليسرى قادرةً على الكتابة، تقريبًا بنفس الخطّ الذي كان ليدي اليمنى، التي لا أعرف أين هي الآن، فبعد الانفجار أردت أن أبحث عنها لأدفنها، لكننا لم نعثر أبدًا عليها.

t.me/qurssan

الآن ونحن في سنة ١٩٤٧، أي بعد حوالي اثنين وثلاثين عامًا على الوقائع، وبعد أن أصبحت فرنسا تنظر إليَّ ككاتب قومي معترف به، هذه النسخة الخطيّة موجودة حاليًا ضمن مجموعة الوثائق الأدبية القومية للدولة الفرنسية، المعروضة في المجموعة الدائمة، في مكتبة سانت جينيفياف *Sainte Genevieve* بباريس. يا له من فخر شديد أشعر به!

خلال موسم الحصاد الصيفي ذلك العام ١٩١٦، عملت -إلى جوار الكتابة- سائقًا لدرّاجة ذات ثلاث عجلات، تدفع أمامها صندوقًا كبيرًا، يمكن تحميله بمنتجات الحقول لبيعها في الأسواق. كنت أحرّك هذه الدرّاجة فقط بقوّة عضلات الساقين والفخذين، مما كان يمثّل إرهاقًا عضليًّا شديدًا حتى للشاب الذي كنته، فكنت أعود في المساء إلى المخزن، وأنا مستنزف القوى تمامًا؛ لأني كنت أتنقّل بها طول اليوم بين المزارع والحقول والكفور، في نطاق خمسة كيلو مترات، هي المسافة بين مدينة أنجيه فيل *Anger ville*، ومدينة ميريفيل *Mere ville*، وكانت كل تلك العزب والكفور، لا توجد بها في ذلك الوقت إلا النساء؛ لأن كلّ الرجال بين سن العشرين والخمسين كانوا على جبهات القتال.

في موسم الخريف التالي، انشغلت إلى جوار الكتابة بصيد الأسماك من القنوات القريبة. كنت أتعامل مع الأسماك بثلاثة أشكال مختلفة وفقًا لكمّية الأسماك المُصادة، فإمّا أن أعود بها كلها إلى المخزن لأشويها وآكلها وحدي، أو أن أدعو أحد الجيران إلى أكلها معي على أن يحضر معه طبقًا من البطاطس أو يمكننا كذلك الاستيلاء على بعض الخضروات المتاحة للجميع في الحقول، أمّا إذا كانت الكمّيّة كبيرة،

t.me/qurssan

ففي هذه الحالة يمكنني الذهاب بها إلى أحد الأسواق القريبة لبيعها للزبائن في أيٍّ من المدينتين.

(٦)

بسبب الناشر استطاع بعض أصدقائي الباريسيين العثور على عنواني، وأرسلوا إليّ خطابات بريدية، بها الكثير من مشاعر القلق على أحوالي. يقولون إنهم لا يعرفون السبب الذي من أجله أعتزل العالم في هذا الجحر الريفي الذي لا يليق برجل فكر شاب مثلي، ويعتقدون بل قل يجزمون أن وراء هذه العزلة الريفية هناك امرأة. ثم بدأوا في مقاهي مونبارناس بقلب باريس ينسجون حولي كل أنواع الإشاعات، التي كان بعضها مسيئًا لشخصي الضعيف.

وقد أطلقوا عليّ لقب (قلندري)، والقلندرية هم طائفة معروفة من الدراويش الصوفية، الذين كانوا يعيشون بين تركيا وفارس في القرن الثالث عشر الميلادي. في الحقيقة كنت سعيدًا بهذه الصفة. كان الكونت جوبينو *Gobineau*، وهو من طبقة النبلاء الفرنسيين، واحتفظ بلقبه الشرفي طوال حياته، قد كتب عنهم، ونشر عمله هذا في أهم دار نشر باريسية، للمطبوعات الأدبية الكلاسيكية، أقصد دار نشر البليه ياد *Les Pleiades*.

ورغم أنني كنت أعيش على حدّ الكفاف اليومي في المأكل والمشرب والملبس، إلا أنني كنت سعيدًا بهذه الحياة المتقشّفة البسيطة. في الحقيقة؛ كل ساعات السعادة والتعاسة في حياتي أثَّرتْ

t.me/qurssan

نجربتي الإنسانية، برصيد بشري زاخر بالعِبَر، وكانت مادة خصبة لكل كتاباتي اللاحقة، شعرًا كانت أو نثرًا.

لم يزرني خلال هذا العام الغريب من حياتي إلا شخص واحد، وكانت زيارته لي بالصدفة البحتة دون أي ترتيب. وتفصيل ذلك أنني كنت أعود مشيًا على الأقدام خمسة كيلو مترات بين مدينة ميريفيل والكَفْر الذي كنت أسكن فيه، ذات أمسية شتوية دافئة، قبيل الغروب مباشرة، عندما جاء على نفس الطريق في مواجهتي، راكبًا على درّاجة هوائية، شاب يرتدي أفخر الثياب الرياضية، وفقًا للطراز السائد وقتها، بالسراويل المنتفخة التي توضع أطرافها السفلية في الأحذية. لم يكن هذا الشخص إلا شارل سانجريا. أنا لم أستطع تمييزه، لكنه هو الذي تعرّف عليّ، فأوقف درّاجته، وقفز إلى الأرض، بعد أن كان قد ناداني باسمي المجرّد (بلاز).

اصطحبته معي إلى المخزن لنتقاسم وجبة العشاء البسيطة التي أعدّها لنفسي من حساء الخضروات وبعض الخبز، مع زجاجة من النبيذ الجيّد. ثم نمت أنا فوق كومة قشّ، تاركًا له فراشي. استيقظنا قبل شروق الشمس، لنذهب معا لأتفقّد الفخاخ التي أنصبها في المجاري المائية لثعالب الماء، التي اكتشفت أنها تكون ذات مذاق جيد عند شيّها. تحمّس سانجريا للبقاء معي، وقرّر أن يستأجر هو الآخر مخزنًا مثل مخزني، ويتفرّغ مثلي للقراءة والكتابة.

إلا أن هذا الحماس الأهوج لم يدم إلا ثلاثة أيام، وفي صباح اليوم الرابع لمحته منطلقًا بدرّاجته الهوائية على الطريق إلى باريس، دون حتى

t.me/qurssan

كلمة وداع واحدة. للأسف أقول إن هذا النوع من التصرّفات هو النوع الغالب على أصدقائي الباريسيين، وما أقصده هو قلّة الصبر والجَلَد والحماس، والميل الدائم إلى سرعة خيانة الأصدقاء.

* * *

t.me/qurssan

الفصل الرابع

مؤلّف مازوخي

(١)

كان جوستاف لوروج *Le Rouge Gustave* قد نشأ في إقليم بريتانيا، الواقع في شمال غرب فرنسا، وبدأ تاريخه الصحفي هناك في إحدى جرائدها المحلية. لكنه منذ تلك البدايات الأولى، وهو يهتم بتتبّع أصول الجماعات العرقية المختلفة، والقبائل المتنقّلة خلف المراعي، التي تأتي من كل الدول الأوروبية المجاورة جغرافيًّا لفرنسا وتستقر فيها. أنا أكتب هذا الكلام سنة ١٩٤٧، وقد مات لوروج سنة ١٩٣٨، عن عمر يناهز السبعين عامًا، بعد أن كانت صداقتنا قد دامت حوالي ثلاثين عامًا.

كانت زوجته الأولى من بين المؤشّرات الدالة على تميّزه، فهي من أصول بوهيمية تابعة في ذلك الوقت لمملكة الهابسبورج في النمسا والمجر، التي تفكّكت إلى دول كثيرة بعد الحرب العالمية الأولى. وقد تمثّلت في تلك الزوجة كل مميّزات الشخصية البوهيمية *bohemian*،

t.me/qurssan

من الرغبة في الاستقلالية والحرية التامة، وحبّ الانطلاق في الطبيعة، والحرص على الاستمتاع بالفنون والآداب، وعدم التقيّد بالعادات والتقاليد، وعدم الالتزام بالأعراف السائدة. إذَنْ فإن شخصية مثل هذه لن ترتبط أبدًا بالزواج، من شخص أقل منها استقلاليةً، ورغبة في الانطلاق والتحرّر من القيود.

(٢)

بلغت مؤلّفات لوروج حجمًا هائلًا، إذ يمكننا أن نعثر في أرشيف المكتبات الباريسية، على ما لا يقل عن ٣٠٠ عنوانٍ يحمل اسمه كمؤلّف. أمّا أكثر هذه المؤلّفات شهرةً، فهي روايته البوليسية العلمية (الدكتور كورنيليوس الغامض *le mysterieux docteur Cornelius*)، التي تقع في ١٥٠ صفحة، وصدرت منها خمسون طبعة على الأقل باللغة الفرنسية في عشرين عامًا، وتُرجمت إلى ٣٢ لغة.

مع كل هذا النجاح الجماهيري والنقدي، كان من المفروض أن تجعلهِ هذه الرواية يقف في صفّ واحد مع أمثاله من المؤلّفين المشهورين من عظماء القرن التاسع عشر، لهذا النوع من الروايات في اللغات الأخرى، جول فيرن الفرنسي، وإيتش جي ويلز الإنجليزي، وإدجار آلان بو الأمريكي، لكن الواقع كان مختلفًا.

ها هي ذي الملامح العامة لهذه الرواية، وفيها الأسباب التي من أجلها قلت عنها ما قلته:

١ - هي تحقيق بوليسي عن سلسلة جرائم، لكنها تتعرّض في نفس

t.me/qurssan

الوقت للناحية الخاصة بمبادئ الطبّ الشرعي، كما لو أن كاتبها كان شرطيَّ تحقيقات، وفي نفس الوقت طبيبًا شرعيًا.

٢- تدور أحداثها في زمننا الحالي، لكن بها ما يدلّ على قدرة مؤلّفها على استشراف المستقبل، فيما يتعلّق بالاختراعات العلمية، فقد حكى فيها عن وسائل علمية لم تكن متاحة وقت نشر الرواية لأول مرّة، ولم تُكْتَشف وتخرج إلى النور إلا بعد سنوات.

٣- فيها كذلك قدر كبير من الخروج على المألوف، ومن قدرة البطل على الدخول في مغامرات غير محسوبة العواقب.

٤- هناك كذلك ميل واضح إلى ذكر بعض الظواهر الما وراء طبيعية *supernatural*، أو الظواهر التي لا يمكن تفسيرها بقوانين الطبيعة *metaphysical*، التي كثيرًا ما تثير فضول القارئ.

٥- رغم كل ما قيل أعلاه، إلا أن المؤلّف لم يَتُه في كل هذه التفاصيل، بل نجح تمامًا في خلق حبكة روائية محكمة، تثير اهتمام القارئ من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة.

(٣)

كان لوروج عالمًا كبيرًا أكثر منه أديبًا مؤلّفًا للروايات، إذ إنه كان قد قضى أغلب سنوات شبابه في التنقيب في المراجع العلمية القديمة، في أكبر المكتبات العامة في باريس، لمحاولة فهم الأصول العلمية للمكتشفات والاختراعات الحديثة. كانت هذه الدراسات العلمية، التي وضعها ضمن ما كان يُطلق عليه اسم [برنامجه للتثقيف الذاتي]، هي

t.me/qurssan

صاحبة الفضل الأول في العقلية العلمية المنطقية الجدلية التي تمكن من تطويرها في كتاباته، بحيث كان قادرًا -عند طرح أي موضوع للمناقشة- على أن يدخل في جدل علمي حوله، بأسلوب منطقي بسيط، لا يتوفّر إلا للعلماء الحقيقيين واسعي المعرفة، الذين لم أقابل منهم طوال حياتي إلّا مَن يُعدّون على أصابع اليد الواحدة. لذلك كان صاحب مصنّفات موضوعة في علوم مختلفة.

أما ميزته كمحاضر أو كمناقش، فهي أنه لم يكن يفقد أبدًا الخيط الذي يقوده فيما يقوله، ويتعاطف تمامًا مع جمهوره، مهما قاطعه أفراد هذا الجمهور بأسئلتهم، التي كان يفهم منها أنهم لا يستطيعون متابعة ما يقول؛ لأنهم لا يعرفون مقدار ما يعرفه هو، فكان لا يغضب من المقاطعة، بل يتوقّف لحظة، ليدخل بعدها مع جمهوره، في شرح مسألة علمية أو فلسفية، يمكنهم بعد أن يفهموها أن يتابعوه بسهولة أكبر في موضوع محاضرته.

كانت هذه المحاضرات الجماهيرية، تُلْقَى في مسارح عامة في قلب العاصمة باريس، وأحيانًا في مسارح الأقاليم، فيحجز الناس أماكنهم فيها مقدّمًا عندما يعرفون مواعيدها، ويقفون في طوابير طويلة على مداخل المسارح، كأنهم مقبلون على عرض موسيقي راقص؛ لأنهم متأكّدون من أن المتعة الذهنية مضمونة.

كانت هذه المحاضرات في موضوعات شديدة التنوّع، مما كان دليلًا أكيدًا على غزارة معارفه الموسوعية، وكان يطبع هذه المحاضرات بعد ذلك في كتيّبات صغيرة القطع قليلة عدد الصفحات، تجد رواجًا

t.me/qurssan

شعبيًّا كبيرًا، عند بيعها بسنتيمات زهيدة، على مداخل محطّات مترو الأنفاق؛ لأنه يمكن وضعها في الجيب. انظروا معي إلى هذه المجموعة من العناوين: ١- المفتاح في تفسير الأحلام. ٢- كيف يمكنك أن تصبح ساحرًا؟ ٣- لغة الأزهار. ٤- أسرار الألوان. ٥- كيف تفهم الشخصية من خطوط راحة اليد؟ ٦- أسرار المطبخ اللذيذ. ٧- الكائنات المجهرية الدقيقة. ٨- الأجرام السماوية البعيدة.

كما ترون فهو كان يتعرّض أحيانًا لمناقشة موضوعات العلوم الحديثة، إلا أن هذا لم يجعله يستنكف من مناقشة الموضوعات التي تجد شعبية أكبر لدى الجمهور غير المثقّف، إذ كان يقبل الحديث عن أو الكتابة في أي موضوع، طالما استطاع أن يطبّق عليه أسلوبه العلمي.

كان قادرًا على شرح حقائق العلوم الحديثة بأقل قدر ممكن من الكلمات الأكثر بساطةً ووضوحًا، التي يسهل فهمها لمَن كان على قدر قليل من التعليم، فكان كأنه يضع على عيني قارئه أو المستمع إلى محاضراته عدسة ميكروسكوب يستكشف بها الكائنات المجهرية الدقيقة، أو عدسة تليسكوب يستكشف بها الأجرام السماوية التي تبعد عنّا بسنوات ضوئية. كان من أبلغ ما استمعت إليه منه، طريقة شرحه المبسّط لمعنى السنة الضوئية.

(٤)

بالإضافة إلى رواية (الدكتور كورنيليوس)، كان ثاني أشهر مؤلّفاته وأكثرها مبيعًا هو كتاب (مئة وصفة لعلاج مشاكل الحياة الحديثة)، وهو

t.me/qurssan

دليل يدوي *manuel* كان موجّهًا بالأخصّ إلى سكّان المدن الكبرى، الذين مع مقدم العصر الحديث كانوا يواجهون بعض المشاكل غير التقليدية، التي كانت على نوعين مختلفين:

١ - النوع الأوّل هي المشاكل التكنولوجية في المساكن الحديثة التي يسكنونها، التي أصبحت تتكون من عشرات الطوابق، وتستعمل المصاعد الكهربائية والتكييف المركزي، خاصة مساكن ضواحي باريس، وكذلك المشاكل الخاصة باستعمال الآلات الكهربائية من وسائط الرفاهية التي ابتكرها العصر الحديث، مثل الثلاجة والمكواة الكهربائيين.

٢ - النوع الثاني يمثّل مشكلة أخرى، بدأت في الظهور في ضواحي المدن الفرنسية الكبرى منذ أوائل القرن العشرين، وهي المشكلة الاجتماعية الخاصة بالقدرة على الاختلاط والانسجام والتأقلم اللازمين للحياة في نفس الأحياء، بل في نفس العمارات السكنية، مع عدد كبير من الجنسيّات والأقلّيات العرقية والدينية المختلفة.

فنتيجة لقيام مستعمرات فرنسية في دول جنوب شرق آسيا وفي دول شمال ووسط أفريقيا، أصبح هناك عدد كبير من مواطني هذه الدول يحملون الجنسية الفرنسية، ويحق لهم الحياة والاستقرار في المدن الفرنسية، ومنهم المسلمون واليهود والعرب والسود، وحتى أفراد الجنس الأصفر من فيتنام ولاوس وكمبوديا. كان لوروج يشرح في هذا الكتاب مبادئ العلوم الاجتماعية، مع إضافات تتعلّق بخصائص كل هذه الأجناس.

t.me/qurssan

ملحوظة: تحدّثت عن مشكلة السكن في ضواحي باريس في عدّة مواضع مختلفة من هذا الكتاب، لما كان لها من أهمية في تلك المرحلة من حياتي.

(٥)

عندما تعرّفت على لوروج للمرّة الأولى، كنت أقرّظ كتاباته، فكان ينسحب من أمامي لا يريد أن يسمعني، ويقول إنه لم يتعمّد كتابة كل هذه الكتب، لكنها جاءته هكذا وحدها. ثم حدث ذات يوم أن قلت له: إنني عندما أصبح كاتبًا كبيرًا ومعروفًا، سأقوم بجمع كل كتيّباته هذه القليلة الصفحات في مجلّد واحد ضخم سأسمّيه [موسوعة مبادئ الحياة الحديثة]، حتى يصبح في مقدور الأجيال القادمة أن تطّلع عليها، بدلًا من أن تضيع هذه الكتيّبات، ذات الأغلفة الورقية الضعيفة سهلة التمزّق، فرفض رفضًا باتًّا قاطعًا قائلًا: إنها لا تستحق.

كان خجولًا جدًّا، ولا يبحث أبدًا عن أي مجد ذاتي. في الحقيقة كان هذا الخجل المَرَضي هو عيبه القاتل، الذي سمّم حياته، وأضاع عليه الفرص العديدة، في المزيد من النشر، والمزيد من الشهرة، والمزيد من المال. كان يفتقد الحسّ العملي الذي يسمح للبشر العاديين بحسن استغلال مواهبهم، والحصول منها على أكبر عائد ممكن، وهو شيء طبيعي جدًّا في البشر، ولا يدعو على الإطلاق إلى الخجل. بل أستطيع حتى أن أقول الآن -بعد أن أصبح لسلوكه هذا التعريف العلمي المحدّد-: إنه كان يستمرئ إلى حد ما تعذيب نفسه، أي أنه كان مازوخيًّا.

t.me/qurssan

(٦)

سأضرب لكم بعض الأمثلة على ما أقول. ذات يوم علمت منه أن (دكتور كورنيليوس) قد بيع منها مليون نسخة في كندا وحدها، رغم أنها سُكانيًّا لا تمثّل إلا أقل من ربع تعداد فرنسا، فقلت له إنه من المؤكّد أن مبيعات الكتاب في فرنسا هي أربعة أضعاف مبيعاته في كندا، وأنه بهذه المبيعات يمكنه أن يصبح أكثر أدباء فرنسا ثراءً، فقال إنه لا يعرف كم بلغت أرقام مبيعات الكتاب، وبالتالي هو لا يعرف كم بلغت المكاسب من ورائه، فقلت: كيف؟ قال: لقد بعت كل حقوق إعادة طبع الكتاب، وترجمته إلى اللغات الأجنبية، وبيعه في الدول الأجنبية، إلى دار النشر الفرنسية التي أصدرت لي الطبعة الأولى، بمبلغ إجمالي قدره ٤٠٠ فرنكٍ فرنسيًّا، هذا هو كل ما كسبته من هذه الرواية.

كدت أن أقع على الأرض، بسبب فقد التوازن من إحساسي بالصدمة. قلت: إن الطبعة الكندية وحدها كان يمكنك أن تربح منها مليون فرنك، إن الناشر الذي وقّعت معه العقد بـ٤٠٠ فرنك هو نصّاب رسمي فقد سرقك في ملايين الفرنكات. فلم يردّ.

هذا هو بالضبط نوع التصرّفات التي تنتج عن خجل مرضي شديد، وتواضع وإنكار ذات يصلان إلى حدّ احتقار الذات. ثم قال كأنه يدافع عن نفسه: أنا حرّ في تصرّفاتي، وليس لأحد أن يملي عليّ ما ينبغي أن أفعله، وقلمي هو ملكي أنا وحدي، أستطيع أن أكتب به ما أشاء، دون أن

t.me/qurssan

أكون متأثرًا بالمبيعات الكبيرة لكتاب معيّن، تجعلني مضطرًا إلى تكرار نفسي بغرض الكسب المادي. هل تفهمني؟

ثم عندما لم أردّ عليه؛ لأنني لم أقتنع بمنطقه، قال: بفضل سياستي هذه لا يستطيع أي ناشر، أن يتحكّم في إنتاجي الحالي أو المستقبلي.

إلا أنني لاحظت أن العقد المشار إليه أعلاه، لحسن حظّه، لم يتضمّن أيّ بنود أو ملاحظات، عن إمكانية تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي، أو إلى حلقات مسلسلة سينمائية، كما كانت تفعل أغلب شركات الإنتاج السينمائي في ذلك الوقت، وهي حيلة تجذب بها نفس الجمهور إلى حضور الحفلات المتتالية، لمشاهدة الأجزاء المتتالية من المسلسل.

كنا في سنة ١٩٢٠، وكنت قد بدأت قبل فترة وجيزة في العمل في الحقل السينمائي، أولًا كمعدّ أفلام تسجيلية، وثانيًا ككاتب سيناريو للأفلام الروائية، وأحيانًا كمخرج للأفلام التسجيلية، أو كمساعد مخرج للأفلام الروائية. كنت في تلك الفترة أستعدّ للسفر إلى استوديوهات التصوير السينمائي في روما.

عدت إلى لوروج في اليوم التالي، ومعي صورة من عقد لتحويل روايته إلى فيلم. لكنه أرهقني جدًّا قبل أن يقتنع بالتوقيع. كان متردّدًا شكّاكًا عنيدًا. لكن على ما يبدو كانت رغبته في مشاهدة روايته تتحوّل إلى فيلم سينمائي أقوى من رغبته الأصلية في الرفض. عندما وقّع أخيرًا عقد الفيلم. قلت له: كيف تصنع إذَنْ مع التعاقدات التي يأتي إليك بها الأغراب، إذا كنتَ مع تعاقدات أصدقائك القدامى، تتشكك في نواياهم

t.me/qurssan

إلى هذا الحدّ؟ ثم عندما لم يرد، قلت: اسمح لي أن أقول لك بمنتهى الأمانة، إنه رغم تشكّك في الآخرين هذا الواضح في سلوكك معي الآن، وحرصك هذا بشكل مَرَضي، إلا أن كل عقودك السابقة كانت عمليات نصب واضحة، تعرّضت أنت لها دون أن تدري.

في هذه المرحلة من الحوار بيننا، اعتقدت أنني أستطيع أن أطلب منه أنه عندما يذهب في المرّة القادمة إلى دار نشر لتوقيع عقد بخصوص طبع أحد كتبه، أن يأخذني معه كمستشار مالي، لأحصل له على أفضل شروط تعاقد ممكنة، وأعيد إليه بعض حقوقه الضائعة. عندما قلت له هذا، غضب منّي جدًّا قائلًا إنه ليس طفلًا غريرًا، وإن هناك فلسفة ما وأسلوب حياة ما خلف موقفه من المال. حاولت أن أخيفه من الشيخوخة قائلًا له: سيأتي عليك اليوم الذي ستحتاج فيه إلى هذا المال عندما يتقدّم بك السنّ، ولن تعود قادرًا على الكتابة، وتنضب قريحتك الفنّية. فلم يهتمّ.

(٧)

تساءلت طويلًا ما السبب في هذا الانحراف في التفكير الذي يعاني منه؟ هذا الرجل العملاق فكريًّا، الذي حوّله خجله المرضي وتواضعه السقيم إلى طفل غرير يسهل النصب عليه. كنت أرى في تصرّفاته تلك نوعًا من الرغبة في تحطيم الذات، أو علّة نفسية عميقة تؤدّي إلى الرغبة في إذلال الشخص لنفسه.

t.me/qurssan

فيما بعد سمحت لي الظروف بأن تقوم علاقة صداقة حقيقية بيننا، مما جعله يدعوني مرّات عديدة لزيارته في منزله، مما سمح لي بالتأكّد من مازوخية هذا الرجل، بل يمكنني أن أقول إنني اكتشفت وجود علاقة سادومازوخية بينه وبين زوجته الثانية، التي كانت تختلف تمامًا عن زوجته الأولى، وهذا النوع من العلاقات يقوم فيه الطرفان بممارسات شاذة، تؤدّي إلى تعذيب أحدهما للآخر، وإلى استمتاع كليهما بهذا التعذيب.

أنا لا أعتبر هذا الكلام نوعًا من إفشاء الأسرار، فهو قد مات منذ سنوات، وليس لديه أبناء، ثم إن حياة رجال الفكر هي جزء من تراثهم الفكري، الذي هو تقريبًا ملكية عامة لكل مريديهم، خاصة لو احتوت هذه الحياة الخاصة على مثل هذه الأسرار التي سأرويها لكم، وأدّت إلى إصابتي بقدر هائل من الدهشة. كان يكفي أن تذهب إلى البيت الذي سكناه سويًّا هو وزوجته الثانية، لتدرك على الفور وجود شيء ما شاذ في العلّاقة بينهما، وهو الشيء الذي أصابني بحالة من الإعياء، رغم حفاوة الاستقبال.

لكن قبل وصف هذا المنزل وهذه الزيارة وهذه الزوجة الثانية، وهي تفاصيل ستساعد حتما في فهم الحالة السيكولوجية للشخصيتين، أريد أن أستأنف الحكي أولًا عن جوستاف لورروج.

في بداية تعرّفي عليه سنة ١٩٠٧، كنت أنا في العشرين، وكان هو قد تعدّى الأربعين، قلت في نفسي إن هذا الشخص سيكون له التأثير الأكبر على حياتي، خاصة أنني كنت لا أزال في مقتبل شبابي، إلا أن ما حدث في الواقع هو أن لورروج كان السبب في نفوري بشكل عام من

t.me/qurssan

إقامة صداقات مع رجال الفكر والأدب، وفي نفوري بشكل خاص لو كان فارق السنّ بيننا كبيرًا.

كنت قد بدأت بالفعل في استعمال الوصف، الذي تكرّر كثيرًا في كتاباتي عن رجال الفكر والأدب من كبار السنّ، إذ كنت أصفهم بالقول إنهم: (حيوانات عجوزة محكوم عليها بالموت بداء قاتل).

كنت أضيف الأوصاف التقليدية الأخرى، من أنهم يتميّزون بخُيَلاء وزهو فارغين لا معنى لهما، يبدون في الأوضاع التي يتّخذونها بعظمة زائفة، حين يتمّ تصويرهم في لقطات فوتوغرافية صحفية، وأنهم يتميّزون بخسّة وصغار هائلين، يبدون في إصرارهم على استعمال نفس ألاعيبهم اللفظية، في كتاباتهم وفي اللقاءات الصحفية معهم، وأنهم يتميّزون بظاهرة التنافس غير الشريف بينهم.

لو أردت اختصار هذه الفقرة كلها في كلمتين اثنتين لا أكثر، لقلت إنهم مصابون (بمرض جنون العظمة)، أو بمصطلحات الطب النفسي الحديث التي تطلق على هذا المرض اسم (البارانويا).

(٨)

أمّا فيما يتعلّق بالصفات الجسمانية لجوستاف لوروج، فهو يمكن اعتباره أحد أوضح الأمثلة على ما سبق أن قاله أديب فرنسا الكبير أونوريه دو بلزاك *Balzac* في منتصف القرن التاسع عشر، عن الربط بين بعض الصفات الجسمانية في أشخاص رواياته، وبين بعض

t.me/qurssan

ملامحهم النفسية. أو بكلمات أخرى عن الصلة بين التكوين الجسماني للشخص، وبين تكوينه النفسي أو سلوكه النفسي تجاه الآخرين. بل حتى إنه يمكن الكلام عن تأثير الصفات الجسمانية للشخص، على طبيعة نشاطه الذهني.

هذا باختصار هو العلم المعروف حاليًا باسم علم الفراسة، أو بالإنجليزية *physiognomy*، والمصطلح هنا به شقّان الأول هو كلمة فيزو *physio* وتعني طبيعة، والثاني هو كلمة جنومي *gnomy*، والجيم لا تنطق، وهي الكلمة التي تعني معرفة أو علمًا، أي أنه علم معرفة طبائع الأشخاص، عن طريق دراسة شكل أجسام هؤلاء الأشخاص.

كانت هذه هي النظرية التي بدأ بلزاك في تطبيقها في أعماله الروائية، بدءًا من حوالي سنة ١٨٥٠، على مئات الشخصيات التي ظهرت في أعماله الروائية، إذ كان دائم الربط بين شكل الشخص وجوهره، أي بين مظهره ومخبره. وقد كان لأحد العلماء من عائلة والدتي فضل إصدار أول كتاب عن مبادئ هذا العلم.

كتب بلزاك ذات مرّة في مذكّراته الشخصية: "ألاحظ أن حجم الرجال العظماء، غالبًا ما يكون أقلّ من متوسّط حجم الرجال في عصرهم وفي بيئتهم، ويمكننا هنا أن نضرب المثل بنابوليون أو بيتهوفن، وقد يكون هذا الحجم الصغير هو أحد دوافعهم إلى إثبات الذات، بالتفوّق على الآخرين في مجالات أخرى غير ضخامة حجم الجسم. هذا بالإضافة إلى وجود عدم تناسق واضح في أجسامهم بين نصفهم العلوي ونصفهم السفلي، إذ تميل الصدور والأكتاف إلى أن

t.me/qurssan

تكون أكبر حجمًا مما يتوقع، بالنسبة إلى صغر حجم الحوض والطرفين السفليين".

الشخصان المشار إليهما أعلاه هما بالمناسبة مولودان بفارق عام واحد بينهما، نابوليون سنة ١٧٦٩ وبيتهوفن سنة ١٧٧٠. فإذا كنا سنصدّق بلزاك، فإن هذا الوصف ينطبق تمامًا على لوروج.

(٩)

إلّا أن لوروج عانى من أمراض كثيرة في سنواته الأخيرة، إذ إنه كان مصابًا في الأساس بداء القلب، كما كنا نسمّي وقتها كل الأمراض التي تؤثّر على كفاءة القلب، وبسبب هذا الضعف في عضلة القلب تراكمت السوائل داخل جسمه، ولم تكن الأدوية المتاحة في سنواته الأخيرة، تساعد الجسم على التخلّص من السوائل المتراكمة داخله، كما تستطيع أن تفعل الآن بعض الأدوية الحديثة، مما أدّى به في نهاية عمره إلى أن أصبح جسمه متنفخًا وارمًا، ليس فقط الجذع، بل كذلك كانت أطرافه الأربعة منتفخة، الذراعان واليدان والساقان والقدمان، وقد كان هذا الانتفاخ هو الذي تسبّب في النهاية في وفاته باختناق في القلب والرئتين.

كان إحساسه بالاختناق يتزايد مع تقدّمه في السن، مما كان سببًا في عذابه الطويل الذي استمر لسنوات، حتى استراح في اليوم الذي مات فيه. وكنت قد زرته في منزله قبل وفاته بأيام قليلة، فإذا بوجهه الذي كان مشهورًا بلونه الأحمر، وقد كسته زرقة باهتة، نتيجة التسمّم بنقص الأوكسجين.

t.me/qurssan

بالإضافة إلى عذابه من الاختناق، كان هناك كذلك عذابه من حرمانه من كل أصناف الطعام والشراب التي يحبّها، وقد كان في بداية صداقتنا عندما كان في أربعينياته، رجلًا مقبلًا على احتساء الخمور بأنواعها، أكولًا كثير التلذّذ بأصناف الطعام عالية الدهون.

بمناسبة الكلام عن الخمور، كان الجمهور الفرنسي يطلق على مشروب الأبسنت *absinthe* في بداية القرن العشرين اسم (الجنّية الخضراء) بسبب لونه الأخضر، وبسبب تأثيره القوي على مَن يشربه، الذي يشبه تأثير أعمال السحر وأفعال الجان، وكان هذا المشروب لهذا السبب الأخير يُستهلك يوميًا بكمّيات كبيرة في الحانات الفرنسية.

إلا أن نسبة الكحول فيه كانت ترتفع أحيانًا إلى ما فوق ٧٠٪، ولذلك فعندما اكتشفت السلطات الفرنسية في الأربعينيات مضاره على صحّة مَن يعتاد على شربه وكثرة عدد حالات الوفاة بسببه، منعت بيعه. لهذا أعتقد أن هذا المشروب الذي اعتاد لوروج على احتساء كميّات كبيرة منه كل يوم تقريبًا طوال عشرات السنوات، هو الذي قتله، بالإضافة طبعًا إلى قتلته الآخرين من السمنة وشهوة الطعام الدسم وانعدام الرياضة البدينة.

(١٠)

أثناء بحثي عن مصادر معلومات بخصوص الحياة الخاصة لصديقي لوروج بعد وفاته، عندما أردت أن أكتب عنه وعن زوجته الثانية، إذ أردت كذلك أن أكون منصفًا وألّا أتجنّى عليه، وجدت أن

t.me/qurssan

الشاعر الفرنسي فيرلين *Verlaine* كان قد كتب عنه ذات مرة، ما يغنيني أنا عن المزيد من الكتابة عن مواهبه الأدبية، فإذا كانت شهادتي في مدح وتقريظ عبقرية لوروج الأدبية مجروحة بسبب الصداقة بيننا، فيكفيني ما قاله شاهد مثل فيرلين، لا مصلحة له في هذه الشهادة. قال: «هو صموت في المجتمعات، لكن عند التفات الجمع إليه، أو عند سؤاله في موضوع، يكون من بين تلك الموضوعات المتنوّعة، التي يعرف عنها الكثير، تجده يشعر بالثقة في نفسه فتلمع عيناه، وتلتهب مشاعره التي يعبّر عنها بفصاحة لسان استثنائية».

فإذا دخل أحدنا معه في حوار، لا يستطيع أن يجاريه في انسياب الأفكار، بل قُل في انسياب الخيالات والرؤى العلوية والتنبّؤات، بل قُل في انسياب الإحالات إلى موضوعات غامضة، لا يعرف أحد منّا عنها أي شيء.

بالإضافة إلى كل ذلك، كنتُ أحيانًا يمكنك أن تجد لديه خفّة روح يمكنها بسهولة أن تضحك جمهوره؛ لأنه كان يعرف كيف يستعمل الكلمات، ليضع جمهوره في حالة من حالات السحر والافتتان).

* * *

t.me/qurssan

الفصل الخامس

علاقة سادومازوخية

(١)

هذا الفصل من الرواية، سيبدو للقارئ قاسيًا جافًّا عنيفًا بالنسبة للمرأة (مارتا)، التي سأحكي لكم فيه عنها، وأنا سأسمح لنفسي بهذا، فقط لأنني أعرف أن الشخصين المعنيّين -وهما (مارتا) وزوجها (لوروج)- قد توفّاهما الله. في الحقيقة فحتّى لو أن (مارتا) كانت لا تزال على قيد الحياة، ما كنت تردّدت لحظة في نشر هذا الفصل عنها، رغم ما كان قد يسبّبه لها هذا الفصل في تلك الحالة، من عذاب، وذلك لعدّة أسباب منها:

١ - أنا أشعر نحوها بقدر من المرارة، وذلك لأني أعرف حجم العذاب الذي سبق لها وأن تسبّبت فيه لآخرين، فلنقل إذَنْ إن ما سأكتبه عنها هنا هو نوع من الانتقام المشروع.

t.me/qurssan

٢- ثم هناك سبب آخر لعدم وجود دواعٍ للحرص، في حالة أنها لم تكن قد ماتت، فأنا لم أعرف عنها أبدًا أنها ذات يوم قد أمسكت في يدها كتابًا واحدًا.

٣- ساعدتني أجواء الحرب العالمية الثانية في الاجتراء على ذكرى (مارتا)، فأنا أكتب هذا الفصل سنة ١٩٤٤، وشعوب العالم كله تشعر كما لو أننا نقترب كثيرًا من احتمالات القضاء التام والنهائي على البشرية، بسبب الشائعات المنتشرة عن القوّة التدميرية الهائلة للقنابل الذرّية.

أنا أجلس الآن في منزل تتساقط حوله قنابل النازي، فتصيب كل المنازل المحيطة بالدمار الشامل، وتضع نهاية لحيوات كل البشر المقيمين بداخلها، ولكل ما كانوا يقومون به من أنواع النشاط البشري الزائل مثل كتابتي الآن لهذا المخطوط، الذي قد يكون -والحالة كذلك- زائلًا هو الآخر.

ورغم كل شيء، فأنا لن أستطيع هنا أن أذكر الحقيقة الكاملة لما تمكنت من الحصول عليه من معلومات؛ لأن بها قذارة أخلاقية وحقارة لا سقف لها، يمكنها أن تتسبّب في شعور القارئ بالضيق والغثيان.

رأيت مارتا لأول مرة مع لوروج، ولم يقل لي أكثر من أنها عشيقته، وأنه يكبرها بعشرين عامًا، لكنه لم يحكِ لي عنها بالتفصيل إلا بعد ذلك بوقت طويل. قال إنها كانت لاعبة في سيرك متنقّل، تمتطي صهوة جواد، يدور مع الموسيقى في دوائر حول حلبة السيرك، وتقوم هي في نفس توقيت دوران الحصان بأداء حركات إكروباتية بهلوانية على

t.me/qurssan

ظهره، تتشقلب في الهواء وتعود بقدميها إلى ظهر الحصان. من المؤكّد أنه قد سبق لكم رؤية هذا المشهد.

مارتا كانت في ذلك الوقت جميلة ورشيقة، لذلك كانت متكبّرة ومتفاخرة بنفسها، ترفع رأسها عاليًا، وتنفخ صدرها، كما لو كانت إمبراطورة إحدى الممالك القديمة. لم يكن يعيبها إلا قصر القامة، لكنها مع مرور الزمن مالت إلى الامتلاء، وبالتالي فقدت رشاقتها وجمالها.

إلا أن ما حدث لها لاحقًا، كان أسوأ من ذلك بكثير، بل كان أسوأ ما يمكن أن يحدث لواحدة مثلها، إذ إنها فقدت توازنها ذات مرة وهي تؤدّي فقرتها، وسقطت من على ظهر الحصان، لتنغرز ألواح حديدية مدبّبة في وجهها، وتصيبها بجروح عميقة، تركت أكثر من ندبة غائرة في مواضع مختلفة من الوجه في الجبهة والأنف والشفتين والذقن، وهي ندوب لا تزول آثارها مع الأيام، مما أصاب أنوثتها في مقتل.

رغم ذلك فأنا أحيي شجاعتها، إذ إنها رفضت لفترة من الزمن أن تغطّي وجهها، بل كانت تواجه به الناس، فيقابلها البعض بالاشمئزاز، مما أقنعها في النهاية بضرورة تغطيته. أما لوروج فبعد الحادثة، وكانا قد عاشا سويًّا كزوجين سنوات عديدة، أصبح كثير السخرية منها، بقدر ما كانت هي متفاخرة في السابق، إلا أنه لم يتخلّ عنها، واحتفظ بها في منزله.

فإذا كان رماد الجثث، الذي أحرّكه أنا الآن بكتابتي هذه، يحتوي على أيّ بلّورات ثمينة، يمكنها أن تدلّنا على بعض خصائص الشخصيّات التي نحكي هنا عنها، الشخصيّات التي كانت ترتدي هذه الجثث أثناء

t.me/qurssan

حياتها، فإن هذا هو أهمّ الأهداف التي يسعى هذا الكتاب إلى تحقيقها، العبث برماد الماضي، بحثًا عن الجواهر واللآلئ النادرة، في محاولة للإجابة على السؤال الأزلي: هل هناك معنى للحياة؟

كل ما سأحاول أن أفعله هنا، هو أن أصف لكم كيف كانا يعيشان سويًّا، وبعد ذلك يمكنكم أنتم بأنفسكم، دون أيّ تدخّل منّي، أن تصدروا أحكامكم الأخلاقية. قد نصل في مرحلة ما من الحكي، إلى إدراك أن مارتا لم تكن قاسية على الآخرين، إلَّا لأن الحياة كانت أكثر قسوة عليها.

(٢)

في وقت ما من عام ١٩٠٧، اعتقدت مارتا أنها تستطيع أن تحوّل حبيبتي أنطوانيت التي سأحدّثكم عنها لاحقًا إلى لاعبة سيرك مثلها، فبدأت في تدريبها على امتطاء الخيول. ثم انقطعت الصلات تقريبًا بشكل تام بيني وبين أنطوانيت، إذ كنت قد عملت لمدّة ثلاث سنوات في البحرية التجارية، حتى كنت ذات يوم في لندن سنة ١٩١٠، حيث عثرت عليهما بالصدفة البحتة.

كانا يقومان معًا بعرض فقرة في سيرك عن إمكانية التحكّم في حركات الخيول، فقط باستعمال السوط. مارتا كانت تقدّم فقرتها، وهي تخفي وجهها المشوّه، خلف قناع يمثّل رأس ذئب، وكانت أنطوانيت البريئة، أو تلك التي كانت حتى قبل سنوات قليلة، تبدو براءتها فورًا لمن ينظر إلى وجهها، كانت أنطوانيت بسبب ارتباطها بمارتا، قد فقدت تمامًا هذه البراءة.

t.me/qurssan

من الأشياء المثيرة للاهتمام، أن أذكر لكم هنا أن من بين مهرّجي هذا السيرك اللندني، كان هناك مهرّج لا يزال نكرة لا يعرفه أحد، في حوالي العشرين من عمره، لكني سأدّعي هنا، أنني كنت قد أحسست بأنه سيكون يومًا ما نجمًا كبيرًا، وهو نفس المهرّج الذي سيعرف لاحقًا باسم (شارلي شابلن)، ويصير نجم السينما الأمريكية الصامتة لسنوات عديدة، ويعرفه العالم أجمع.

سأدهشكم مرة أخرى هنا الآن، عندما أذكر لكم أنني في ذلك الوقت، كنت ولفترة قصيرة لا تتعدّى بضعة أسابيع، لاعبًا في نفس هذا السيرك، أقوم كل ليلة بعرض فقرتي الإكروباتية، التي تتكوّن من اللعب بيديّ الاثنتين بعدد خمس كرات صغيرة، بحيث أدفعها في الهواء، وألتقطها من جديد، دون أن تقع منّي كرة واحدة على الأرض. كانت تلك الفقرة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق، لكنها كانت تجعلني كل يوم أقبض مبلغًا من المال، يغطّي مصاريف إقامتي في لندن، وهذه المصاريف هي ثمن إيجار الحجرة في الفندق، وثمن وجبات الغذاء والمواصلات.

هذا هو أجمل ما في الحياة، أن تكون متعدّد المواهب، بحيث تستطيع أن تمارس مهنًا عديدةً، ولا تمدّ يدك أبدًا بالسؤال. ولأنني كنت مهتمًّا بمسألة التثقيف الذاتي، كنت أقضي أغلب ساعات النهار إما في القراءة في مكتبة المتحف البريطاني، وإما في زيارة أقسام الحضارات القديمة، المصرية والبابلية والفارسية واليونانية والرومانية، في المتحف البريطاني *British Museum* نفسه.

t.me/qurssan

(٢)

فلنعد عامًا إلى الوراء، لأذكر لكم أنني كنت قد بدأت في طبع دواوين شِعرية، حتى إنني سنة ١٩٠٩ تلقّيت دعوة من اتحاد كتّاب وشعراء روسيا، لمناقشة ديواني الشعري، الذي أصدرته بالفرنسية في باريس. كم كان أدباء روسيا في ذلك الوقت -قبل سقوط الأسرة الملكية القيصرية- يعشقون الأدب الفرنسي، ويجيدون الحديث والقراءة باللغة الفرنسية، حتى إن عددًا كبيرًا من مترجمي الأدب الفرنسي إلى الروسية، الذين قابلتهم في أثناء تلك الزيارة، كانوا يجيدون الفرنسية كأهلها.

لعلّ من الضروري أن أشير هنا إلى هذه الحقيقة، وهي أن السبب في أنه لا يوجد أي ذكر لموضوع عملي في هذا السيرك، في أي مصدر من مصادر المعلومات عن حياتي، هو أنني كنت في ذلك السيرك قد استعملت اسمًا مزيّفًا بدلًا من اسمي الحقيقي، في محاولة منّي للحفاظ على سمعتي الأدبية الوليدة.

بعد لقائي بهما في لندن، كنت شبه متأكّد من قيام علاقة جنسية مثلية بين مارتا وأنطوانيت، بسبب ذلك الارتباط القوي بينهما، الذي منع أنطوانيت من التحدّث إليّ، بالتلقائية التي كنا قد اعتدنا على الحديث بها معًا. ثم لقد ظلّا يعملان سويًّا لبضعة أعوام، دون أن يكون لأيٍّ منهما أيّ علاقة بأيّ رجل، من عشرات الرجال الموجودين في السيرك حولهما.

t.me/qurssan

ثم كانت هناك فكرة أخرى نمت في ذهني بالتدريج مع الوقت، وهي أن مسألة وجود أسياخ حديدية مدبّبة حول حلبة السيرك، كانت مسألة مؤقّتة جدًّا، إذ إنها كانت قد وُضعت ذات يوم، ثم وقعت الحادثة بعد بضعة أيّام، فتمّ بالتالي على الفور رفعها من مكانها! لماذا لا تكون هذه هي الحيلة التي لجأ إليها أحد الرجال العاملين في السيرك للانتقام من مارتا لسبب أو لآخر؟

(٤)

ثم جاءتني أنطوانيت ذات يوم أثناء فترة إقامتي في لندن بجزء آخر من الحقيقة لم أكن أعرفه، وهو أن أغلب ندوب وجه مارتا، هي صحيح بسبب هذه الحادثة، إلا أن هناك ندبة أخرى أقدم قليلا، كانت بسبب ضرب لوروج لمارتا بالسوط على وجهها، عندما اكتشف خيانتها له مع أحد أصدقائه. هل يكون لوروج هو من دبّر حادثة سقوط مارتا من على ظهر الحصان؟

صحيح كذلك أنه عندما تتقابل مع لوروج في مكتبه بالجريدة، أو في مقهى من المقاهي، يبدو لك كريمًا ذكيًّا رقيقًا حنونًا، إلا أنه يتردّد كثيرًا في دعوتك إلى منزله، وذلك لأنه هناك يظهر لك على الفور وجهه الآخر.

لوروج هو أفضل نموذج فرنسي حقيقي، لشخصية رواية (دكتور جيكل ومستر هايد)، من نهايات القرن التاسع عشر، للأديب الإنجليزي المشهور روبرت لويس ستيفنسون. في منزله أظهر لي لوروج وجهه

t.me/qurssan

السادي العنيف، الذي يستمتع أيما استمتاع بتعذيب الآخرين. وقد ظهر هذا الوجه بوضوح في علاقته بمارتا.

لقد سبق لي القول إنه لم يتخلَّ عنها، ولم يجعلها تغادر منزله، بعد تشوّه وجهها، وبعد فقدها العمل في السيرك الباريسي، وهو مصدر دخلها الوحيد، خاصة وأنه لم يكن لها أي منزل آخر يمكنها أن تذهب إليه، إلّا أن معاملته لها تغيّرت، إذ أصبح دائم الإهانة لها، لأسباب تبدو تافهة. لاحظت هناك في المنزل على الفور مشاعر الكراهية العميقة، التي يكنّها كلٌّ منهما للآخر، كراهية من النوع المعروف حاليًا في علم النفس باسم العلاقات السادومازوخية *sadomasochism*، حتى إنني كنت أتساءل كيف أنه يأكل من الطعام الذي تقدّمه له، دون أن يخاف من أن تكون قد وضعت له فيه السمّ؟

هناك إذَنْ أسئلة كثيرة:

١ - هل كان يمارس عليها نوعًا من السحر الأسود، الذي كان ذات يوم قد ألّف فيه كتابًا؟

٢- هل كان يمارس عليها نوعًا من التنويم المغناطيسي *Hypnotism*، الذي ألّف فيه هو الآخر كتابًا؟

٣- هل كان قادرًا على التحكّم في حياتها، لذلك لم يكن يخاف منها؟

٤- هل كان يتعامل معها بصفتها إحدى شخصيّاته الروائية، التي يتحكّم تمامًا في مصيرها كما يفعل المؤلّفون عادة بشخصيّات رواياتهم؟

t.me/qurssan

٥- مَن كان منهما ضحيّة الآخر؟ ففي الواقع كان كلاهما على نفس الدرجة من الخطورة والخبث، ومن الاجتهاد في إيذاء الآخر.

٦- كنت أتساءل أيّهما أقوى من الآخر؟ هو بذكائه الفطري وبمعارفه الموسوعية، وبقدرته على تحليل الشخصيّات، كما كان يفعل في رواياته، أم هي بخبث الشيطان نفسه، وبما كان لها من علاقات جنسية متعدّدة مع رجال ونساء؟

٧- ثم كنت أتساءل منذ كم قرن من الزمان، تحدث مثل هذه العلاقات الشاذة؟ بين أدباء كبار وعشيقاتهم، اللائي كنّ غالبا خبيثات شيطانات، رغم أن بعضهنّ كنّ ملهمات لروايات أو لقصائد شِعرية، منذ بترارك ودانتي مع لورا وبياتريس، أو حتى منذ جوبيتر مع ساتيرن في الأساطير اليونانية؟

(٥)

خلال ثلاثين عامًا من الصداقة مع لوروج، لم أجده أبدًا ولا مرّة واحدة، في حالة رخاء اقتصادي. هو بالإضافة إلى دخله من مرتبّه الشهري من الجريدة التي يعمل بها، كان لديه دخل آخر ثابت من إرث عائلي، لم أعرف أبدًا ما هو، ولا كم يبلغ مقداره. إلا أنه على ما يبدو فإن مجموع دخليه لم يكن كافيًا، خاصة أن لوروج كان يصرف مبلغًا كبيرًا كل شهر على اقتناء المزيد من الكتب، التي تتراكم على أرضيات الشقّة، وكذلك على شراء المواد الكيميائية اللازمة لإجراء تجاربه واختباراته المعملية.

لوروج هو من بقايا العصر الكلاسيكي، الذي كان أغلب الرجال المستنيرين فيه موسوعيين، ويحاولون أن يكتشفوا بأنفسهم كل ما يحيط بهم، فكنت ترى من بينهم عالم الفيزياء الذي يؤلّف مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية، أو الطبيب المهتمّ بعلوم الآثار. فمن المعروف مثلًا أن إينشتاين *Einstein* كان فيزيائيًا، وفي نفس الوقت عازفًا موهوبًا للكمان الكلاسيكي، ومؤلّفًا لمقطوعات كلاسيكية تعزف على الكمان. وفرويد *Freud* كان طبيبًا، وفي نفس الوقت مهتمًّا بعلوم الآثار القديمة، خاصة علم المصريّات، الذي كانت له فيه أبحاث ومؤلّفات.

إلا أن انفجار المعارف واتساعها الهائل في القرن العشرين، سيؤدّي إلى ضرورة التخصّص في فرع دقيق من فروع المعرفة. فحتى لو كنت متخصّصًا في المصريات، فستجد نفسك بعد فترة مضطرًّا للتخصّص في عصر الدولة القديمة، ثم بعد فترة أخرى ستجد نفسك مضطرًّا للتخصّص في فنون البناء في الدولة القديمة، بحيث لن تستطيع بعد ذلك أن تخرج من هذا التخصّص الدقيق، ولو بالذهاب إلى أي نوع آخر من الدراسات في علم المصريات (علوم آثار مصر القديمة).

عندما دعاني لوروج لأول مرّة إلى فيلّته في سانت وان *Saint Ouen*، وهي منزل صغير نسبيًا، من طابق واحد، تحيط به حديقة كبيرة نسبيًا، كانت مارتا قد أعدّت لنا وجبة شهيّة، وأدركت لاحقًا أن معدته كانت من أهم أسباب احتفاظه بها، إذ إن مارتا كانت طباخة ماهرة. خلال ذلك الغذاء كان يمكن للزائر أن يكوّن انطباعًا خاطئًا عن حجم ثروة صاحب المنزل، بسبب مستوى جودة وارتفاع أسعار أطقم المائدة، من أطباق

t.me/qurssan

وفضيّات إنجليزية، وأكواب وكؤوس من زجاج بوهيميا.

كانت بالحديقة بعض الأحواض، يزرعان فيها خضروات صينية، لم أعرف أبدًا كيف حصلا عليها، وتمكنّا من استزراعها في بيئة فرنسيّة. بالإضافة إلى هذه النباتات الغريبة، كانت هناك أسماك غريبة في بركة ماء صغيرة، وكذلك كان هناك طائر غريب الشكل، وثقيل الوزن جدًّا إلى درجة أنه رغم جناحيه الكبيرين لا يستطيع أن يستعملهما في الطيران، قيل لي إنه من فصيلة تنمو في أحراش أمريكا، لكنهما لم يقولا لي كيف حصلا عليه.

لكني لاحظت خلال زياراتي المتكرّرة -على مدار بضع سنوات- أن الأشياء تتدهور لديهما بشكل متسارع، وأنه يكفي النظر إلى الحديقة لإدراك ذلك، لكني لم أعرف من منهما كان يعتني بها ثم أهملها؟ لاحظت: ١- موت الطائر الغريب. ٢- خلو البركة من الأسماك. ٣- غزو الحشائش الضارة لأحواض الخضروات. أما داخل المنزل، فأينما جلست كان عليَّ أن أنفض الأتربة المتراكمة على قطع الأثاث، وعلى الموائد وظهور المقاعد ومساندها، وعلى أرفف الكتب، وعلى أغلفة الكتب إذا تناولت واحدًا منها في يدي.

كان من أسوأ ما لاحظته في الفيلا -عند بداية التدهور العام- هو عدم حرص لوروج على غلق باب معمله، أثناء عمله في إجراء تجاربه الكيميائية فيه، مما كان يؤدّي إلى انتشار الروائح الكريهة لبعض المركّبات الكيميائية مثل كبريتيد الهيدروجين، وهذا المركّب الأخير له

t.me/qurssan

رائحة البيض الفاسد، وهو غاز أثقل من الهواء لذلك يصعب التخلّص من رائحته.

(٦)

حين قابلت مارتا مع أنطوانيت في لندن سنة ١٩١٠، كانت مارتا قد اختفت من منزل لوروج، منذ حادثة تشوّه وجهها قبلها بعامين، وظلّت بعد سنة ١٩١٠ مختفية، لا نعرف إن كانت في لندن أو في غيرها من مدن أوروبا، مع السيرك أو دونه، مع أنطوانيت أو مع غيرها. كل ما أعرفه هو أنها مع بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، تركت المكان الذي كانت فيه، وعادت إلى باريس، وبالتالي عادت إلى الإقامة مع لوروج، في فيلا سانت وان، فهي لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه.

عرفتُ لاحقًا أنها عند عودتها إلى سانت وان، كانت صحتّها متدهورة، وقد فقدت الكثير من وزنها، بسبب إصابتها بأحد الأمراض الجنسية، الذي قد يكون الزهري أو السيلان، القابلة للانتقال عبر الممارسات الجنسية، ويسمّيها الأطباء *S.T.D.*، أي *sexually transmitted diseases*، وهي الأمراض التي تظهر أعراضها وتبعاتها في نفس الوقت على عدد كبير من أعضاء الجسم.

كان مرضها هذا قد أدّى إلى تآكل في بشرة جلد الجسد كله، بما في ذلك بشرة الوجه والعنق واليدين والذراعين، وهي الأجزاء المرئية من الجسم، مع وجود إفرازات جلدية لها رائحة كريهة.

المؤلم في الموضوع، هو أن الطبّ في ذلك الوقت لم يكن قد

t.me/qurssan

اكتشف بعد المضادات الحيوية التي تحارب هذا النوع من الالتهابات، حتى إنني عندما زرتهما سنة ١٩٢٦، وكان ذلك بعد غياب طويل عنهما، كانت هذه الرائحة تفوح من المنزل إلى الحديقة، وتنتقل منها حتى تصل إلى الشارع.

في ذلك اليوم عندما خرجت من المنزل، جريت إلى أقرب بار، وطلبت زجاجة من مشروب عالي الكحولية، لا لأحتسيها بل لأسكب منها السائل الكحولي على شعري ووجهي ويدي الاثنتين، حتى أتطهّر من أي ميكروب، يكون قد علق بي، ثم سكبت باقي الزجاجة في جوفي، حتى أطهّره هو الآخر، خوفًا من أن أكون قد ابتلعت فيه دون أن أدري بعض هذه الميكروبات التي كانت تفوح في أرجاء المنزل.

لم يكن هذا البؤس الذي حلّ بالشخصين المقيمين في هذا المنزل بسبب الحاجة إلى المال، بقدر ما كان بسبب غياب الحسّ الأخلاقي لهذه المرأة، التي كانت ممارساتها الجنسية المتعدّدة، خلال سنوات طويلة، أقرب إلى السلوك الحيواني منها إلى السلوك البشري. أنا لم أعتد على إطلاق أحكام أخلاقية على البشر، لكن هذه المرأة تغلّبت على قوة احتمالي كإنسان متسامح قادر على تقبّل المقاييس الأخلاقية المنحرفة الشاذة.

هناك إجابات مختلفة على السؤال (لماذا لم يتخلّص لوروج من مارتا، بوضعها في مصحّة عامة؟).

١ - إنه احتفظ بها في بيته؛ لأنه يستمتع بتعذيب نفسه، فهو في تلك السنة ١٩٢٦ لم تكن لديه أيّ مشاعر نحوها.

t.me/qurssan

٢- أن يكونا قد ارتكبا سويًا عملًا إجراميًّا بشعًا، يخشى من افتضاحه، فاضطر إلى الإبقاء عليها.

٣- أن يكون لوروج قد وقع تحت تأثير التسمّم الكحولي، بسبب إدمانه الأبسنت لسنوات طويلة، فأصبح تفكيره مضطربًا.

٤- أن يكون لوروج قد بدأ في كتابة رواية عن (حياة مارتا)، وهو يريد أن يدرس تصرّفات هذه الشخصية حتى نهاية حياتها، بدوافع روائية بحتة.

٥- أن يكون لوروج مستمتعًا بمشاهدة مارتا تتعذّب؛ لينتقم لنفسه من العذاب الذي تسبّبت له فيه بعلاقاتها المتعدّدة مع الرجال الآخرين.

(٧)

ثم على مدار العام ١٩٢٦ توالت اكتشافاتي المذهلة:

١- أنهما لم يكونا أبدًا متزوّجين، فهما لم يتزوّجا زواجًا دينيًّا في الكنيسة، ولا حتى زواجًا مدنيًّا في مكتب الشهر العقاري، إلا أن إقامتهما معًا كانت تجعل تصرّفاتها غير الأخلاقية محسوبةً عليه.

٢- أن مارتا كانت أغنى بكثير من لوروج، وأنها هي التي كانت تستضيفه وليس العكس، إذ إنها كانت قد جمعت ثروة كبيرة منذ زمن عملها كفتاة ليل، قبل مرحلة العمل في السيرك، وقبل لقائها الأول بلوروج، وبالتالي كانت قد وضعت نقودها التي كسبتها بعرق جبينها في دفع ثمن شراء ثلاث فيلات، منها تلك التي يقيمان فيها.

٣- أنها أثناء سنوات إقامتها في لندن، كانت تتعمّد أن ترسل إليه صورها الفوتوغرافية مع كل الرجال الذين كان تسهر معهم، من بين خيرة رجال المجتمع البريطاني، من سياسيين وصحفيين ورجال أعمال، لتجعله يتحسّر على غيابها عنه.

٤- عرفت أن السبب في طلب لوروج فقط لمبلغ ٤٠٠ فرنك ثمنًا لبيع روايته (الدكتور كورنيليوس)، هو أن هذا المبلغ كان ثمن دولاب خشبي بواجهة زجاجية أرادت مارتا شراءه.

٥- أنه ظلّ كلما تجمّع لديه مبلغ ٤٠٠ فرنك، يشتري لها نفس هذا النوع من الدواليب، حتى بلغ عددها في مخزن تحت أرض الفيلا عشرين دولابًا. كنوع من الانتقام منها، بسبب تطلّعاتها الطبقية وحبّها للمظاهر. لكنه تصرّف يدلّ كذلك على أن لوروج لم يكن شخصًا طبيعيًا.

٦- عندما كانت طريحة الفراش، بسبب مرضها وعجزها عن الحركة، اشترى لها مرآة من أفضل نوع ومن أكبر مقاس، ووضعها أمام فراشها، حتى تتمكّن طول الوقت من مشاهدة البشاعة التي أصبح عليها منظرها.

٧- ثم علّق على الحائط إلى جوار الفراش، سطرين من أحد نصوص التوراة، الذي يقول فيه النبي أيّوب: "أصبح جلدي ملتصقًا بعظمي، وقد اختفى كلّ لحمي، ولم تعد لديَّ إلا شفتان حول الأسنان"، وهو الآية رقم ٢٠ من الاصحاح الإصحاح رقم ١٩، من سفر النبي أيّوب.

٨- ثم صنع لها عروسة من القماش، تشبهها تمامًا وبنفس حجمها، ثم دقّ أطرافها الأربعة في الحائط، كأنه يريد أن يقول لها: أتمنى أن تصبحي مشلولة تمامًا مثل هذه العروسة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل السادس

فتاة الأدغال الأفريقية

(١)

كان خادم الحانة قد شمّر عن كمّي قميصه، فبدت على ذراعيه المشعرتين كميّة كبيرة من أنواع الوشم المختلفة، على عادة أهل مارسيليا وغيرها من مدن السواحل. كان صبية الحيّ يأتون إليه أثناء جلوسنا هناك، وهم يحملون سلالًا بها أنواع مختلفة من الأسماك، فيسلّم السلّة إلى الطبّاخة تيتي، ويخرج من جيبه الأوراق النقدية من فئات ١٠ و٢٠ و٥٠ فرنكًا، ويعطيها للصبي دون فصال ودون أن يطلب من أيٍّ منهم الباقي، كما لو أنهم كانوا يعرفون كلهم، أنه لا يتراجع عن فئة المبلغ الذي يحدّده لمحتويات السلّة، وفقًا لنوع ولكميّة السمك الموجود بداخلها، وبالتالي ليس هناك ما يدعو إلى فتح أي حوار معه. كانت أطباق الأسماك الطازجة هي أفضل ما يقدّمه هذا المطعم.

قلت لأصدقائي على نفس المائدة: «لقد ذهب جيكي زميلي في تصوير الأفلام في أفريقيا إلى مقرّ شركة أميريكان إكسبرس؛ لإرسال

t.me/qurssan

الشرائط بواسطة الطائرة إلى أمريكا، حيث تقدّم معامل الطبع والتحميض هناك أفضل نتائج على الإطلاق على مستوى العالم، فنحن نتعامل معها منذ عشر سنوات، واكتشفنا أن هذا هو أفضل أسلوب للحصول على أفضل النتائج في مجال تسويق وبيع أفلامنا».

ثم غيّرت الموضوع فجأةً عندما تلوت أمام صاحب الحانة هذا المونولوج الطويل، وهم جميعًا -أصدقائي وأصحاب الحانات وخدمها- قد اعتادوا على أن يتركوني أتكلّم وحدي، لأقصّ عليهم تفاصيل مغامراتي، دون أن يقاطعني أي واحد فيهم بأي أسئلة أو تعليقات، إلّا بعد أن أتوقّف عن الكلام.

قلت: «أريد أن أحجز هذا المساء مائدة لي وحدي لوجبة العشاء، وستكون معي آنسة تعرّفت عليها في كمبالا بأوغندا، أريدها أن تتذوّق أو أن تستعيد تذوّق الطعام الفرنسي، بعد أن كانت قد عاشت لفترة لا أعرف مداها، على لحوم الجمال والقرود الأفريقية، وعلى المعلّبات اليابانية».

ثم أضفتُ: «على أن يتمّ طبخ الوجبة هذا المساء باستعمال الزبد الفرنسي الشهي الطازج، بعد أن تعبت معداتنا من سوء هضم الأطعمة المطبوخة بزيوت النخيل، التي عشت أنا عليها ستّة أشهر، وهو للعلم نفس الزيت الذي تستخدمه النساء الأفريقيات في تلميع وتليين شعورهنّ، وتفوح رائحته في كل مكان في أوغندا».

t.me/qurssan

(٢)

أنا أسمّيها آنسة الوداع؛ لأنني كنت أنوي أن أنفصل عنها على الفور، أو بالأحرى أن أتحرّر منها، فعلى ما يبدو أنه لا يأتي من ورائها إلا المتاعب، فانظروا معي:

أولًا- لقد عثرت عليها ضائعة في أدغال أفريقيا *la jungle africaine*، وهو اسم علبة ليل في كمبالا عاصمة أوغندا، حيث كانت تقدّم فقرة من الغناء الفرنسي المعاصر، ولا أعرف إن كانت قد ذهبت إلى أبعد من ذلك، ولم أعرف بعد كيف كانت قد وصلت في المقام الأول إلى هناك، فهي تحيط كل ما يتعلّق بحياتها بقدر كبير من الغموض، وهذا هو في الحقيقة أكثر ما أثارني فيها.

ثانيًا- انتشلتها من هناك وعدت بها معي على نفس السفينة من الإسكندرية إلى مارسيليا، وفي نيّتي أن أعيدها إلى والديها، فهي وللمفاجأة الكبرى تقول إنها لم تبلغ بعد سنّ الرشد! هل يمكن تصديقها؟ تمكنّت بعلاقاتي واتصالاتي أن أضعها معي على نفس السفينة في قمرة مستقلّة، لكني أتساءل كيف خرجت في الأصل من فرنسا وسافرت دون جواز سفر الذي يشترط للحصول عليه بلوغ سنّ الرشد؟

ثالثًا- يكفي أن ينظر المرء إلى حجم الحقائب التي حملتها معها، حتى يدرك جانبًا من شخصيّتها، وهو أنها شديدة التدليل لنفسها، فهناك حقيبة ضخمة بحجم دولاب ملابس صغير، يمكنها أن تعلّق

t.me/qurssan

فيها فساتينها دون كرمشة، ثم حقيبة لملابس النوم، وثالثة لأدوات الاستحمام والتجميل، وهي في الحقيقة على قدر رفيع من الثقافة، فهناك كذلك صندوق لأسطواناتها الموسيقية، وبه أعمال باخ وبيتهوفن وشوبرت وبرامز، مع جهاز تشغيل الإسطوانات، مثبّت عليه السمّاعات وفقًا لأحدث طراز من هذه الأجهزة. هناك كذلك صندوق لكتبها، التي لا يقل عددها عن بضع مئات، فأنا عندما قابلتها كانت تقرأ الأجزاء السبعة المتتالية للرواية التي كانت قد خرجت للتو من المطابع؛ الرواية النهر (البحث عن الزمن الضائع) لمارسيل بروست.

كنت قد سألتُها في أول لقاء بيننا: ماذا تفعلين يا ديانا في أفريقيا؟

قالت: أبحث عن الزمن الضائع.

(٢)

توقّفت سيّارة أجرة أمام شرفة الحانة، ولمحت الآنسة تنزل منها، وعلى وجهها نفس التعبير التعس الذي كان لها عند أول لقاء لنا في كمبالا.

قلت: "أهلًا أيتها الفتاة، لماذا لا تزال تبدو عليكِ نفس ملامح التعاسة التي كانت على وجهكِ وأنت في الغربة؟".

قالت: "لم يسمحوا لي في الجمارك بالتخليص على حقائبي".

فقلت: "ليس هناك ما يدعو إلى القلق يا صغيرتي، ستتمكّن من

t.me/qurssan

علاج هذه المسألة، فلديّ معارف وأصدقاء في كل مكان، ادخلي إذَنْ وتقدّمي لاحتساء كأس من مشروبكِ المفضّل".

كانت هذه الفتاة من بين النساء القلائل اللائي يستطعن أن يحتسين المشروبات الكحولية، دون إضافة أيّ سوائل عليها، مثل الماء أو عصائر الفواكه، لتخفيف وقع المادة الكحولية، وكان هذا الطبع فيها وحده كافيًا حتى تحصل على كامل احترامي، بل حتى على صداقتي الحميمة.

قلت: "إذا كنتِ تحتاجين إلى نقودٍ فهاك حافظة نقودي خذي منها ما تشائين، لقد حجزت لكِ مكانًا في قطار باريس هذا المساء، هل أرسلتِ برقية إلى أمكِ تبلغينها فيها بعودتكِ إلى فرنسا؟".

قالت: "هذا لطيف جدًّا منك، نعم أبرقت إلى أمّي وطلبت منها أن ترسل لي تحويلًا ماليًّا، فأنا لن أغادر مارسيليا دون حقائبي، حتى لو اضطررت إلى البقاء فيها لبضعة أيام".

قلت: "سأطلب لنا أولًا زجاجة نبيذ، ثم نفكّر معًا في الحلول المتاحة".

استدارت الآنسة في كرسيها حتى تتمكن بشكل أفضل من مراقبة المارة على الأرصفة. بعد كأسين قمت إلى التليفون لإجراء مكالمة مع أحد أصدقائي، ثم عدت إلى المائدة.

قلت: "يمكنكِ الآن على الأقل أن تبتسمي؛ لأن صديقي فلان الفلاني ينتظركِ في مكتبه بالميناء؛ لإنهاء مشكلة جمارك الحقائب".

t.me/qurssan

سألت: "هل أنت متأكد؟".

قلت: "إنه شاعر من شعراء المدينة، لكنه في وقت فراغه من الشِّعر يعمل في أحد مكاتب التخليصات الجمركية في الميناء".

كانت تنظر إليَّ بشكّ، فرغم الأسابيع التي قضيناها معًا، إلا أنها كانت دائمة الشكّ في الرجال.

أضفت: "أؤكّد لكِ أنه سينهي مشكلتكِ في أقل من خمس دقائق، لكن احذري منه فإنه من أولئك الذين لا يفلتون فرصة لمحاولة إغواء امرأة".

ثم بعد لحظة صمت: "وهكذا فإذا استعدتِ حقائبكِ، يمكنكِ أن تأخذي قطار المساء إلى باريس، أما لو ظهرت عقبات لم تكن في الحسبان، أو لو أردتِ البقاء لبعض الوقت في مارسيليا، يمكنني أن أحجز لكِ غرفة في الفندق الذي أقيم فيه".

سألت: "ولكن لماذا تبقى أنت في مارسيليا، وتطلب مني أنا أن أغادر على الفور إلى باريس؟ لماذا لا أظل هنا معك لبعض الوقت؟ ماذا تنوي أن تفعل؟".

قلت: "لديَّ برنامج أريد تنفيذه".

سألت: "هل لي أن أعرف ما هو؟".

في الحقيقة كانت لديّ فكرة عن برنامجين مختلفين، إذ كنت لا أزال أعيش في تلك المرحلة من حياتي، التي عُرِفْت خلالها في الأوساط

t.me/qurssan

السينمائية، كمخرج ومصوّر للأفلام التسجيلية، وكانت فكرتي هي أن أصوّر فيلمًا تسجيليًّا:

١- إمّا بأن أستأجر قاربًا، وأقوم بعمل حولة سياحية حول شواطئ جنوب أوروبا على سواحل البحر المتوسّط، مع زيارة بعض الجزر مثل كورسيكا أو الباليار.

٢- وإما بأن أذهب إلى البرازيل لتصوير الثعابين الضخمة في غابات حوض نهر الأمازون.

ذكرت لها كل ذلك بشكل مختصر. لم أذكر أي شيء عن المشروع الذي كان معروضًا عليّ تنفيذه، وهو عمل فيلم تسجيلي عن شهداء المسيحية في القرون الأولى للميلاد؛ لأن هذا المشروع كان سيبقيني في فرنسا، وأنا كنت وقتها أكثر ميلًا إلى السفر.

(٤)

قالت: "أنا لو كنت مكانك لاخترت السفر إلى وادي نهر الأمازون في البرازيل".

قلت: "وهل تعتقدين في هذه الحالة أنني سآخذكِ معي؟".

قالت: "لمَ لا؟".

قلت: "عليكِ أن تعرفي أن الإعداد لهذه الرحلة قد يستغرق شهورًا طويلةً، فالمسائل لا تؤخذ هكذا بشكل اعتباطي".

t.me/qurssan

١- فيجب أن أذهب وحدي إلى البرازيل، للاتفاق مع السلطات المحلية، ثم إجراء مقابلات وحوارات متعدّدة مع أهل المهنة، من مقتفي أثر الثعابين في الغابات، ومن صيّادين يُجيدون صنع الشِّباك والأفخاخ.

٢- ثم عليَّ أن أعدّ بعد ذلك سيناريو كاملًا لكل فقرات الفيلم، وأذهب به إلى شركة إنتاج سينمائي، وأحصل منها على ميزانية مناسبة، ثم أختار الطاقم الفنّي الذي سيسافر معي.

٣- على أن يرافق ذلك قراءات مختلفة المصادر، عن مادة الثعابين في المكتبات الأوروبية والأمريكية، حتى يكون التعليق المصاحب للقطات الفيلم علميًا قدر الإمكان، بل حتى يجوز أن أجري حوارًا مع أحد أساتذة علوم الحيوان".

قلت: "لاحظي أنني إذا تعاقدت مع شركة فرنسية، فالميزانية غالبًا ستكون محدودة لا تسمح بأي ترف. أما إذا تعاقدت مع شركة أمريكية، فليس هناك أي ضمان ألَّا تسرق مني هذه الشركة الفكرة، ثم يقومون بتنفيذها مع مخرج وفنيّين أمريكيين، ففي هذه الصناعة في أمريكا لا مجال للأخلاقيّات، بل تسيطر على الجميع روح العصابات وقطّاع الطرق".

أنظر إليها وهي جالسة إلى جواري تبدو شاردة الذهن فأستأنف: (صدّقيني سيكون لدينا لاحقًا الوقت الكافي لنتحدّث في كل هذا، أما الآن فعليكِ أن تعودي إلى والدتكِ، وتنصتي إلى نصائحها لكِ بالزواج، واقبلي الزوج الذي سيتقدّم لطلب يدكِ".

ثم قلت: "أعتقد أنه ذات يوم دار بيننا حديث، عن أحد رجال السلك

الدبلوماسي الفرنسي، الذي أراد أن يطلب يدكِ، وذهب فعلًا لمقابلة عمّكِ مدير البنك، وقد أبدى العمّ استعداده للتكفّل بكل مصاريف هذا الزواج؟ هذا الزوج يناسبكِ جدًّا، فهو سيوفّر لكِ فرص السفر إلى البلاد الأجنبية الذي تحلمين بها، وسيوفّر لكِ كذلك نوعية الحياة التي تطمحين إليها، بما سيكون فيها من ارتداء أفخر الثياب على الموضة، ومن حفلات استقبال في الفنادق الكبرى، ومن سهرات موسيقية في دور الأوبرا".

هي لا تزال صامتة تمامًا لا تعلّق على أي شيء من كل ما قلته، فأستأنف: "هذا سيكون أفضل بكثير لمستقبلك، عن القيام بالمزيد من المغامرات، في غابات الأمازون".

من جديد لحظات من الصمت قبل أن أصل إلى الموضوع الحسّاس: "عليكِ أن تنسي تمامًا رغبتكِ في العمل كممثلة سينمائية".

لحظات صمت، أراقب خلالها ما ظهر على وجهها من تعبيرات تدلّ على الكراهية أو الإحساس بالمرارة، إذ لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي أحاول فيها أن أثني فتاة عن عزمها على العمل كممثلة سينمائية، وفي كل مرة كانت الفتاة لا تنصت إلى ما أقول، وتشعر نحوي فيما بعد بالكراهية، حتى لو لم يكن لديها الحدّ الأدني من الموهبة، أي حتى لو لم تصبح أبدًا ممثلة. لذلك جلست صامتًا أتوقّع بين لحظة وأخرى، أن تبدأ الآنسة في مهاجمتي، بعد أن نزعت من دماغها هذا الحلم، أو بالأحرى هذا الوهم.

t.me/qurssan

(٥)

بدأنا في تناول وجبة الطعام، بعد أن شغلنا وحدنا إحدى موائد الشرفة. وجهها لا يعبّر عن أي شيء فهي تجيد استعمال الوجه القناع، وتنجح بالتالي في إخفاء مشاعرها الحقيقية. في الحقيقة أنا لا أستطيع أن أقول إنني أعرفها، وهي بالتالي لا تستطيع أن تقول إنها تعرفني.

هي قد أخذت عني فكرة سطحية مزيّفة عن أنني قادر على إعطائها فرصة أن تصبح ممثلة سينمائية، وأنني أبخل عليها بها. والحقيقة هي أنني في ذلك الوقت -في المجال السينماني- لم أعد على اتصال إلَّا بأولئك الذين يعملون في مجال السينما التسجيلية. إلا أنني قد خلقت حول نفــي هالة من الضوء، يمكنني أن أسمّيها أسطورتي الباريسية.

هي في المقابل لم تذكر لي الكثير من تفاصيل حياتها، فمثلًا أنا لم أكن أعرف بعد كيف وصلت إلى أوغندا؟ وهل كانت لديها هناك علاقات جنسية متعدّدة؟ أو بالأحرى هل كان عملها كمغنّية فرنسية هو غطاء لتمويه عملها الخفي في الدعارة؟

أنا لا أستبعد عنها أي شيء، فهي من النوع الذي يلقي بنفسه بقصد أو دون قصد إلى التهلكة، ثم ما هي حقيقة الموقف من أسرتها؟ عدم معرفتي بكل هذا هو الدليل على أنها لم تثق بي. ففي كل ما دار بيننا من أحاديث، كانت غالبًا ما تصمت فجأةً عن الكلام، عندما تشعر أنها قد تتورّط فيما لا تريد التصريح به.

t.me/qurssan

إلا أنني رغم ذلك تمكنت من معرفة الكثير من التفاصيل عن حياتها، في أثناء الأيام الخمسة لرحلتنا البحرية من الإسكندرية إلى مارسيليا، عندما كانت تشرب كؤوس الويسكي في بار السفينة، ثم تبدأ في الفضفضة والثرثرة الحميمية.

هذا بالإضافة إلى أنها عرضت عليَّ ألبوم صورها الفوتوغرافية العائلية لها مع والديها عندما كانت طفلة ثم مراهقة، في منزل أسرتها الذي يبدو من أثاثه أنها عائلة كانت -وربّما لا تزال- على قدر من الثراء.

الأسئلة تتوالى: ١- كيف ولماذا تركتهم؟ ٢- ومع مَن هربت من فرنسا؟ ٣- هل هو أحد قباطنة سفن التجارة البحرية الدولية؟ أنا لا أتخيّل إلّا أن يكون قبطان سفينة تجارية كبيرة، هو الذي أغواها وجعلها تترك بيت أسرتها، فهو الوحيد القادر، بما له من سلطة مطلقة على مثل هذه السفن، أن يضع فتاة شابة في مقصورته، دون أن يجرؤ أحدٌ على سؤاله عنها.

(٦)

أما خلاصة ما توصّلت إليه فيما بعد، فهو أنها وُلدت في منزل عائلة ثرية، في إحدى المناطق الريفية بإقليم بريتاني *Bretagne* في شمال غرب فرنسا، وفي سن الخامسة وُضِعَت في مدرسة داخلية للفتيات، تديرها راهبات كاثوليكيّات، ثم في بداية مراهقتها، أي في حوالي سن الرابعة عشرة، أرسلوها لقضاء عامين دراسيين في مدرسة ثانوية داخلية للبنات في إنجلترا، بهدف إجادة اللغة الإنجليزية.

t.me/qurssan

دلّت صورها الفوتوغرافية المأخوذة في هذه المدرسة، على أنها بدأت في التخلّي عن ملابس الفتيات، وبدأت في ارتداء ملابس الفتيان، مثل البذلات الكاملة بالسترة والسروال ورباط العنق. ظهر كذلك أنها قصّرت شعر رأسها إلى الحدّ الأدنى. هل يدلّ هذا على ميول جنسية مثلية؟ أم أنها رغبة في التخلّص من أنوثتها؟ من بين حكاياتها عن تلك الفترة من حياتها، قالت إنها كانت لها فيها علاقات صداقة حميمة مع عدد من الفتيات الإنجليزيات، ولم تذكر أيّ صداقة مع أي فتى.

في سن السادسة عشرة أعادتها إلى فرنسا، برقية عاجلة بها خبر الوفاة المفاجئة لوالدها، الذي كان أقرب عاطفيًّا إليها عن أمّها، التي لم تكن تشعر ناحيتها بأيّ عواطف، بل كانت دائمة السخرية منها وتلقبّها بـ(المرأة البيضاء). وحيث إن الدراسة في إنجلترا كانت وفقًا لرغبة والدها، فهي بعد وفاته تحرّرت من هذا القيد، وتوقّفت عن الدراسة، خاصة بعد أن استلمت في يدها مبلغًا كبيرًا من المال، كان والدها قد تركه لها بوصيّة خاصة.

تركت شمال فرنسا واستقرّت وحدها في شقّة صغيرة في باريس، حيث اشترت سيّارة واستأجرت سائقًا، فهي لم تكن قد بلغت بعد سنّ الرشد الذي يسمح لها بالحصول على رخصة قيادة. ثم انشغلت لمدّة عام كامل بالمراهنات على سباقات الخيول في فرنسا وألمانيا، ثم بمباريات الجولف في دول شرق أوروبا، ثم بالمضاربة في سوق الأوراق المالية في بورصات أوروبا.

مَن كان مستشارها المالي في ذلك الوقت؟ لم تقل أي شيء، بل

t.me/qurssan

رفضت أن تجيب على سؤالي. ثم إنني لم أعرف منها أبدًا حجم الثروة التي كانت قد تُرِكَت لها في وصيّة أبيها، ولا حجم المال الذي أنفقته بتبذير شديد في مدّة لا تزيد عن عام واحد، بين عاميها السادس عشر والسابع عشر، ولا حتى موقفها المالي الحالي، هل هي لا تزال قادرة مثلًا على دفع إيجار شقّة في باريس؟

ثم انتبهوا معي إلى هذه العبارة التي قالتها: "في الأوساط التي تردّدت عليها، كنت أتقابل مع عدد من الرجال المتقدّمين في السن، من كبار الأثرياء المشهورين في مجالات الأعمال الحرّة والبورصة والبنوك، وهؤلاء هم مَن كنت أستشيرهم في أموري المالية".

تساءلت هل كانت علاقتها بهم هي بسبب حاجتها إلى أبّ بعد أن فقدت أباها بالدم، أو بسبب اشتياقها عاطفيًا إلى والدها الذي فقدته مبكّرًا؟ أم أن هناك تلميحًا إلى علاقات جنسية؟

(٧)

ثم عرفت الإجابة على عدد آخر من الأسئلة التي حيّرتني. مثلًا كان أبوها يعمل في مهنة تسجيل العقود، وهي من المهن التي تحقّق لأصحابها دخلًا كبيرًا، بالإضافة طبعا إلى ما كان لديه من ميراث عائلي أبًا عن جدّ، في شكل مقتنيات عقارية من قصور وأرض زراعية.

إلّا أن هناك الكثير من الكلام الذي دار حول ملابسات وفاته، فهو في إحدى الليالي، كان يقف إلى جوار نافذة في أحد قصور أصدقائه، عندما مال بجسمه وسقط في الخندق المحيط بالقصر، الذي كان حسب

t.me/qurssan

عادات تلك القصور مملوءًا بالماء، كوسيلة دفاعية ضد هجمات متوقّعة من سرّاق أو أعداء أو منافسين، و منافسين، أولم يتمكن أحد من إنقاذه فمات غرقًا.

السؤال الذي كان قد أُثير في الصحافة الفرنسية في ذلك الوقت هو: (هل فقد الأب توازنه دون إرادته بسبب أنه كان مخمورًا، أم أنه ألقى بنفسه في الماء قصدًا بغرض الانتحار؟).

أدانت الآنسة ديانا أمّها فيما بعد، بصفتها المتسبّبة في وفاة الأب، وقد افترضت ديانا أن الموت كان انتحارًا، حتى يتخلّص الأب من حياته مع الأم. كان هذا الحادث هو الذي وضع النهاية التامة لأي علاقة محتملة بين البنت وأمّها، فغادرت الابنة إقليم بريتاني واستقرّت في باريس.

قالت إنها في باريس التقت بعدد من كبار الفنّانين والكتّاب، مثل الفرنسيّيْن كاربونتييه *Carpentier* وكوكتو *Cocteau*، وهما من كبار كتّاب فرنسا، والإنجليزي دوق ويستمنستر، وهو من العائلة الملكية في بريطانيا، والياباني فوجيتا، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الفنانين التشكيليين وشعراء الحداثة الفرنسيين، من أتباع الشاعر جيوم أبولينار *Apollinaire* ، الذين أُطْلِقَت عليهم ألقاب عديدة، مثل السيرياليين أو الداداديين. هذه القائمة من الأسماء الموجودة أعلاه، تبدو كما لو كانت لضيوف حفل ساهر، في فندق الليدو بقلب باريس، في بداية العشرينيات، أو كأنها مقال منشور في باب الاجتماعيات في جريدة الفيجارو.

t.me/qurssan

في باريس أحاطها أحد أبناء عمومتها برعايته التامة، بعد أن كان قد وقع في هواها. كانت لا تنقصه الأموال الطائلة، إذ كان يحقق مكاسب خرافية من تجارة الخمور، خاصة زجاجات الشمبانيا، التي يقوم بتصديرها من فرنسا إلى المستعمرات الفرنسية في أفريقيا. تكفّل ابن العم هذا بتقديمها إلى حياة الليل الباريسية، في علب الليل والمسارح والملاهي الليلية.

بسبب عاطفته الحادة العنيفة تجاه الآنسة، تورّط ابن العم في إنفاق مبالغ طائلة عليها، فكان يشتري لها الملابس على أحدث الموضات، من أكبر محلات بيوت الأزياء الباريسية مثل شانيل، ويذهب بها إلى أشهر محلات المجوهرات في ميدان فاندوم وشارع دو لا بيه، لتضع حول جيدها وذراعيها العقود والأساور الذهبية. كما أنه كل يوم وكل ليلة كان يملأُ كيسها بالنقود، ويعطيها إيصالات بتحويلات نقدية على حسابها البنكي.

كانت تطاوعه في كل شيء، لكنها أقرّت بأنها لم تكن تحبّه، بل إن الظروف انتهت بها إلى كراهيتها له، خاصة بعد أن تحوّل إلى مستبد، راغب في السيطرة التامة عليها، يريد حبسها في شقّتها، دون أن يسمح لها بالخروج إلا معه. كانت هذه التصرّفات طبعًا من جهته بدافع من الحبّ والغيرة، إلا أنها أدّت بها في النهاية إلى كراهيتها له، ورفضها التام لفكرة أي ارتباط به.

كانت مشكلة ابن العم هذا الولهان هي من بين مشاكل الآنسة في المرحلة الباريسية، التي هربت بسببها إلى أفريقيا، كيفية التخلّص من

t.me/qurssan

الولهان، الذي يلاحقها في كل مكان تذهب إليه، في حفلات الأوبرا وفي المقاهي والمطاعم وعلب الليل؟!

فبعد أن كانت قد قبلت منه الكثير من العطايا والهدايا المتنوّعة دون أدنى اكتراث بمشاعره نحوها، ودون أدنى إدراك لعواقب أفعالها، لم تقبل عرض الزواج منه، ولم تقبل إقامة علاقة معه دون زواج، أي أنها رغم كل ما أخذته منه لم تعطه أي شيء ولم تمكنّه من نفسها، هنا تحوّل ابن العم إلى الحيلة، بسبب رغبته العنيفة في الحصول عليها، فتمكن بالخداع من جعلها توقّع على أوراق تثبت أنها مديونة له بمبالغ مالية، على أمل أن تكون هذه الحيلة هي سبيله في الوصول إليها.

(٨)

عندما سألتها: "كيف ذهبتِ إلى أفريقيا؟"، حصلت من جديد على ردود مختلفة، وهذا دليل أكيد على أنها معتادة على الكذب، فعرفت أولًا أنها ليست في الثامنة عشرة من العمر، بل في الثانية والعشرين. ثم حكت لي الكثير من التفاصيل دون أن أسألها سؤالًا واحدًا.

قالت إن عمّها عندما أدرك حجم الأموال التي أنفقتها في عام واحد على المقامرة في سباقات الخيول، والمضاربة في البورصة، رتّب اجتماعًا للعائلة أنذرها فيه، بأنها عليها أن تختار:

١ - بين الحجر عليها، وعدم السماح لها بأن تسحب المزيد من أموالها في البنوك، بتهمة السفه في تبديد الأموال.

t.me/qurssan

٢- وبين أن تقبل أن تتزوّج من رجل السلك الدبلوماسي، الذي قابلته في سهرة في فندق ريتز بباريس، وتقدّم لأسرتها طالبًا يدها، ليصبح زوجها هو المتحكّم في ماليتها.

٣- وبين أن تغادر فرنسا حتى يتوقّف في الصحافة الفرنسية سيل الأخبار الفضائحية عنها وعن غرامياتها.

وقد اختارت الحلّ الثالث، بعد أن اخترعت لي قصّةً، فحواها أنها قد عثرت بين أوراق والدها بعد وفاته على مستندات تثبت ملكيّته لمنجم ذهب في موزمبيق في شرق أفريقيا الواقعة في ذلك الوقت تحت الاحتلال البريطاني، وكان هذا هو الهدف المعلن على الصحافة، عن السبب في رحلتها إلى هناك، رغم أنها بعد ذلك بأيّام قليلة أعلنت في الصحف أنها ذاهبة إلى شرق أفريقيا لهدف آخر، هو المشاركة في رحلات السفاري لصيد الحيوانات في كينيا وموزمبيق.

بالسفينة من البحر المتوسط إلى قناة السويس، ومنها إلى البحر الأحمر، وصولًا إلى المحيط الهندي. إلا أنها في موزمبيق اكتشفت أن المنجم المذكور في أوراق والدها، قد أصبح في وقت وصولها، يقع في منطقة متنازع عليها، بين إنجلترا وبين العصابات البرتغالية من قراصنة البحار الجنوبية، الذين أصبحوا قوّة عسكرية تهدّد الوجود البريطاني في بعض المواقع. لهذا السبب شعرت بالضياع، وبأنها لا ترغب في العودة من حيث جاءت، وقرّرت البقاء في أفريقيا، ولو كمغنية في علب الليل. وبالصدفة البحتة في هذا الظرف الصعب قد قابلتها وانتشلتها من هناك.

t.me/qurssan

(٩)

هل كانت هذه الفتاة تدرك أنني ذات يوم سوف أصبح كاتبًا، ولهذا كانت تضيف المزيد من التفاصيل إلى نصّي القادم في مستقبل غامض كان لا يزال مجهولًا، النصّ الذي من المؤكّد أنني كنت سأكتبه عنها؟

كانت تمرّ بي لحظات اعتقدت فيها أنه كان يمكنني أن أساعدها في دخول عالم السينما، لو أنني فقط كنت التقطت لها بعض المناظر، ضمن فيلمي التسجيلي، وهي واقفة إلى جوار فريق عمل الفيلم، ولو في بعض اللقطات العابرة، التي لن تُظْهِر طبعًا إن كانت لها قدرات تمثيلية حقيقية، لكنها كانت ستدعو مَن يشاهد الفيلم من بين الزملاء المخرجين إلى التساؤل: "مَن تكون هذه الشقراء الأوروبية الجميلة؟ وما الذي ذهب بها إلى أفريقيا؟ وماذا كنت تفعل معها يا بلاز يا خلبوص؟".

قالت إنها تدين لابن العم بمبلغ كبير من المال، ومن المؤكّد بمجرّد علمه بعودتها إلى فرنسا، إمّا أن يطالبها بكل مستحقّاته، وإما أن يطالبها بأن تقبل الزواج منه.

هنا تساءلتُ كيف أنه من الجائز أنها عندما قبلت دعوتي على أن تعود معي إلى فرنسا، على ظهر نفس السفينة، كانت تعتقد أنني بصفتي مخرجًا سينمائيًّا، قادرٌ ماليًّا على مساعدتها في الخروج من أزمتها؟ أو أنني قد أستضيفها في شقّتي الباريسية؟ أو أنني قد ألعب دور رفيق سهراتها الجديد؟ أو دور شريك حياتها الجديد؟

t.me/qurssan

كم قابلت من نجمات سينمائيات كنّ ملكات جمال، لم أفكّر أبدًا في الزواج بواحدة منهنّ، فمثل هذا الزواج يحوّل حياة الرجل إلى جحيم، بسبب الشكّ الدائم في سلوك الزوجة، وبسبب الإحساس المستمر بالغيرة من الممثلين شركائها في الأفلام، ومن المعجبين الذين يلاحقونها.

لم تكن ديانا نموذجًا للجمال الصارخ، بل كانت نموذجًا للأنوثة. كانت أقرب إلى قصر القامة، إذ لا تتعدّى قامتها ١٦٠ سنتيمترًا، كما أن حجم ثدييها كان صغيرًا، إلا أنها كانت ذات جسد يشعّ أنوثة في كل مواضعه، فهي تجيد إبراز مفاتنها الأنثوية، بأسلوبها في ارتداء ملابسها، وبطريقتها في استعمال مستحضرات التجميل، وفي النظرات التي توجّهها إلى الرجال، والكلمات التي تستعملها عند مخاطبتهم. أين تعلّمت كل هذا؟ في المدرسة الثانوية الداخلية في إنجلترا؟

يقول ويلي ويستمور -وهو مكتشف نجمات هوليوود، الذي يعمل مع شركة باراماونت للإنتاج السينمائي، والأب الروحي لما نسمّيه (الجاذبية الجنسية *sex appeal*)- إن النموذج الأول لكل نجمات أفلامه، يوضّح ماهيّة القواعد العامة للاختيارات، التي تحقّق أعلى جاذبية جنسية في أمريكا، فيما يتعلّق بملامح الوجه، وشكل القوام ومقاييس الجسم".

ويقول: "إن خطّ منابت الشعر أعلى الجبهة، يتكون من انحنائين خفيفين، على شكل خطّين مقوّسين إلى أعلى تقويسًا خفيفًا، يلتقيان عند منتصف الجبهة، في خطّ أفقي قصير، بما يصنع من هذا الخط العلوي،

t.me/qurssan

بالإضافة إلى خطوط جانبي الوجه، الذي يميل عادة إلى النحافة، شكلًا أقرب شبها بالرسم التقليدي، لشكل القلب في رسوم الكاريكاتير".

ويقول: "ثم هناك كذلك كتلة الشَّعر الكثيفة، ذات اللون الكستنائي الفاتح، الذي يضيء الوجه كله، كما لو أن هذا الوجه الدقيق الملامح، كان محاطًا بهالة من الضوء، مع ملاحظة أن هذا الوجه الرقيق يتمكّن رغم هذه الرقّة، من أن يعطي انطباعًا عامًّا سريعًا، بأن صاحبته ذات سلطة قويّة، قادرة على إعطاء الأوامر، بل قادرة على التلذّذ بتعذيب الآخرين بسادية واضحة، خاصة لو نظرنا إلى مناطق الفمّ والحاجبين وخطّ منابت الشَّعر".

وأنا أقول: "بالإضافة إلى كل هذا، فلديها أجمل وأوسع عينين زرقاوين رأيتهما في حياتي، وهما عينان يعطيان الانطباع الدائم، بأن صاحبتهما غير راضية، وأنها لا يمكن إشباعها بسهولة. إن نظرات هاتين العينين وحدهما، قادرة على إثارة أي رجل. إنه المَظْهَر الملائكي والمَخْبَر الشيطاني. هذا هو ما يرهق الرجال".

(١٠)

عند عودة مساعدي جيكي من مقر شركة أميريكان إكسبريس، أدركت على الفور من ملامح وجهه أن شيئًا ما قد حدث. ثم مع مرور الدقائق دون أن ينطق بكلمة واحدة، أدركت أن المسألة التي يحاول إخفاءها كبيرة. فلو أن المصيبة تتعلّق بمسألة فنيّة تخصّ تحميض وطبع فيلم (الأفيال)، لذكرها لي على الفور، فهو من أكثر مساعدي الإخراج

t.me/qurssan

إخلاصًا وإتقانًا لعملهم، لكن كل البشر يرتكبون أخطاءً، وهذا الوجه الذي يضعه الآن أمامي، يعني أنه ارتكب أحد الأخطاء الكبيرة، فأنا أعرفه جيدًا جدًّا.

خلال فترة صداقة قوية بيننا، دامت لأكثر من عشرة أعوام، وعمل مشترك في ما لا يقل عن عشرين فيلمًا، كانت كل أخطائه تقريبًا تتعلّق بالنساء؛ لأن مشكلته الحقيقية هي أن أيّ امرأة كانت قادرة على إثارته جنسيًّا، مهما كانت إمكانيّاتها متواضعة في مسائل الجمال والأنوثة، وبالتالي كانت أيّ امرأة قادرة على أن توقعه في حبائلها، لتطلب منه مبالغ مالية، أو أن يعرض هو عليها المال عن طيب خاطر دون أن تطلبه هي.

خلال عملنا معًا في السينما، عرفت أنه كانت له علاقات متعدّدة مع ممثلات الأدوار الصغيرة، اللائي يطمحن دائمًا إلى الحصول على الأدوار الكبيرة، عن طريق إقامة علاقات مع المخرجين أو مع مساعدي المخرجين. بل عرفت أنه كانت له علاقات مع فتيات بيوت الدعارة الرسمية في مونبارناس ومونمارتر، اللائي كان يحضرهنّ معه أحيانًا إلى استوديوهات التصوير السينمائي؛ لأنهنّ كذلك كنّ يطمحن إلى لعب أدوار في الأفلام السينمائية.

كل قصصه النسائية انتهت بخدعة ما، أو بالتحايل عليه لسرقة مبالغ مالية منه مهما كانت قليلة. وقد لاحظت أنه في بداية صداقتنا، لم يكن يخفي عنّي في كل مرة شيئًا من التفاصيل، لكنه كان من المؤكّد مرّة بعد مرّة يحسّ بالعار، وبالتالي تعلّم بالتدريج التكتّم والمكر. لكني حتى هذه اللحظة التي جلس فيها أمامي في مطعم الميناء بمارسيليا، كنت

t.me/qurssan

أعتقد أن الوجوم الذي على وجهه، ليست له صلة بعلاقة نسائية.

كان جيكي هو أحد النماذج الدالة على إمكانية أن تكون صاحب ذكاء نوعي، أي أن تكون ناجحا في مهنتك، ذكيًّا في المسائل الفنية، لكنك تكون غبيًّا في العلاقات الإنسانية، فاشلًا في أمور الحياة. ثم أنا أعلم أن هذه المشكلة الواقع فيها حاليًا، لا تتعلّق بالاحتياج إلى المال لتسديد ديون، فهو قد حصل مؤخّرًا من عمله معي في أفريقيا على مبلغ مالي كبير، سيغنيه عن الحاجة ولو إلى حين. ثم إنه ليس من الطبيعي أن يقع في مشكلة جديدة، صباح عودته إلى فرنسا، بعد أن كان قد غاب عنها ستّة أشهر، لا بدّ أنها مشكلة قديمة عادت إلى الظهور.

سألته: "هل حجزت أمكنة في قطار عربات النوم إلى باريس هذا المساء؟".

قال: "نعم يا ريّس، حجزت مكانين منفصلين، وهما المكانان الأخيران المتاحان في قطار هذه الليلة، فكل الأمكنة الأخرى محجوزة".

رغم الصداقة التي بيننا، إلا أنني لم أتمكن أبدًا من منعه من استعمال لقب (يا ريّس) عند حديثه معي.

ليس هذا هو المهم، بل المهم هو ما حدث أسفل المائدة التي نجلس حولها، إذ لاحظت أنه عندما قال: "مكانين"، أن وجّهت ديانا بقدمها ركلة إلى قدم جيكي. هنا فقط تمكنت من إدراك حقيقة ما يحدث، فهما يخطّطان أن يذهبا سويًّا إلى باريس، وقد أرادت ديانا أن يخفيا عنّي هذه الحقيقة، التي أفلتت لسان جيكي بها دون أن يقصد، فهو أحيانا يكون غائب الذهن بهذه الطريقة.

هذه هي الحياة دائمًا؛ فهناك الرابحون وهناك الخاسرون، فإذا لم تكن ديانا قد اختارتني، فأنا لذلك أعتبر نفسي من الرابحين، أو بالأحرى من الناجين، فإذا كان هناك في هذه القصّة، شخص ضاحك وآخر مضحوك عليه، فأنا أعتبر نفسي الشخص الضاحك. على ما يبدو كانت ديانا قد أدركت أنني شاهدت ركلة القدم تحت المائدة، وعلى الفور ازدادت ملامح تصرّفاتها الأنثوية، مثلما تفعل أي أنثى في عالم الحيوان، عندما تجد نفسها بين ذكرين متنافسين عليها، أو حتى غير متنافسين، فيزداد إحساسها بأنوثتها.

لقد حكيت لكم كثيرًا عن ديانا، ولكني لم أحكِ لكم أي شيء عن جيكي. هو ابن فلاّح يزرع الأرض، في منطقة ما من ضواحي مدينة (ريمس *Reims*) في شرق فرنسا، إلا أنه استطاع أن يتخلّص من الكثير من بساطة وسذاجة الحياة الريفية، لطول إقامته في باريس، ولعمله في مجال الإخراج السينمائي، ولحصوله على دخل فوق المتوسّط بالنسبة لمستويات الدخول في تلك الفترة الزاهرة من تاريخ فرنسا فيما بين الحربين العالميتين.

بالمناسبة فإن جيكي ليس هو اسمه الحقيقي، بل هو لقب حصل عليه بعد معركة، حدثت أمام عيني في أحد استوديوهات السينما بباريس، إذ كان على علاقة براقصة إسبانية، تقدّم فقرتها في أحد الملاهي الليلية، عندما خلبت لبّه راقصة أخرى في ملهى آخر، فترك

t.me/qurssan

الإسبانية دون كلمة وداع واحدة، واتجه إلى قضاء السهرة مع الأخرى، فجاءت الإسبانية صباح اليوم التالي إلى الاستوديو، إلى مكان عمله، بنيّة الانتقام منه، وأخرجت من حقيبتها زجاجة، كانت بها مادة كاوية، كسرتها على رأسه، إلا أنه لم يصب بتشويه كبير، باستثناء أن خصلة من شعر الجبهة فقدت لونها الطبيعي، وأصبحت بيضاء تمامًا، بالإضافة إلى ندبة لم تمحها السنون، من أثر تحطيم الزجاجة على جبهته. كان جيكي هو اسم الراقصة الإسبانية الذي أصبح يلقّب به منذ تلك الواقعة.

إلا أن أكثر ما كان يلفت انتباهي فيه هو طريقة ارتدائه لملابسه، التي كانت تذكّرني دائمًا بقرد صغير، كنت قد اقتنيته لفترة أثناء إقامتي في البرازيل، كان قد اعتاد على خطف الملابس من الناس، ووضعها على جسمه كيفما اتفق. الشيء العجيب في هذا القرد، هو أنه كانت له خصلة شعر أمامية بيضاء، تقريبًا في نفس موضع خصلة الشَّعر البيضاء في رأس جيكي.

كان هذا القرد كثير الحركة بأطراف جسمه الأربعة، مما كان يدلّ على حجم الطاقة الحركية المختزنة داخل جسمه، كثير الإيحاءات بملامح وجهه مما كان يدلّ على ما لديه من ذكاء. كما أنه كان كثير الوقوف منتصب القامة على طرفيه الخلفيين، كما لو أنه كان يطمح إلى عبور الفجوة بينه وبين الإنسان الواقف أمامه على طرفيه الخلفيين، لكنه عند رغبته في مغادرة المكان بسرعة، كان يعود إلى طبيعته القردية، في استعمال الأطراف الأربعة في المشي، ثم التشقلب في الهواء عدّة مرات، كما لو أنه يقدّم فقرة استعراضية في السيرك، ويرغب في إرضاء

t.me/qurssan

جمهوره، أو أنه يحاول أن يقول للآدميين: إن هناك مزايا لكوني قردًا، لا تتوفّر للآدميين.

على أنني أتذكر كذلك أن أعجب ما حدث من هذا القرد، هو أنه عندما شاهد امرأة برازيلية من مواطني البرازيل سود البشرة القادمين من أفريقيا ترضع طفلها بثديها، وقد عرّت الجزء العلوي من هذا الصدر بحيث بان ثدياها الاثنان، على عادة أغلب النساء من شعوب أفريقيا السوداء، قفز على الفور إلى حجرها، وأراد أن يحصل لنفسه على الثدي الحرّ، كما لو أنه طفل بشري، يرغب في الحصول لنفسه على قدر من هذا الغذاء البشري، أو من هذا الحنان البشري.

كانت تجارة العبيد السود في أمريكا الجنوبية، قد عرفت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر باسم التجارة الثلاثية، بسبب أنها كانت تربط بين ثلاث قارات، وتتمّ على ثلاث خطوات: ١- تجلب البشر السود من أفريقيا. ٢- في سفن أوروبية. ٣- ليباعوا في أسواق العبيد في أمريكا والبرازيل. وقد استمرّت هذه التجارة رائجة لمدّة ثلاثة قرون.

كان ذوق جيكي في الثياب دالًا على أصوله الريفية المتواضعة، أو على أنه مُحْدَث ثراء، من أولئك الذين يشترون أغلى الثياب الجلدية وأكثرها لمعانًا، من سترات وسراويل وأحذية برقاب طويلة، مع أكثر قبّعات الرأس والقمصان وأربطة العنق غرابة، بسبب عدم انسجام ألوانها. كان يفعل كل هذا لسبب واحد فقط لا غير، هو أن يدرك من حوله أنه يرتدي ثيابًا جديدة. بالإضافة إلى أنه كان يضع حول معصميه،

أكبر عدد ممكن من الأساور المعدنية، على غرار ما كان يفعله قطّاع الطرق ورجال المافيا، الذين كنا نراهم بكثرة في ذلك الوقت في السينما الأمريكية.

(١٢)

في حوالي الثالثة مساءً، أشرت إلى ديانا وجيكي بضرورة الذهاب على الفور إلى مكاتب جمارك ميناء مارسيليا، قبل أن تغلق أبوابها في الخامسة مساءً. قلت لهما: "اسألا عن مسيو جايار"، ثم قلت لديانا: "لا تنسَيْ ما قلته لكِ من أنه محترف إغواء نساء". وهكذا أوقفا سيّارة أجرة وركباها، واختفيا عن ناظري. قلت لنفسي لقد آن الأوان، أن ألغيهما تمامًا من حساباتي، ويكفيهما ما حصلا عليه حتى الآن من اهتمامي ورعايتي. كنت أكبر في السن من جيكي بعشر سنوات، ومن ديانا بعشرين سنة.

ولأنني كنت أريد أن أعرف إن كانا سيسافران معًا أم لا، ففي موعد مغادرة قطار النوم من مارسيليا إلى باريس، ذهبت إلى محطّة قطارات سان شارل، حيث وقفت قليلًا على الرصيف الخاص بقطارهما، وهو قطار النوم الوحيد في كل ليلة، وبالتالي لا يمكن أن أخطئ الرصيف الخاص به.

عندما لم أجدهما قد حضرا، صعدت إلى القطار وبحثت عنهما في المقصورة، التي من المفروض أن يكونا قد حجزاها، وفقًا للرقم الذي ذكره جيكي في المطعم بعد الظهر، لكنني لم أجدهما. عند مغادرة المحطّة ذهبت إلى الفندق، الذي من المفروض أن لديانا حجرة

t.me/qurssan

محجوزة باسمها فيه، إلا أنني لم أجدها هناك! أين ذهبت؟ بل أين ذهبا؟

عندما عدت إلى الفندق وذهبت إلى الفراش، تذكّرت صديقي الذي كانت لديه ٣٦٥ صديقة وعشيقة، بعدد أيام السنة، وكان يتفاخر علنًا بذلك أمام بحّارة السفن. من المعروف أن الكنيسة الأوروبية تحتفل كل يوم بذكرى أحد القدّيسين أو إحدى القدّيسات، فكان صديقي يقول إنه عرف عشيقات، يحملن كل أسماء القدّيسات الموجودات في تقويم الكنيسة، مثل كاترين وكلير، بل يحملن أسماء كل شخصيّات التوراة المقدّسة مثل سارة وراشيل، وكذلك أسماء آلهات الأساطير الإغريقية مثل إيلينا وأوليمبيا.

أمّا أنا، فتكفيني قائمة حروف الهجاء الستة والعشرين، لتغطّي أسماء كل العشيقات اللائي عرفتهنّ، وإن كانت بينهنّ مَن تحمل اسما يهوديًا توراتيًا، فالفتاة اليهودية التي تُدعى إستر، كانت هي النموذج الوحيد لديّ في قائمتي، لاسم عشيقة موجود في التوراة. إلّا أن هذه القائمة القصيرة لا تتضمّن أسماء القائمة الطويلة لكل الفتيات اللائي عرفتهنّ لليلة واحدة في علب الليل في أغلب موانئ العالم، أو من بين نجمات الصفّ الثاني في الأفلام السينمائية، فالقائمة الطويلة هي مجرّد مغامرات سريعة طائشة، لا أتذكر في الحقيقة أسماء صاحباتها؛ لأنها لم تترك أثرًا باقيًا في ذاكرتي.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل السابع

رحلة بالسيّارة

(١)

الطرق التي تصل بين المدن الكبرى في فرنسا تُسمّى الطرق القومية *National*، وتلقّب اختصارًا بالحرف الأول من اسمها أي بحرف *N*، ويبدأ الطريق القومي الذي يحمل رقم *N10*، من الساحة المواجهة لكنيسة النوتردام في قلب باريس، ليمرّ بعد عشرين كيلو مترًا، بالبيت الذي كنت أسكن فيه في ذلك الوقت، بين وادي نهر السين ووادي نهر الواز *Oise*، في شمال باريس، ثم ينتهي هذا الطريق عند أحد موانئ شمال فرنسا. هذا هو الطريق الذي سرت فيه بسيّارتي، وعندما وصلت إلى رصيف الميناء، بقيت في سيّارتي لم أغادرها، وصعدت إلى سطح السفينة، وأنا لا أزال جالسًا في سيّارتي.

كانت هذه السفينة متجهة إلى ريو دي جانيرو بالبرازيل، ورغم أنه كانت لي قُمْرة عليها؛ لأني هذه المرّة كنت أسافر عليها، لا كأحد البحّارة بل كأحد الزبائن، إلا أنني كنت أفضّل عند الكتابة أن أترك

t.me/qurssan

القمرة التي كان الآخرون يأتون طول النهار لطرق بابها، وأن ألجأ إلى سيّارتي للجلوس فيها، حتى أوفّر لنفسي الساعتين المخصّصتين للكتابة كل يوم، حيث كنت أجد في السيّارة الهدوء اللازم للكتابة، الذي كنت أفتقده في كل الأماكن الأخرى على السفينة، ولم يكن أحد يجرؤ حال وجودي في السيّارة على مقاطعتي.

(٢)

عندما أحطّ الرحال في مدينة جديدة، أو أعود بعد غيبة طويلة إلى مدينة أعرفها، كانت لديّ عادة لم أنقطع عنها حتى آخر زيارة لآخر مدينة، وهي الذهاب في يومي الأول هناك إلى محلات التصوير الفوتوغرافي، لأطالع في الفتارين الزجاجية كل أنواع الصور المعروضة فيها، وأظل أذهب وأجيء أمام الفتارين أتأمّل الوجوه، وأقارن بين أشكال الناس:

١ - صور الأطفال حديثي الولادة في لفائفهم القماشية، أو عراة على الأرض فوق جلود الحيوانات مثل فرو الخراف.

٢- صور الشباب من الجنسين بابتسامات عريضة وباقات زهور، في احتفالهم بالخطوبة والزواج. أغلب الزيجات تنتهي بالطلاق، رغم أننا في بلد كاثوليكي.

٣- صور الشباب من الذكور بالأزياء العسكرية في بداية خدمتهم العسكرية. أغلب هؤلاء الشباب سيموتون على أرض معارك وهمية لم يكن هناك أيّ داعٍ لخوضها.

t.me/qurssan

٤- صور الجدود والجدّات وقد أُضيفت إليها الرتوش لتخفيف مظاهر الشيخوخة عنها.

٥- تكون أكثر الصور عددًا هي صور الأوراق الرسمية والبطاقات الشخصية، التي يبدو فيها جميع الرجال كما لو كانوا من المجرمين المطلوبين للعدالة.

٦- إلّا أنه من العادة أن تشغل المكان المركزي من الفاترينة صور جميلات المدينة، ولأن التصوير بالألوان لم يكن قد اخترع بعد، قام أصحاب المحلات بتلوين الفتيات، بالأصفر للشَّعر، وبالأخضر أو بالأزرق للعينين، وبلون وردي للبشرة. هذه هي الصور التي توضع في أفضل الإطارات الخشبية، حتى تكون أول ما تقع عليها أعين المارة.

(٢)

ثاني شيء أفعله في المدينة هو الذهاب إلى أكبر مكتبات بيع الكتب فيها، وألاحظ موضع الكتب الأكثر مبيعًا، لأدرك نوعية اهتمامات مَن يمكن أن أدعوهم مثقّفي المدينة. لا أجد في الفتارين أي أثر لأي كاتب معروف سواء في أوروبا أو في أمريكا اللاتينية، فالمكان المخصص للكتب في الفتارين، والمكان المخصّص للكتب الأكثر مبيعًا، ليسا بهما إلا كتب لمؤلّفين محليين، غير معروفين على الإطلاق في أي مكان خارج البرازيل، ويجوز حتى أنهم غير معروفين خارج ريو.

t.me/qurssan

الكتب الملفتة لانتباه الزائر العابر هي بالترتيب:

١- كتب المغامرات الروكامبولسك *rocambolesque* أي الخيالية الوهمية، التي لا يمكن تصديقها، لأن أبطالها يأتون أفعالًا خارقةً للطبيعة.

٢- روايات الغرام الملتهب التي غالبًا ما تنتهي بنهايات ميلو درامية عنيفة، كأنها التوابل التي يأكلون بها خبزهم اليومي.

٣- كما يحدث في أغلب البلدان المتخلّفة، يقيم الناس وزنًا كبيرًا للأحلام، لذلك تشغل كتب تفسير الأحلام مكانة هامة، وهي ليست للمؤلّف المعروف سيجموند فرويد، بل إن كل مؤلّفيها مجهولون.

٤- مؤلفات خفيفة الوزن بها خرائط مطوية، مثلًا للطريق الذي ينبغي على الزائر الأجنبي أن يسلكه، بين محطّة قطارات المدينة ومبنى عموديّتها، أو الشوارع التي تقع بها أهم أسواق المدينة.

ملحوظة: من الغريب ملاحظة أن أغلب الباعة الجائلين، خلال عشرينيات القرن العشرين، هم من السوريين المسيحيين المهاجرين حديثًا إلى البرازيل.

(٤)

أما الكتاب الذي اشتريته في ذلك اليوم، فهو أكثر الكتب مبيعًا في ذلك العام، في جميع مكتبات العاصمة البرازيلية، وهو عن كل الظواهر الخارقة للطبيعة التي تنتشر في البرازيل، كما تنتشر غالبًا في العديد من بلدان العالم، فالبرازيليون يعتقدون:

t.me/qurssan

١- أن الأشباح تسكن في مباني ريو دي جانيرو المهجورة، التي يذكر المؤلف عناوينها، ويحدّد الأوقات التي تخرج فيها هذه الأشباح من المباني، وتمشي في الشوارع المحيطة، حيث إن الأشباح -يقول الكتاب- عندما ترى اهتمام الناس بها، تظهر لهم في صورة بشرية حتى يمكنهم رؤيتها.

٢- بالإضافة إلى الأشباح هناك الحيوانات، التي تسير ليلًا في شوارع المدن لكن دون رؤوس، ومن بينها حيوانات غير معروفة للبشر، تأتي من كواكب أخرى!

٣- وهناك الغيلان الذئبية، التي من الصعب وصفها، ويعتقد مؤلف الكتاب أنهم من السحرة، الذين يتجوّلون ليلًا وهم يرتدون ملابس مهلهلة، ويضعون فوق رؤوسهم رؤوس ذئاب.

٤- يضع الكتاب قائمة بأسماء وعناوين عدد من السحرة والساحرات، بالإضافة إلى ذكر تخصّص كل منهم، حتى يتمكّن القارئ من الاستدلال عليهم في حالة الاحتياج إلى خدماتهم.

٥- هناك وصفات سحرية مبسّطة، لمَن أراد من القرّاء أن يمارس السحر بمعرفته. فهناك مثلًا وصفة استرداد الحبيبة، بذكر عدد من الكلمات التي تبدو بلا معنى.

٦- هناك قصص عن الحوريّات الجميلات والجنّيات اللائي يخطفن الرجال، وقصص أخرى عن الفتيات اللائي متن عذراوات، يقول المؤلّف إنهنّ يخرجن من مقابرهنّ ليلًا بحثًا عن الرجال.

t.me/qurssan

٧- أعجب فصل في الكتاب هو بعنوان (كيف يمكن للمدينيين خداع أهل الريف السذّج؟)، وبه وصفات لأفضل عمليّات النصب التي نجحت سابقًا في خداع الريفيين وسرقة أموالهم.

بفضل قراءتي لهذا الكتاب تمكنت من فهم العقلية البرازيلية، وبالتالي تمكنت من عقد صفقات تجارية ناجحة مع البرازيليين خلال السنوات اللاحقة. إن أفضل طريقة تقنع بها الشخص الذي أمامك بعقد صفقات معك، هي أن تفهم كل ما يقوله لك دون أن تحتاج إلى مترجم، وأن تضحك من قلبك على النكتة التي تضحكه.

(٥)

استعملت سيّارتي الرياضية الإيطالية الحديثة (الألفا روميو) في تنقّلاتي أثناء إقامتي في ريو دي جانيرو، ثم قرّرت في لحظة جنون عابر أن أذهب بالسيّارة إلى أسّونسيون *Ascuncion* عاصمة الباراجواي التي تبعد عن الريو بمسافة لا تقلّ عن ١٥٠٠ كيلو متر. فرغم أنني كنت أعرف مقدّمًا أن هذا الطريق البرّي لم يكن قد اكتمل العمل فيه بعد، إلا أن جنون الاكتشاف هو الذي دفعني إلى اتخاذ هذا القرار. أنا أؤمن بالمثل القائل: (حتى تتعلّم السباحة، ألْقِ بنفسك في مياه المحيط).

كان يمكنني ترك سيّارتي في الريو، وعمل رحلة الذهاب إلى أسّونسيون والعودة منها بالطائرة، لكني كنت كالمعتاد في حياتي أحاول أن أعتمد على حسن الحظّ، الذي كثيرا ما لازمني، في مواقف وملابسات أكثر صعوبة بمراحل. لكن في الحقيقة كان الهدف من محاولة ذهابي

t.me/qurssan

بالسيّارة إلى عاصمة الباراجواي، هو أن أصِل بهذه الصورة التي تدلّ على الثراء والنجاح في الحياة، عائدًا إلى منزل حبيبتي دايداميا *Daidamia*، التي لم أرها منذ سبع سنوات، وكنا قد تواعدنا على أن يُخلص كلٌ منا للآخر، رغم الاتفاق بيننا على عدم تبادل الرسائل.

هكذا خرجت بالسيّارة من الريو، وسلكت الطريق المتجّه غربًا، وهدفي هو الوصول إلى حدود الباراجواي، مقتنعًا أنه يمكنني أن أقطع المسافة بين المدينتين في يومين، بواقع ٧٥٠ كيلو مترًا في اليوم، وهو ما يُساوي سبع ساعات قيادة السيّارة بسرعة ١٠٠ كيلو متر في الساعة، وهذه السيّارة الرياضية الإيطالية الحديثة قادرة على ذلك. لكنني لم ألتفت إلى أن العقبات لن تكون من السيّارة، بل ستكون من الطريق.

(٦)

بعد حوالي ثلاث ساعات من القيادة على الطريق الأسفلتي، لم أشاهد خلالها أيّ سيّارة أخرى عليه، بالإضافة إلى مشاهدة عدد قليل من السكّان الأصليين، وبعض معسكرات الإقامة البدائية على جانبي الطريق، إلا أن هذه الملاحظات لم تجعلني أتردّد في القرار الذي اتخذته. إلى أن فُوجئت بوجود مستنقع هائل الحجم يعترض الطريق، فنزلت بالسيّارة إلى الرمال رغم صعوبة القيادة فيها، محاولًا الالتفاف حول المستنقع، لاستئناف القيادة على الطريق الأسفلتي، إلّا أن المستنقع بدا لي كما لو كان بلا نهاية.

t.me/qurssan

عدت إلى المكان الذي كنت قد تركت فيه الطريق الأسفلتي إلى الرمال، وكانت الشمس تشارف على المغيب، فقرّرت المبيت في سيّارتي، وقضاء الليلة هنا في هذا المكان، الذي لا يمكن فيه رؤية أي دليل، على وجود أدنى قدر من العمران.

يبدو لي الآن أنني كنت قد أصبحت أكثر ميلًا إلى العودة من حيث جئت. رغم ذلك أراد القدر معاقبتي على حماقتي، فأرسل إليّ أكبر عدد شاهدته في حياتي من البعوض، الذي كانت البعوضة منه في حجم الذبابة. أعتقد أنني في تلك الليلة، فقدت لترًا من دمائي على الأقل، التي امتصّها منّي هذا البعوض، وامتلأ جسمي كله بالبقع الحمراء.

لم أعرف أبدًا كيف تمكّن هذا البعوض من التسلّل إلى داخل السيّارة، رغم أنني أغلقت تمامًا أبوابها ونوافذها، وأحكمت تغطية جسمي بما كان معي من ملابس، إلا أن البعوض نفذ من خلال كل ذلك ووصل إلى بغيته. المفاجأة المؤلمة هي أن البعوض قرصني في جفنَي العينين، حتى تورّما تمامًا وأغلقا فتحتَي العينين، حتى إنني صباح اليوم التالي وجدت صعوبة شديدة في فتح العينين، وهو ما يلزم لقيادة السيّارة.

مع أول شعاع شمس استأنفت القيادة في طريق العودة إلى الريو، لأدرك هذه المرّة كيف أن الصحراء التي حولي قاحلة تمامًا، عبارة عن محيط هائل من الرمال، ليس بها إلا أعشاب بريّة عشوائية، ثم بعض الجزر القليلة الاتساع من النخيل، الذي ينمو بسهولة في مثل هذه المناطق الاستوائية. لم أجد الحماس الكافي لتسمية هذه الجزر

t.me/qurssan

واحات، فأنا أعرف واحات الصحراء الأفريقية، التي تنمو فيها نباتات كثيفة كثيرة مختلفة، إلا أن هذه الصحراء التي أمامي الآن، لا تنمو فيها إلا بعض أنواع النخيل.

(٧)

الشيء المدهش هو قطعان الخنازير البرّية التي كانت تظهر على جانبي الطريق، وتحاول اللحاق بالسيّارة. كانت قطعان كبيرة العدد، يتكوّن كلٌّ منها على الأقل من مائة خنزير، يجرون خلف السيّارة لبعض الوقت، ثم ييأسون ويتوقّفون. لم أعرف ماذا كانوا يريدون مني؟ هل هو حبّ الاستطلاع لأنهم لم يروا سيّارات مثلها طوال حياتهم؟ هل هي محاولة استكشاف هذا الجسم الغريب الكبير الحجم نسبيًّا؟ الذي يجري بسرعة تفوق سرعتهم؟ أم أنها ضوضاء صوت المحرّك التي أقضّت مضاجعهم؟ هل كانوا سيهاجمونني لو أنهم كانوا لحقوا بسيّارتي؟ هل عبوري الطريق أمام قريتهم اعتبروه اقتحامًا لعالمهم الخاص؟

لا أعرف حجم المفاجآت التي يُمكن أن تقابل الشخص الجسور الشجاع، الذي سيستطيع يومًا ما، عبور الصحراء الكبرى جنوب وادي نهر الأمازون، للذهاب بالسيّارة بين الريو وأسّونسيون. أو عبور الصحراوات الكبرى في أمريكا الشمالية، بين الساحل الأطلنطي شرقًا، والساحل الباسيفيكي غربًا. إن السيّارة لا تزال اختراعًا حديثًا، وثمنها لا يزال مرتفعًا بالنسبة للقدرة الشرائية لأغلب الغربيين، لذلك هي لم

t.me/qurssan

تنتشر بعد، إلا أنني أتوقّع أن تصبح ذات يوم الوسيلة الأولى لاكتشاف العالم.

لكن لا شك أن تراث الأدب العالمي يحتفظ لنا بنماذج جميلة عن محاولات اكتشاف العالم في قرون سابقة، باستخدام الدواب مثلًا في رحلة ماركوبولو إلى الصين في القرن الرابع عشر، وباستخدام السفن مثلًا في رحلة ماجلان إلى الهند في بداية القرن السادس عشر، وباستخدام القطار مثلما فعلت أنا سنة ١٩٠٣/ ١٩٠٤، في قصيدة أسميتها (عبر سيبيريا) *Trans Syberia*، وهي التي وصفت فيها رحلتي بالقطار من سويسرا، إلى أقصى الطرف الشرقي لروسيا في مدينة فلاديفوستوك، مرورًا بكامل الصحراء الشاسعة المتجمّدة في سيبيريا، وهو ما يبلغ إجماليه ٨٥٠٠ كيلو متر.

لحسن الحظ لدينا في الأدب الفرنسي الحديث رحلات بالطائرة الخفيفة، وصف فيها مؤلّفها أنطوان دو سانت إكزوبري رحلاته بالطائرة ذهابًا وإيابًا بين فرنسا وغرب أفريقيا وأمريكا الجنوبية، حين كان يعمل هو نفسه طيّارًا على خطوط نقل الرسائل والطرود البريدية بين هذه القارات الثلاث، وقد ظهرت روايته (طيران ليلي) سنة ١٩٣١، إلا أننا لسوء الحظّ فقدناه شابًّا، أثناء عمله كطيّار حربي في عمليات قتالية أثناء الحرب الثانية.

لم يكتب أحد بعد أي شيء عن رحلة بالسيّارة، إلا إذا اعتبرنا الكتاب الذي تنشره سنويًا شركة ميشلان *Michelin* الفرنسية لصناعة إطارات السيّارت كتابًا أدبيًا، لما فيه من وصف دقيق لشوارع المدن، بما فيها من معالم وآثار. أنا في الحقيقة أعتبره دليلًا سياحيًا جيّدًا، لمن

t.me/qurssan

يستعمل سيّارته، في التنقّل بين المدن الأوروبية، التي أصدرت عنها هذه الشركة أدلّة سياحية.

(٨)

توقّفت لأتزوّد بالوقود. هنا قابلت مانولو.

١ - لم ألاحظ أنني تحدّثت إليه بالإسبانية، رغم أن اللغة الرسمية في البرازيل هي البرتغالية، فردّ عليّ بالإسبانية. ليفسّر لي ذلك فيما بعد قال إنه قادم من جزيرة كوبا.

٢ - لفت انتباهي لون بشرته الداكن السواد، وأنا لا أحب أن أوجّه سؤالًا مباشرًا بهذا الخصوص.

٣- يتحرّك مانولو وهو يستند إلى عكّاز؛ لأنه فقد ساقه اليسرى من أسفل الركبة. قال: "فقدتها في حرب تحرير كوبا من الاستعمار الأمريكي".

هو غالبًا يتحدّث عن الحرب التي اندلعت سنة ١٨٩٨، ودامت عشرة أسابيع، بين كوبا التي كانت لا تزال ضمن ممتلكات التاج الإسباني، والولايات المتحدة الأمريكية. كان القتال قد اندلع بسبب إغراق سفينة أمريكية في ميناء هافانا. بعد هذه الحرب القصيرة، حصلت كوبا على الاستقلال عن التاج الإسباني. قدّرت أن سنّ مانولو حوالي الخامسة والخمسين.

t.me/qurssan

٤ - الشيء الذي جعلني أستقر لديه لمدّة أسبوعين، هو اكتشافي لمئات التماثيل الصغيرة الحجم حوله في كل مكان، منحوتة كلها في جذوع أشجار الغابات الاستوائية القريبة، لذلك يسهل حصوله عليها، بعضها أسود اللون وبعضها أبيض اللون، إلا أن الأعجب هو وجود تماثيل بنفسجية اللون، منحوتة من جذوع أشجار بنفس اللون.

التماثيل التي لم ينتهِ بعد من نحتها، تناثرت خلف مضخّة الوقود في نصف دائرة، إلا أنه يمكنك بسهولة كذلك ملاحظة وجود مئات التماثيل التي انتهى من العمل فيها، تتناثر هي الأخرى فوق الأرض الواقعة خلف محطّة الوقود.

إن من أكثر ما يسعدني في الحياة هو اكتشاف هذا النوع من الفنّانين التلقائيين، الذين لا يبغون بممارسة فنّهم أن يحصلوا على أي مكاسب مالية. صحيح أن مانولو كان يبيع هذه التماثيل، ولكن بسعر لا يتجاوز ثمن علبة سجائر؛ إذ إنه كان يبيع فقط بغرض أن تفرغ مساحة الأرض حوله.

كان مانولو شديد الإيمان بالمسيحية، يقضي الجزء الأكبر من الليل في الصلاة، وكنت أسمعه يتحدّث إلى الله، يناقشه في كل ما جاء في الإنجيل، لذلك كانت أغلب موضوعاته النحتية تدور حول موضوعات دينية من الإنجيل.

كان الموضوع المتكرّر عشرات المرّات هو موضوع طريق الآلام، أي الطريق الذي يعتقد المسيحيون أن يسوع المسيح قد سلكه يوم صلبه، من المكان الذي وضعوا له فيه الصليب على كتفه، إلى المكان الذي صلبوه فيه.

وفقًا للمعتقدات المسيحية، يقال إن يسوع قد توقّف على هذا الطريق اثنتي عشرة مرّة، مثلًا ليطلب مرّة من سيّدة تقف على جانب الطريق أن تعطيه جرعة ماء، أو أن يأتي إليه سمعان القيرواني ليعرض عليه أن يحمل عنه الصليب، ولو لفترة وجيزة حتى يستريح قليلًا.

(٩)

اشتريت من مانولو مجموعة من تماثيله، وأجزلت له العطاء. من أين جاءني كل هذا الحبّ والتقدير للبسطاء الأبرياء المتواضعين؟ هل هو طبع ورثته عن أحد أسلافي؟ لو بحثت في أسلافي عن التأثير الذي تركه كلٌّ منهم على شخصيتي فيما يتعلّق بهذه المسألة، لوجدت الآتي:

١- كان أبي هو كذلك يهتمّ بالحديث مع البسطاء، ويتقبّل منهم كل ما يقولونه مهما كان ساذجًا، يتقبّله منهم لكنه لا يتفاعل معهم، إذ يظلّ بعيدًا عنهم متحفّظًا، ولا يختلط بهم.

٢- كانت أمي تترفّع عن الحديث مع البسطاء، وانطباعي عنها الآن أنها كانت طوال السنوات التي عشتها معها تشعر دائمًا بتعاسة عميقة، أعتقد الآن أنها بسبب العزلة التي فرضتها على نفسها. ليس لديّ أيّ تفسير آخر.

٣- كان جدّي لأمي ثريًّا، لديه العشرات من المرؤوسين، ويحبّ ممارسة سلطته على مرؤوسيه، ولا يترك لهم أيّ فرصة ليتحدّثوا فيها إليه، لذلك كانوا كلهم يخافونه، إلا أنني أحبّبته لأنني كنت حفيده المفضّل المدلّل.

t.me/qurssan

٤ - جدّي لأبي لم ألتقِ به أبدًا، ولا أعرف عنه إلا أقلّ القليل؛ لأن أبي كان لا يتحدّث معي عنه. لا أعرف عنه إلا أنه كان يعمل في زراعة العنب، وفي صناعة تحويل هذا العنب إلى نبيذ. لم أعرف مثلًا هل كان يمتلك مزرعة العنب التي يعمل فيها، أم أنه كان يستأجرها من مالكها؟ عندما كنت في العشرين من عمري، خطرت على بالي فكرة أن أذهب لزيارته، لكنه كان قد مات.

(١٠)

كل ما أستطيع أن أقوله الآن وقد تعدّيت الستّين، وسأضعه هنا في كلمات واضحة لا لبس فيها، هو أنني طوال حياتي:

كنت أكره الأغنياء، الذي يحاولون استعراض ثرواتهم أمام الآخرين، ويعتقدون أنهم بفضل ثرواتهم مميّزون عن غيرهم، وأبتعد عنهم فور وقوعهم في طريقي.

كنت أختار بكامل إرادتي الحياة مع الفقراء، الذين لم أكن أعطف عليهم، بل أستمتع بالحياة معهم؛ لأنهم أقرب من الأغنياء إلى الحياة الحقيقية، وأقرب من الأغنياء إلى الإحساس بالمشاعر الإنسانية.

وأفضّل من بين الفقراء أولئك الذين لا يشتكون أبدًا من فقرهم، بل يتقبّلون الفقر على أنه مصيرهم المكتوب لهم في ألواح القدر منذ قبل أن يولدوا.

أقول لكم إن هذه هي الفائدة الحقيقية للإيمان، الاعتقاد بأننا ليس

t.me/qurssan

في أيدينا أي شيء يمكننا أن نصنعه لتغيير مصائرنا، فهذا الاعتقاد مريح جدًّا نفسيًّا.

أنا أتحدّث هنا عن الذين وُلدوا فقراء، ولم يكونوا يومًا من الأثرياء، ثم حدث أن فقدوا ثرواتهم، فهؤلاء مُتعبون جدًّا، لا يكفّون عن الشكوى، وعن المطالبة باستعادة الحقوق التي يعتقدون أنها كانت لهم.

أما أبشع أنواع البشر الذين عرفتهم على الإطلاق، فهم المثقّفون المزيّفون الوصوليّون، خاصة في حال معاناتهم من البطالة، عندما لا يجدون ما يكتبونه، أو عندما يكتبون ولا يجدون مَن ينشر لهم كتاباتهم.

في مثل هذه الحالة يستعمل المثقّف المزيّف الوصولي كتاباته في الطرق على كل الأبواب، خاصة أبواب السياسيين وكبار رجال الأعمال، ويحاول أن يكتب كل ما يرضي هؤلاء الناس الذين يطرق أبوابهم، فالمزيّف يجيد صياغة العبارات، لعلّهم يفتحون له الأبواب، فيصيب منهم بعض المكاسب المالية.

أمّا المثقّف الحقيقي ففي مثل هذه الحالات يترفّع تمامًا عن الوصولية، أو عن محاولة الاستفادة المادية مما يكتب، ويقرّر أن يصمت، فهو يكتفي بتوصيل الرسالة الثقافية أو الاجتماعية أو النفسية التي تحملها كتاباته إلى الناس.

لذلك كنت دائمًا أقول إنه ينبغي أن يمارس الكاتب نشاطًا تجاريًّا أو مهنيًّا آخر إلى جوار الكتابة، حتى يستطيع أن يستغني عن العائد المادي لكتاباته.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثامن

روائح الكاريبي

(١)

عندما تبحر من جزر البحر الكاريبي باتجاه سواحل أمريكا الجنوبية، فتعبر خطّ الاستواء ثم مدار الجدي، يدور الحديث حول (أكواب اللبن الكريي يول *creole*)، كأن هذه الأجواء تستدعي هذا المشروب. كان غالبًا ما يصعد إلى ظهر السفينة بحّارة من هذه الجزر، يعملون معنا في الرحلة إلى ساوباولو ذهابًا وعودةً، ويكون من بين الشروط الهامة التي ينبغي أن تتوفّر فيهم قدرتهم على صناعة (أكواب اللبن الكريي يول).

يجب أن نعرف أولًا معنى الكلمة المستعملة هنا (كريي يول *creole*)، وهي كلمة من اللغات المحلّية لجزر البحر الكاريبي، للدلالة على كل ما هو كاريبي فرنسي مختلط.

كانت كلمة كري يول *creole*، تطلق في البداية على الأبناء من نساء كاريبيات سمراوات البشرة، ومن رجال أوروبيِّين بيض البشرة،

t.me/qurssan

غالبًا كانوا من المستعمرين الفرنسيين، لتمييزهم عن كلمة أخرى أوسع مضمونًا؛ إذ تشمل كل الذرّيّة التي تنتج عن اختلاط أجناس أوروبية بيضاء، بأمريكية جنوبية أو كاريبية سمراء، أو أفريقية سوداء، وهم الذين نسمّيهم حاليًا خلاسيين أو مخلّطين *metisses*.

٢- أصبحت هذه الكلمة (كريي يول) تطلق على أشياء عديدة، فيمكن مثلًا أن تقول (اللغة الكريي يول)، وهي مزيج من الفرنسية والكاريبية، وهي اللغة التي يستعملها سكّان هذه الجزر، الذين لم يتعلّموا الفرنسية في طفولتهم.

٣- كما يمكن أن تقول (المطبخ الكريي يول)، لكل الأطباق التي من أصول كاريبية لكن أُضيفت إليها اللمسة الفرنسية والذوق الفرنسي. بالقياس على ذلك هناك موسيقى كريول، ورقصات كريول، وأكواب اللبن الكريول.

٤- إذَنْ هذه الكلمة (كري يول) تعني باختصار شديد ثقافة ولغة وعادات البشر الذين عاشوا في مستعمرات جزر البحر الكاريبي الفرنسية، مثل جزر المارتينيك أو الأنتيل، التي يسمّونها في فرنسا مناطق أعالي البحار الفرنسية.

كان الوجود الفرنسي الاستعماري في منطقة جزر البحر الكاريبي قد بدأ على زمن الملكية الفرنسية، حتى إنه في زمن الملك لويس السادس عشر كانت فرنسا تحاول أن تنافس إنجلترا في امتلاك مستعمرات في كل مكان في العالم، ولهذا كانت تفرض سيطرتها على مساحات شاسعة من الأراضي في أمريكا الشمالية عرفت باسم لويزيانا *Louisiana*، وهو

t.me/qurssan

اسم مشتق من اسم الملك لويس (أو لويز)، ثم قرّرت حكومة جمهورية الثورة الفرنسية بعد سنة ١٧٨٩ أن تتخلّى عن السياسة الاستعمارية التي كانت من قبل لمملكة فرنسا، فباعت لويزيانا إلى جمهورية أمريكا الوليدة، الحاصلة على الاستقلال حديثًا من الاحتلال البريطاني.

(٢)

كانوا يقولون لنا في الكاريبي إن هذه الأكواب ذات تأثير مخدّر على الجسم البشري، إذ يشعر المرء بمجرّد تناولها بالتنميل في الأطراف، وأحيانًا يشعر بالدوار، لكن بعد ذلك بدقائق يبدأ العضو الجنسي في الانتصاب، لذلك يكثر بيع هذا المشروب في بارات وبيوت دعارة مدن الكاريبي. في الحقيقة أنه حتى مع انتصاب العضو، يظل الجسم مخدّرًا بشكل ما، وقد يستمر هذا الخدر ساعات طويلة.

لم أفهم أبدًا كيف يمكن تفسير هذا طبيًّا، إلا أن يكون تنميل الأطراف، الذي يلعب على تضييق الشرايين الطرفية، هو نفسه الذي يؤدّي إلى توسيع شرايين منطقة الحوض، وبالتالي زيادة كمية الدم الذاهب إلى العضو الجنسي، لكني في الحقيقة لا أعلم كيف تعمل هذه الخاصية هكذا بشكل اختياري *selective*.

المهم هو أنه بعد تجارب عديدة، اكتشفت أن هذا اللبن الكربول رغم الانتصاب، هو أفضل أسلوب يسمح لبحّارة السفن بتحمّل ارتفاع درجة حرارة الجو عند سواحل البرازيل، الدولة ذات السواحل الأطول على المحيط الأطلسي، وكذلك بتحمّل أشعّة الشمس القاتلة في

t.me/qurssan

المنطقة بين خطّ الاستواء ومدار الجدي.

السبب في ذلك هو أنه مع تضييق الشرايين الطرفية يقلّ مرور الدم في أطراف الجسم الأربعة، وبالتالي يقلّ تأثير درجات الحرارة المرتفعة خارج الجسم على أعضاء الجسم الداخلية، فمرور الدمّ في الشرايين الطرفية هو الذي ينقل السخونة أو البرودة إلى داخل الجسم. بالإضافة إلى تأثير هذا المشروب، كان هؤلاء الكاريبيون الأصليون أقدر منّا نحن الأوروبيين على تحمّل أشعّة الشمس، كما هي الحال عادة في أصحاب البشرات الداكنة.

ثم اكتشفتُ كذلك شيئًا آخر يساعد على فقد الإحساس بالزمن الطويل الذي يمرّ بطيئًا، وهو أفضل حلّ لعمل هذه الرحلة عبر السواحل الطويلة، أن تكون مخدّرًا.

إلّا أن رؤية البحّارة مخدّرين ورؤية كمّيات العرق التي كانت تبلّل ثيابهم مع بشرتهم السوداء، كان يجعلني دائمًا أفكّر -والحالة هكذا- في معصرة زيت الزيتون. فأنت تدخل الزيتون الأسود في المعصرة من ناحية، فيخرج الزيت من الناحية الأخرى، كما تدخل البحّارة السود المنطقة الاستوائية فيخرج العرق.

هذا المشروب كان خلطة غريبة من أوراق وعصير ثمار أشجار استوائية عديدة، أهمها السنط (الآكاسيا *acacia*) والميموزا، مع عصير نباتات الصبّار (كاكتوس *cactus*)، مع إضافة الفانيليا. لكني لم أعرف بالضبط أين هو العنصر المخدّر، ولا أين هو العنصر الذي يثير الشهوة الجنسية.

t.me/qurssan

أنا لم أعرف أبدًا ما سرّ هذه الخلطة، ولا الكميّات المحدّدة من كل عنصر من عناصرها، كأن أهل هذه الجزر قرّروا الاحتفاظ بالسرّ لأنفسهم، خاصة لو كان هذا السرّ هو حيلتهم الوحيدة، للحصول على عمل ولو موسمي على ظهر السفن.

(٢)

الأعجب في هذا المشروب هو أنه كان ذا رائحة عطريّة جميلة، إلّا أن أهل البلاد من كثرة اعتيادهم على الروائح الجميلة في غاباتهم، لم يكونوا قادرين على فهم السر في إعجابي بالرائحة. حتى بقيّة البحّارة من الأوروبيين، كانوا أحيانًا غير قادرين على الإحساس بالرائحة الجميلة لهذا المشروب.

لذلك كثيرًا ما تساءلت عن السر وراء الإيحاءات التي تنبعث في نفس الإنسان عندما يشمّ رائحة عطرية جميلة، وأتعجّب من أن أكون أحيانًا وحدي القادرَ على الحصول على هذا الإحساس. هل يرتبط هذا الإحساس بغدّة معيّنة، أو بمركز معيّن في المخ، يكون متطوّرًا عند البعض فيتمكن من الشمّ، وأقل تطوّرًا عند البعض الآخر، فلا يشمّ؟ أي أن هذه الحاسة مخلوقة مع بعض البشر، وأنه لا يمكن تنميتها لدى بعض البشر الآخرين.

ثم كيف يتمكن صانعو العطور المحترفون من الاستمرار هكذا في ابتكار روائح جديدة طول الوقت؟ مع ملاحظة أن كل عطر جديد تكون له شخصيّة مستقلّة، عن العطور السابقة عليه واللاحقة له، وهي

t.me/qurssan

الشخصية التي يُوحي بها كل ما هو متعلّق بهذا العطر، مثل لون الزجاجة الأحمر أو الأخضر أو الأزرق، وشكلها المستدير أو المستطيل أو المربّع، وحجمها، وطريقة كتابة اسم العطر عليها، وطبعًا قبل كل شيء الاسم نفسه.

أسئلة أخرى:

١- هل الإحساس بالروائح العطرية، هي مسألة يمكن أن تورّث بين الأباء والأبناء، في الكائنات الحيّة؟

٢- هل هذه الصفة الحسّية في سبيلها إلى التراجع لدى الجنس البشري، بسبب تلوّث أجواء المدن الحديثة بالغبار وبعوادم السيّارات وبمداخن المصانع، وهي الأجواء التي يعيش فيها الإنسان الحديث وتتلف حاسة الشمّ لديه؟

٣- هل هذا هو السبب، في أن هذه الصفة الحسّية، تظهر بوضوح أكثر لدى الشعوب البدائية، التي تعيش في بيئات نقيّة الهواء، عنها لدى الشعوب المتحضّرة؟

بعض علماء النفس والأمراض النفسية يجيبون بنعم على كل هذه التساؤلات. هم قد انشغلوا بدراسة تأثير الروائح الطيّبة والخبيثة على الجسم البشري، لسنوات طويلة مع غيرهم من الأطبّاء المتخصّصين في علوم وظائف الأعضاء، التي تدرس الغدد والإفرازات والحواس، والمتخصّصين في تشريح الجسم البشري، وفي الكيمياء الحيوية، وكذلك أطباء الطب الشرعي (الجنائي)، في محاولة للوصول إلى نتائج عامة، يمكن الاستفادة منها عمليًا في مجالات مختلفة، مثل مجال علم

t.me/qurssan

نفس الجريمة، ومجال الصناعات العطرية.

أما الدليل على أهمية الروائح في الحياة، خاصة في حياة الإنسان البدائي قبل الحضارة الحديثة، فهو الدليل الذي تقدّمه لنا ملاحظة حياة الحيوانات، التي لم تتأثر بالحضارة الحديثة، وهو أنه في مواسم التزاوج بين الحيوانات، تتجه الذكور أولًا نحو الإناث التي تصدر عنهنّ روائح، وتبتعد مؤقّتًا عن الإناث التي لا تصدر عنهنّ روائح، إذ تكون الروائح هي الإشارة الدالة على الاستعداد للتزاوج.

وكذلك حالة الحشرات الناقلة لحبوب اللقاح بين النباتات، التي تكون غالبًا قدراتها البصرية محدودة، لذلك هي تستدلّ على النباتات، التي تنتظر نقل حبوب اللقاح إليها، بالرائحة التي تصدر عنها.

كما أن الطيور في هجراتها السنوية بين أفريقيا وأوروبا، تستدلّ على الأماكن الجغرافية، بالروائح التي تفوح منها، فرائحة حقول القمح في جنوب فرنسا تختلف عن رائحة حقول البنجر في شمال إيطاليا، وهكذا تتجه الطيور القادمة من غرب أفريقيا إلى فرنسا، في حين تتجه الطيور القادمة من وسط أفريقيا إلى إيطاليا، للتقليل قدر الإمكان من مدّة الطيران، وفقًا للظروف البيئية المختلفة، التي تعيش فيها أنواع الطيور المختلفة في أفريقيا.

هذه هي كذلك حالة الأسماك، أثناء تنقلاتها بين الأماكن المختلفة في أعماق المحيطات، التي قد تصل أحيانًا إلى عمق خمسة أو ستة كيلو مترات تحت سطح الماء، حيث لا تصل أشعة الشمس، ويسود ظلام دامس نهارًا وليلًا، طوال شهور السنة.

t.me/qurssan

(٤)

ورغم أن ثقافة الإحساس بالروائح، التي أحبّ أن أسمّيها ثقافة تربية الأنف، هي في الأصل ثقافة شرقية، لارتباطها بالأجواء الحارة الرطبة، خاصة في الهند وإندونيسيا وجنوب شرق آسيا، إلا أن هناك ثقافة أنفية جديدة في العالم الغربي، على الأقل منذ القرن السادس عشر.

فعلى سبيل المثال كان البحّارة الكبار -من قادة السفن التجارية لأعالي البحار- قد طوّروا أسلوبًا يتمكنون به من تقدير الاتجاهات التي يمكن أن تقود سفنهم إلى الشواطئ، بالاستعانة بالروائح القادمة مع تيّارات الهواء من غابات تلك الشواطئ.

فقد سبق أن أشرتُ في كتابات أخرى لي إلى اطلاعي في بدايات شبابي -وبدايات عملي كبحّار في سفن أعالي البحار- على عدد من الدفاتر القديمة للسفن البرتغالية، التي كان كتبة السفن أو قادتها يسجّلون فيها يومًا بيومٍ، مذكّرات علمية مفصّلة عن كل ما يلاحظونه في رحلاتهم.

من بينها مذكّرات تتعلّق بما تستطيع الأنوف التقاطه من روائح الأماكن المختلفة، التي تمرّ بها أو تقترب منها السفن، وإمكان الاستدلال بها على الاتجاهات، خاصة في ذلك الوقت المبكّر من الرحلات الاستكشافية، عندما لم تكن تتوفّر لا الخرائط الدقيقة، ولا الأساليب العلمية الحديثة، التي تسمح حاليًا بالاستدلال بسهولة على الاتجاهات.

t.me/qurssan

وسأثبت لكم بالدليل المادي، كيف أن بعض قادة السفن البخارية الحاليين، يستمرّون في الاستعانة بثقافة الأنف، في الاستدلال على الاتجاهات، وأن بعض مؤلّفي الروايات الحديثة ونحن نقترب من منتصف القرن العشرين لا يزالون يشيرون إليها.

ففي رواية صدرت سنة ١٩٤٣ بعنوان (الإبحار في الاتجاه إلى آنتويرب)، للمؤلف (إدوار بيسون)، يمكننا أن نقرأ السطور التالية:

خرج القبطان من مقصورة القيادة، ومشى بعض خطوات على سطح السفينة يتأمّل السماء، ويستنشق الهواء بشهيق عميق، ثم قال لمساعده: "إن الرياح القادمة من اتجاه الشمال الغربي، تحمل رائحة طين شواطئ الأرض التي نقترب منها، إن الأرض ترسل رائحة زفيرها، التي تصل إلينا دافئة رطبة".

ثم أخرج منظاره المقرّب من جيب سترته، ليحاول أن يلمح في الأفق أي طيف دخّان قادم من مصنع أو من بيت، وهي من الإشارات الدالة على الاقتراب من الشواطئ.

(٥)

عندما كنت أعمل مخرجًا للأفلام السينمائية التسجيلية القصيرة، قمت ذات يوم بعمل فيلم بعنوان (كيف يتكوّن الجليد؟)، وكنت لذلك قد أقمت شهرًا كاملًا في منطقة قمم جبال الألب، عند القمّة البيضاء (مون بلان *Mont Blanc*)، حيث بقيت طوال المدّة، عند متوسّط ارتفاع ٣٠٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر، حيث يقلّ الأكسجين في الهواء،

ويصبح التنفّس أحيانًا على درجة من الصعوبة، حتى إنك تلهث وأنت جالس في مكانك.

١- في تلك الأحوال كنت أشمّ رائحة غاز الأوزون، خاصة في الأيام التي تهبّ فيها الرياح العاصفة في الصباح الباكر.

٢- وكنت أثناء التنقّل على حواف المناطق الخضراء، أشمّ روائح الغابات والمراعي القريبة.

٣- أما عند الاقتراب من حواف المدن، فكنت أشمّ روائح الأتربة وعوادم السيّارات.

وتتوقّف درجة الإحساس بهذه الروائح على اتجاهات الرياح، وعلى درجة حرارة الهواء القريب من مناطق الثلوج، وعلى كميّة الأمطار المتساقطة، وبالتالي على حالة البلل العام الذي أصاب أسطح المنازل المصنوعة من طبقة عازلة للمياه من الأردواز.

أما أعجب شيء على الإطلاق، فهو أنني كنت أحيانًا -وبصفتي خبيرًا قديمًا في مياه أعماق المحيطات وأعالي البحار- أشم رائحة أسماك أعماق البحار، في جليد قمم الألب.

كنت أشمّ هذه الرائحة في الليالي التي يكثر فيها حجم الجليد المتساقط، وتقل فيها أو تنعدم حركة الرياح، وبالتالي يرقد الهواء ولا يتحرّك.

كنت أقول لنفسي: كأن الماء الذي تكوّن منه هذا الجليد قد جاء من أعماق المحيطات.

والحقيقة هي هذا فعلًا، فأغلب مياه أمطار أوروبا قد جاءت بالتبخّر، إمّا من مياه البحر المتوسّط، أو من مياه بحرّي الشمال والبلطيق، وفقًا للأقرب جغرافيًّا إلى مكان تساقط المطر، فأوروبا ليست بها بحيرات كبيرة المساحة.

رائحة البحار هي الرائحة الأم لكل الروائح الأخرى، وذلك لأن البحار هي المكان، الذي ولدت فيه أشكال الحياة الأولى، منذ بلايين لا يعرف عددها من السنين.

أما إذا شمّمتَ أثناء تنقّلك بين قمم جبال الألب، رائحة بخار فاسد، أو رائحة نتنة بسبب العفن، فاعلم أن هذه الرائحة هي بسبب تعفّن وتحلّل الطحالب البحرية، التي لا تستطيع أيها الزائر رؤيتها، وهي الطحالب التي نقلتها العواصف الشديدة، مباشرة من أسطح المياه البحرية، التي كانت تطفو فوقها، إلى قمم جبال الألب. ظاهرة عجيبة فعلًا.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل التاسع

منطقة جبلية وعرة

(١)

كان ذلك الشتاء من أكثر الشتاءات مطرًا، ولهذا السبب فأنا لم أكن أخرج كثيرًا من المنزل في نزهات خلوية مع كلبتي (فولجا)، كما كنت معتادًا أن أفعل؛ لأن كثرة الأمطار جعلت تربة الحقول والحدائق المسامية الرخوة مشبّعة بالمياه، إلى درجة أن أقدام مَن كانوا يمشون عليها، كان من السهل أن تغوص فيها. رغم ذلك فإننا لم نشاهد الجليد مرّة واحدة خلال ذلك الشتاء؛ إذ إن درجة برودة الجو لم تنخفض مرّة واحدة إلى ما دون الصفر. كنت في المشي أستعمل القباقيب الخشبية، لكني كنت مع ذلك أخبّ في الأرض الرخوة، وأرفع القباقيب بالطين المحمّل عليها مما كان سريعًا، ما يرهق عضلات ساقيّ.

كنت لأول مرة في حياتي ألاحظ -في ذلك العام- ظهور علامات تلوّث السماء في ضواحي باريس، وأغلب مدن فرنسا الكبرى، بسبب زيادة أعداد السيّارات، إذ أصبحنا نشمّ بسهولة عوادم هذه السيّارات،

t.me/qurssan

في البداية في شوارع المدن الكبرى، ثم الآن أصبحنا نشمّها حتى في الأماكن الريفية المفتوحة، ولمن كان في مثل سنّي، وعاش بداية شبابه في نهايات القرن التاسع عشر، قبيل ظهور السيّارات، يدرك أن ظهورها ترك أثرًا بالغ السوء في البيئة الطبيعية، التي كانت على درجة كبيرة من النقاء.

ليست السيّارات وحدها بل كذلك حركة إنشاء المصانع في كل مكان. قررت ذات يوم من فبراير في ذلك الشتاء، أن أهرب من الجو البارد الممطر الملوّث في باريس، إلى الجوّ الدافئ الجاف النقيّ نسبيًا في جنوب فرنسا.

وصلت بالسيّارة إلى مدينة (آرل)، ومنها إلى الطريق المؤدّي إلى سواحل البحر المتوسّط، حيث الكتلة الصخرية الهائلة التي تُعطي اسمها للمكان (لارودون *La Redonne*)، واتخذت الطريق إلى الفندق الريفي (الأوبرج)، الذي حصلت على عنوانه من أحد أدلّة السياحة.

لكني عند وصولي إلى الشارع الصغير الذي يقع فيه الفندق، وجدت بعرض الطريق شِباك صيد السمك متروكة لتجفّ على أرض الشارع رغم أن التوقيت كان بعد غروب الشمس، إلا أن مَن فعل هذا لم يتوقّع حضور سيّارة إلى هنا، أو مجيء زبون إلى الفندق.

وحيث إنني أحترم البشر البسطاء، وأحترم مهنهم البسيطة، فإنني لم أرغب في المرور بسيّارتي فوق شِباك الصيد، حتى لا تتعرّض للتمزّق. توقّفت بالسيّارة وأطلقت بوقها، لعلّ أحدًا يسمعه، فيخرج لإزاحة هذه الشّباك من الطريق.

t.me/qurssan

عندما لم يستجب أحد لبوق السيّارة خرجت منها، وذهبت لطرق باب الأوبرج. بالفعل وجدت داخل صالة الفندق عددًا لا يقل عن نصف دستة صيّادي السمك يعقدون شبه اجتماع لمناقشة مسألة تخصّهم.

وحيث إنني أدرك الكيفية التي يكسب فيها الإنسان مواقف الحياة، طلبت من الساقي أن يقدّم على حسابي لجميع الحاضرين دورًا جديدًا من نفس مشروب (الباستيس) الذي كانوا يحتسونه.

بعدها خرج بعضهم معي لإزاحة الشباك، ولإرشادي إلى موقع الفناء الواقع خلف الفندق، حيث تركت سيّارتي أسفل مظلة خشبية. عندما أعدت النظر في المكان، أدركت أنني لن أقيم هنا طويلًا، وأنه ينبغي لي أن أبحث عن فندق جديد.

(٢)

الحقائق التي اكتشفتها بترتيب اكتشافها:

١- لم يكن في الفندق كله إلا دورة مياه واحدة عمومية، تقع في الطابق الأرضي، أي أنك عندما تشغل حجرة في الطابق العلوي، ستضطر للنزول أثناء الليل إلى الطابق الأرضي إذا أردت أن تقضي حاجة ملحّة.

٢- صالة الطعام بالطابق الأرضي، ليست بها موائد منفصلة، بل هي مائدة واحدة طويلة، تشغل المكان كله، وضعت على جانبيها المقاعد، التي قد يصل عددها إلى عشرين مقعدًا. تساءلت أين أنا بالضبط؟ وما هي حقيقة هذا المكان؟

t.me/qurssan

٣- عندما صعدت إلى الطابق العلوي أدركت الحقيقة، وهي أن هذا المكان في الأصل، هو عنبر نوم واحد، تمّ تقسيمه بحواجز خشبية إلى حوالي عشرين حجرة نوم صغيرة ضيّقة، منها عشر حجرات على الجانب الأيمن، وعشر حجرات أخرى على الجانب الأيسر، وممر أوسط ضيّق طوله حوالي عشرين مترًا.

٤- عرفت أن هذا المكان يعود في الأصل إلى منتصف القرن التاسع عشر، تمّ بناؤه بغرض إيواء العمّال، الذين كانوا يقيمون خطوط السكك الحديدية بامتداد ساحل البحر المتوسّط.

٥- أما الآن سنة ١٩٢٧، فإن هذا المكان يستعمل لإيواء عمّال المناجم والمحاجر القريبة، الذين يعملون هنا بين وقت وآخر، إذ لم يعد هناك عمل لهم هنا طوال العام، لذلك تقوم إدارة الفندق فيما يتبقّى من العام، بتأجير حجراته للزبائن المؤقّتين.

٦- كل الحجرات ضيّقة جدًا، تبلغ بالكاد ثلاثة أمتار طولًا ومترين عرضًا، وكل الأسرَّة لا تسع إلا شخصًا واحدًا، لذلك أدهشني أن أرى محفورًا على القائم الخشبي الخلفي للسرير، القلوب الصغيرة التي تخترقها أسهم كيوبيد إله الحبّ، وهي تحمل على طرفيها أسماء ذكور وإناث، مع بعض الرسومات الإباحية لبعض الأعضاء الجنسية، مما جعلني أتساءل إن كانت هذه الأسرّة تستقبل أحيانًا لقاءات جنسية عابرة.

٧- بسبب شدّة إرهاقي نمت على الفور، رغم القلق الذي تتسبّب فيه، أصوات القطارات التي تمر عدّة مرات أثناء الليل على الخط

t.me/qurssan

الساحلي، على بعد أقل من كيلو متر واحد.

إلا أنني صباح اليوم التالي وجدت مفاجأة جميلة، وهي أن الشمس تملأ الحجرة، كما أن منظر البحر يبدو بوضوح من نافذة الحجرة، والمسافة إليه تقلّ عن عشر دقائق على الأقدام. لذلك قرّرت تأجيل الانتقال إلى مكان جديد، لحين العثور على مكان أفضل. جريت لألقي بنفسي في الماء الأزرق الداكن، ثم ذهبت لشراء زوجين من الأحذية الخفيفة بحُبَيْبات في نعالها، وهي من نوع النعال الخاصة بتسلّق الصخور.

عدت إلى حجرتي وجلست إلى جوار النافذة، حيث وضعت آلة الكتابة (التايب رايتر) على المائدة، وانشغلت بضعة ساعات. وحيث إنني كنت منذ سنوات، قد توقّفت عن استعمال ساعات اليد، أصبح مرور بعض القطارات هو علامتي الوحيدة للاستدلال على مرور الوقت.

(٣)

حدث بعد بضعة أيام أنني كنت أتسلّق المنطقة الجبلية القريبة، فوجدت عند إحدى القمم الجبلية، أنها ترتفع إلى ٤٠٠ متر فوق سطح البحر، وهو الرقم الذي يمكن للزائر متسلّق الجبل أن يراه مكتوبًا فوق لافتة صغيرة.

عندما وقفت لحظات أتأمّل المنظر الطبيعي المتاحة رؤيته من هذا الارتفاع، فوجئت -نظرًا لصفاء الجو، ولخلو السماء من السحب

t.me/qurssan

والضباب والأتربة- أنه يمكنني في الجهة الشرقية أن أرى أبراج كنائس مارسيليا، التي تقع على بعد حوالي ٢٠ كيلو مترًا، وفي الجهة الغربية أن أرى المباني المرتفعة في مدينة (لو جرو دي روا) وحولها أحراش كامارج، التي تبعد تقريبًا بنفس المسافة، بالإضافة إلى رؤية كل انحناءات الساحل، التي تخلق الرؤوس الصخرية وما بينها من خلجان.

عندما أدرت رأسي في المكان، وجدت مفاجأةً بدت لي جميلة، وهي فيلّا صغيرة تقف وحدها فوق القمّة، عندما اقتربت منها وجدت عند مدخلها لافتة صغيرة تقول (للإيجار). درت حولها فوجدت أنها تشغل حيّزًا مربّعًا، حديقة صغيرة في المقدّمة يقع خلفها المبنى المربّع، بطول ضلع حوالي عشرة أمتار، إلا أن ثلاث واجهات منها لم تكن بها أيّ شرفات أو نوافذ، غالبًا بسبب أنها الجهات التي تأتي منها الرياح البحرية القوية (الميسترال)، في ثلاثة مواسم كل سنة، أما جهة المبنى الواقعة في مواجهة البحر، فكانت بها نافذتان كبيرتان متجاورتان، كما أن هناك ما يدلّ على وجود شرفة علوية بدت كما لو كانت حديقة سطح (روف جاردن).

بدت لي هذه الفيلّا مكانًا مثاليًّا لممارسة طبيعتي الانعزالية، أثناء محاولة الانغماس في الكتابة. وصلت بسهولة إلى الشخص المسؤول، ودفعت له مقدّم الايجار المطلوب، دون أن أشاهد الفيلّا من الداخل، وهذا هو أحد أخطائي التقليدية، أقصد التعجّل والاندفاع. هذه الفيلّا كانت مهجورة منذ ربع قرن! لم يُقْدِم أحد على الإطلاق على استئجارها لمدّة ربع قرن! فما السبب يا تُرى؟ عندما أخذت المفاتيح، وعدت إلى

t.me/qurssan

الفيلا لأدخلها، وجدت كمّيات هائلة من الأتربة والرمال متراكمة، ليس فقط في أركان الحوائط، بل في كلّ مكان.

المشاكل التي ظهرت:

١ - المشكلة رقم واحد هي النظافة، لذلك عدت فورًا إلى الشخص الذي قبض منّي مقدّم الإيجار وأعطاني المفاتيح، للبحث لديه عن رجل (أو امرأة)، يمكنه (أو يمكنها) القيام بعملية التنظيف، مبدئيًّا الآن ثم فيما بعد مرّة كل أسبوع.

٢ - المشكلة الثانية هي إعداد الطعام، حبّذا أيضًا لو أمكن لهذا الشخص المساهمة في إعداد وجبات الطعام، بالذهاب إلى المدينة للشراء من أسواقها، ثم صعود الجبل للوصول إلى هنا، لهذا السبب يجب أن يكون هذا الشخص شابا وفي حالة بدنية جيّدة، حتى يتمكّن من صعود الجبل، لكن هذا لا يمكن له أن يحدث كل يوم، بل إنه قد لا يحدث إلا مرّة كل أسبوع، نظرًا للمجهود الشاق المطلوب لصعود هذه الأمتار الأربعمائة، وكنت قد صعدت إلى قمّة هذا الجبل على قدميَّ؛ لأنني كنت أتريّض وأبحث عن المغامرة.

إلا أنني اكتشفت بعد ذلك أن هناك طريقًا حديثًا ممهّدًا للسيّارات، غالبًا لم يكن موجودًا قبل ربع قرن؛ لأن السيّارات لم تكن قد اخترعت بعد، ولكن غالبًا أيضًا لن يكون للخادم سيّارة، فهو سيصعد هذا الطريق على قدميه، أو قد يحاول استعمال درّاجة، خاصة أنها ستسّهل عليه عملية الهبوط. إن هذا الارتفاع ٤٠٠ متر، يعني عمارة سكنية مكوّنة من ١٠٠ طابق.

t.me/qurssan

٣- ثالث مشكلة هي أن المنزل ليس به كهرباء، وبالتالي ليست به ثلاّجة كهربائية؛ لأنه في زمن مَن سكن البيت لآخر مرة، كانت الكهرباء غير معروفة إلا في المدن الكبرى، وبشكل عام لم تكن الأجهزة الكهربائية قد انتشرت بعد في فرنسا. من المؤكّد كذلك أن مَن سكن هذه الفيلّا، لم يكن يقيم فيها إقامة دائمة، بل كان يحضر إليها فقط بين وقت وآخر، وبالتالي يحضر معه طعامه الكافي لاستهلاك يوم أو يومين فقط لا غير. إذَنْ ماذا سأفعل أنا بخصوص وجبات الطعام؟

٤- رابع مشكلة هي أن هذه الفيلّا ليست بها دورة مياه، فقد وصلت مواسير المياه النقية في زمن ما إلى هذا المكان المرتفع، ولكن ليست هناك مواسير صرف صحّي. إن مصطلح (دورة مياه) يعني أن تدور المياه في دائرة، أي أن تأتي المياه النقيّة في مواسير، وتغادر المياه القذرة في مواسير أخرى، وهذا لا يحدث هنا. ماذا سأفعل للتخلّص من الفضلات الآدمية؟

(٤)

ثم ظهرت مشكلة خامسة بعد أن بدأت الإقامة في المكان، وهي أنه -نظرًا لتنوّع وثراء المنظر المتاح أمامي- أني لم أتمكن من التركيز في الكتابة كما كنت أتوقّع، إذ إنني بقيت أسبوعين، دون أن أتمكن من كتابة صفحتين في المخطوط الذي كان معي. تذكّرت ما قاله القدّيس جيروم: "إن الكاتب يجب أن يعمل في مكان قريب الشبه من زنزانة

t.me/qurssan

السجين أو من صومعة الراهب، وأن يدير ظهره لكل متع الحياة، على ألّا يفكّر إلا في شيء واحد، هو تسويد الصفحات البيضاء التي أمامه".

وأنا أضيف من خلال تجربتي الذاتية، أن اتخاذ الكتابة مهنة، غالبًا ما يقود الكاتب إلى انتهاج سياسة اعتزال الناس والزهد في الحياة، فرغم كل ما يقال عن أن أوضاع الناس وأحوال الحياة، هي مصادر إلهام الكاتب، إلّا أن الحقيقة هي أن الكاتب عندما يبدأ في الكتابة، يكون قد اختزن داخل نفسه وعقله ما يكفي كمصدر إلهام، أي أن ما في داخل نفسه من أخيلة، يصبح كافيًا كمادة خام للكتابة، وبالتالي لا يعود في احتياج إلى الاحتكاك بالناس، بالشكل المكثّف المعتاد، كما كان يحدث له سابقًا. إن الكاتب لا يقدّم العالم بشكل موضوعي، بل يقدّمه من خلال رؤيته الذاتية. يعيش الكاتب منكفئًا على ذاته، منحنيًا على آلة كتابته.

عندما أشعت حولي النبأ الخاص برغبتي في الحصول على خادم أو خادمة، عرضت خادمة الأوبرج، التي كانوا ينادونها (مدام رو)، أن تأتي إليَّ مرة واحدة في الأسبوع، هي يوم الأحد، يوم إجازتها الوحيد، فقط لإعداد الطعام، ولكن ليس لتنظيف البيت، إلا أنها أخبرتني أولًا بمخاوفها. قالت: سيّدي العزيز، أريد أن أنبّهك إلى خطورة سكن هذه الفيلّا. ألم يذكر لك أحد أنه قد سبق أن اغتالوا قاطنيها؟".

قلت: ولماذا اغتالوهم يا مدام؟

قالت: لأن أغلب مجرمي مارسيليا الهاربين من العدالة، يلجؤون إليها للاختباء من الشرطة.

قلت: إنك تبالغين يا مدام رو؛ ذلك لأنني لم أجد داخل الفيلّا أي أثر يدلّ على احتمال أن أحدًا قد أقام بها خلال الربع قرن الأخير!

ثم عدّدت لها الأسباب التي تدعوني إلى هذا الاعتقاد الجازم:

١ - كانت الفيلّا مغلقةً تمامًا عندما فتحناها، وكل أبوابها ونوافذها الخشبية، لها ضلفات إضافية مصنوعة من الحديد، وهي ضلفات لا يتمكن أحد من فتحها أو من كسرها.

٢- وجود شبكات عنكبوتية في أركان جميع الحجرات، مما يدلّ على أن أحدًا لم يمرّ من هنا منذ سنوات طويلة.

٣- جميع قطع الأثاث في أماكنها، وموضوعة فيها بنظام، ففي حجرة الطعام مثلًا، توجد جميع المقاعد بنظام في أماكنها حول المائدة، وفي المطبخ توجد كل الأدوات نظيفة، وموضوعة بنظام فوق الأرفف داخل الدواليب.

قالت: رغم كل هذا، أنصحك بعدم الإقامة في الفيلّا.

قلت: حتى لو أن كلامك صحيح، فإنني أرحّب باستضافة مجرمي المدينة، لأي مدد إقامة يرغبون فيها، فأغلب أصدقائي هم من المجرمين السابقين، الذين غالبًا ما أتقابل معهم في الحانات وعلب الليل في باريس أو مارسيليا، أو في غيرها من المدن الفرنسية الكبيرة، حتى عندما كنت في روتردام وشنغهاي ونيويورك وريو دي جانيرو، كنا نتبادل الأنخاب ومن ثمّ يحكون لي قصص حيواتهم الضائعة.

t.me/qurssan

(٥)

عرفت منها معلومات إضافية عن أن من بنى هذه الفيلّا وسكن فيها كان موظّفًا رسميًّا في إدارة ميناء مارسيليا، يعمل مسؤولًا عن شحن البضائع وتفريغها على أرصفة الميناء، وهي تعتقد أن سمعته لم تكن فوق مستوى الشبهات، وإلا فكيف يمكن لنا أن نفسّر مصدر هذه الأموال الطائلة التي كانت في حوزته؟!

قالت: من المؤكّد أنه كان يسمح بمرور بعض البضائع الممنوع تصديرها أو استيرادها مقابل رِشًى مالية.

ثم عن السبب في بقاء المنزل مهجورًا منذ وفاته، قالت: "بسبب علاقاته النسائية المتعدّدة، لم يجد دافعًا على الزواج، ولهذا لم يكن لديه أولاد، وبالتالي لم يترك خلفه ورثة يهتمّون بهذه الفيلا".

كان بسبب عمله في الميناء يقيم في مارسيليا، إلا أنه في العشر سنوات السابقة على وفاته -وكان قد بنى هذه الفيلّا- بدأ في الاعتياد على التردّد عليها مع أصدقائه وصديقاته، لقضاء عطلات نهاية الأسبوع فيها، فكانوا يذهبون إليها مساء الجمعة ويغادرونها مساء الأحد.

كان قد اعتاد كذلك على قضاء نهار السبت بطوله في أبعد نقطة ممكنة عن ساحل البحر، إذ كان لديه قارب كبير (يخت) يستطيع أن يذهب به إلى أكبر مسافة ممكنة داخل البحر، مع أصدقائه وصديقاته ومأكولاته ومشروباته، بعيدًا عن الأعين المتلصّصة.

t.me/qurssan

في البداية كان الذهاب والإياب بين مارسيليا ولارودون يتمّ بالقطار، لكن لأن استعمال القطار كان يجعله يختلط بالناس، وهو يفضّل العزلة مع صديقاته، قرّر أن يمهّد طريقًا أسفلتيًّا على حسابه الخاص، من سفح الجبل إلى قمّته، رغم وجود بعض المنحنيات الخطيرة، فإذا جاء بسيّارته كان يطلب من سائقه الخاص أن يأتي إليه ليعود به إلى مارسيليا.

بل إنه كان في بعض الأحيان، يطلب من حوذي عربته (الحنطور) التي يجرها بغلان الحضورَ إليه مساء الأحد لإعادته إلى مارسيليا، رغم ما في هذا من مشقّة هائلة على البغلين لارتقاء هذه القمّة الوعرة، لكنه كان يجد أن هذه الطريقة أكثر شاعرية. كانت السيّارة تعود به في ربع ساعة، في حين أن رحلة الحنطور كانت تستغرق ساعتين.

قالت: "إن وجود الطريق الأسفلتي هو ما ساعد على سرعة ازدهار المنطقة، التي تمتلئ بيوتها حاليًا بالناس، من زوجات وأطفال، خاصة في الإجازات الصيفية خلال شهري يوليو وأغسطس، وفي عطلات نهاية الأسبوع طوال العام، مع قلّة تردّد الناس على المكان خلال شهور الشتاء، بسبب خطورة الطريق المنحدر، الذي قد يؤدّي إلى حوادث انزلاق العربات عليه، في حالة سقوط الأمطار، ولذلك فحيث إننا لا نزال في فبراير فإن هذه المنطقة تكون مهجورة إلى حدٍّ بعيدٍ".

قالت مدام رو كذلك إن صاحب الفيلّا هو من أدخل مواسير المياه النقيّة إلى قمّة هذا الجبل، بفضل علاقاته الطيّبة بالأجهزة الإدارية في مارسيليا.

t.me/qurssan

عندما لم أجد خادمًا لتنظيف البيت، كنت أنا نفسي أقوم بهذه العملية، وتكفّلت مدام رو حسب الاتفاق بيننا بتزويدي كل يوم أحد ببعض الوجبات، التي كنت أعتمد على برودة الجوّ الشتوي في الاحتفاظ بها صالحة للاستهلاك فقط لبضعة أيام.

(٦)

كنت ذات صباح قد جلست إلى مائدة الكتابة، أضرب بأصابعي على أزرار أحرف آلة الكتابة، وأنا أنصت إلى صوت مركب بمحرّك كهربائي، عندما فاجأني صوت قريب الشبه بصوت انفجارات متتالية لأصابع ديناميت، وكنت أعرف جيدًا هذا الصوت منذ خدمتي العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى.

خرجت فورًا إلى شرفة السطح، لأشاهد مركب صيد تستعمل المتفجّرات في قتل الأسماك، وهي ممارسة ممنوعة بالقانون الفرنسي، ثم جمعوا الشباك المعلقة بالمركب، بما في داخلها من آلاف الأسماك الميّتة، وهربوا باتجاه ميناء مارسيليا، حيث يقع سوق الأسماك. اختفى القارب خلف ضباب الصباح، وكان يلزمني الحصول على منظار مقرّب (تليسكوب)، حتى أتمكن من التعرّف على القارب، أو محاولة قراءة اسمه المكتوب عليه، لو أن هناك اسمًا مكتوبًا عليه!

كانت جغرافية هذا الموقع، تتشابه مع جغرافية كل المواقع المشابهة على سواحل جنوب فرنسا، فبالإضافة إلى الأوبرج حيث أقمتُ لليلة واحدة، كان هناك الرصيف البحري، الذي ترسو عنده سبعة مراكب

t.me/qurssan

صيد صغيرة، تخصّ سبعة صيّادي سمك، تتلاصق منازلهم الصغيرة المتشابهة، في مكان لا يبعد كثيرًا عن الرصيف، ولا عن الأوبرج.

هذا إذَنْ هو السبب الذي جعلهم عند وصولي إلى المكان، في يومي الأول فيه، يتركون شباكهم على أرض الطريق، فهم يجتمعون في الأوبرج لاحتساء الخمر، ولمناقشة مشاكلهم الحياتية. عرفت لاحقًا أنهم يخرجون معًا إلى البحر ويعودون في نفس التوقيت، حتى يمكنهم معاونة بعضهم بعضًا عند الاحتياج، وهو نوع من التضامن الإنساني رغم المنافسة التجارية.

كانت سيّارة شحن الأسماك تأتي إلى موقع الرصيف، لنقل السمك الطازج إلى أسواق مارسيليا، أو إحدى المدن الكبيرة الأخرى، في محيط دائرة لارودون، في مواعيد محدّدة يعرفونها مسبقًا، فيتحرّون أن يكونوا موجودين على الرصيف في موعد وصول السيّارة.

لم يكن هناك سوق سمك هنا، بل حتى لم يكن هناك مكتب إدارة محلّية أو دار عموديّة، أو حتى مكتب بريد أو نقطة شرطة أو عيادة إسعافات أوّلية، لم يكن في المكان إلا بقالة صغيرة تبيع الأرز والزيت والسكر والقليل من الخضروات والفواكه وما شابه ذلك.

أما المنازل المتناثرة فوق الصخور، فأعتقد أن عددها كان حوالي مائة منزل، وكانت متفاوتة الأحجام والأشكال بطريقة غريبة، توحي بأن بناءها كان يتمّ إلى حدّ كبير بشكل عشوائي مرتجل، إذ كان بعضها بالأحجار والطوب مثل منزلي، ولكن الأغلبية كانت أكواخًا صغيرةً من الخشب، لا تصلح للإقامة في موسم المطر، أو قد لا تكون إلا مجرّد

t.me/qurssan

مخازن، يترك فيه بعض صيّادي الأسماك شباكهم وعِدَدَ صيدهم، حتى لا تسرق منهم إذا تركت في القوارب.

أكبر مبنى في المنطقة كان محطّة القطارات، وفي فرنسا يسمّونها SNCF، وهي أربع كلمات تعني المؤسّسة الوطنية للسكك الحديدية، وهذه المحطّة كانت تخدم عددًا من القرى؛ وذلك لأن أقرب محطّة قطار أخرى كانت على بعد ٢٠ كيلو مترًا. أما اللغز الذي لم أعثر له على تفسير، فهو مبنى لهيكل خرساني هجره بنّاؤوه، وتركوه يقف وحيدًا في العراء.

سألت فقيل لي إنه كان من المفروض أن يصبح فندقًا من فنادق الدرجة الأولى، إلا أن قضيّة رفعتها الحكومة على الشركة المنفّذة، أدّت إلى توقّف العمل منذ سنوات. لكن على ما يبدو فإن بنّائيه لم يفقدوا الأمل تماما، إذ لا تزال هناك معدّات بناء، وعروق أخشاب وأسياخ حديد، وأكياس أسمنت وأكوام رمال، في محيط دائرة موقع البناء المهجور.

(٧)

الجغرافيا هي علم تحديد مواقع الأماكن بالنظر إلى خطوط الطول والعرض، أما الطوبوغرافيا، فهي علم تحديد مواضع الأماكن بالنظر إلى الارتفاعات والانخفاضات عن سطح البحر.

كان هذا التعريف ضروريًا حتى أتمكن من استئناف الحديث، إذ كانت الطبيعة الطوبوغرافية لموقع التلّ الصخري في (لارودون) غريبة

t.me/qurssan

جدًا، بين مرتفعاته الصخرية ومنخفضاته الساحلية الرملية، بالإضافة إلى ما اخترعته التكنولوجيا الحديثة، من كَبارٍ تجري فوقها السكك الحديدية، وأنفاق تخترق أعماق التلال الصخرية، وكان بشر المنطقة قد تحايلوا على الموقف الراهن، ليسهّلوا على أنفسهم مسألة الوصول إلى الجهات التي يريدون الوصول إليها.

فبدلًا من اللف والدوران مع المرتفعات والمنخفضات فوق الطرق الأسفلتية، وصعود التلال ثم هبوطها، أصبح من الممكن الآن اختصار المسافات، باستعمال الأنفاق التي تخترق التلال عند مستوى سطح الأرض، حتى للمشاة على الأقدام، رغم أن هذه الأنفاق مخصّصة للسيّارات وحدها فقط لا غير.

كان هناك كذلك مَن يخاطر باستعمال الكباري المخصّصة لشريط السكّة الحديدية، بشرط أن يعرف بدقّة مواعيد مرور القطارات عليه، وهي لم تكن تتعدّي قطارًا واحدًا لا أكثر كل ساعة. كان مكاني فوق قمّة التلّ يسمح لي بمتابعة كلّ المتردّدين على المنطقة من غير سكّانها، فمَن كانوا هؤلاء البشر؟

١ - باعة جائلون محمّلون بالسلال، التي تحتوي على بضاعتهم من المأكولات والمشروبات، التي يعرضون بيعها على سكّان المنطقة، في بيوتهم المتناثرة فوق التلال، لتجنيب السكّان مشقّة الانتقالات، مقابل فرق سعر ضئيل هو مكسب هؤلاء الباعة الجائلين.

٢ - فنّانون تشكيليّون يحملون أدواتهم من ألوان وأقمشة للرسم، وقوائم خشبية تلزم لوضع الأقمشة في وضعيّة الرسم، يبحثون عن

t.me/qurssan

موضوعات جديدة للوحاتهم، من خلال زوايا نظر جديدة لموضوع أثير لدى جامعي اللوحات، وهو موضوع البحر.

٣- أشخاص غريبو الأطوار يرتدون غالبًا ملابس بوهيمية، مثل المعاطف الطويلة طراز القرن التاسع عشر، والقبّعات الملوّنة، وهم من بين أولئك الباحثين عن الهدوء واعتزال الناس، والابتعاد عن صخب البشر. هؤلاء كنت أتابعهم بعينيّ لأطول مسافة ممكنة، لأحاول أن أستدلّ منهم على الأماكن التي يلجؤون إليها، ويحصلون فيها على العزلة المنشودة.

هؤلاء كانوا كثيرًا ما يعرّضون حيواتهم للخطر، عندما كانوا يلجؤون إلى الصخور المطلّة مباشرة على البحر، التي غالبًا ما كانت خضراء اللون، بسبب الطبقة السميكة من الطحالب البحرية التي تكسوها، مع ما تسبّبه هذه الطحالب من لزوجة، مما قد يتسبب في انزلاق أقدام مَن يمشون عليها، وسقوطهم في البحر. كانوا يقومون أحيانًا بحركات بهلوانية مفاجئة، جديرة بلاعبي الإكروبات في السيرك، في محاولة لتجنّب الوقوع الذي كان يبدو لي أحيانًا حتميًّا.

٤- رجال ونساء غالبًا من الشباب صغار السن، يبحثون عن ملجأ خلف الصخور، يمكنهم فيه تبادل الأحضان والقبلات، أو الوصول إلى ما هو أكثر من ذلك، إذا لم يتمكنوا من السيطرة على انفعالاتهم الجسدية، دون أن يتعرّضوا للأعين المتلصّصة أو للتعليقات الجارحة. كان الرجال يمدّون أيديهم إلى أشجار الميموزا لاقتطاف باقة من زهورها يقدّمونها إلى محبوباتهم.

t.me/qurssan

كثيرًا ما تعاطفت مع هؤلاء العشّاق، خاصةً من بين أولئك اليائسين من الحصول على الخصوصية، غير القادرين على ممارسة هذا الفعل في العلانية، لدرجة أنني كنت أفتح لهم أبواب بيتي، وأدعوهم إلى الدخول، وقد أترك لهم البيت لمدة ساعة أو ساعتين، ليحصلوا على كامل حرّيتهم.

أنا قد سبق لي أن جرّبت كيف يمكن لإلحاح الرغبة الجنسية أن يدفع المرء إلى الإتيان ببعض الأفعال المجنونة، كالتعرّي وممارسة الفعل الجنسي الكامل، ولو خلف شجرة في حديقة، أو خلف جدار في شارع.

* * *

t.me/qurssan

الفصل العاشر

عاجز جنسيًا

(١)

كانت تنتظرني وهي جالسة فوق صخرة، في الطريق الذي أعود منه إلى الفيلّا.

قالت: سمعت أنك في احتياج إلى عاملة نظافة؟

سألتها: من أنتِ؟

قالت: أنا زوجة مايك.

عرفت لاحقًا أن مايك في السبعين من عمره، رغم أن هذه المرأة الواقفة أمامي لم تكن بأي حال تتعدّى سنّ الثلاثين.

أول ما لاحظته عليها هو أنها في حالة صحّية سيّئة، فوجهها يبدو مصفرًّا شاحبًا مريضًا، وشعرها يبدو خفيفًا كما لو كانت قد بدأت تفقد خصلات منه، كما يحدث عادةً للسيّدات المتقدّمات في السنّ. كما أنه كانت هناك بعض الدوالي في أوردة سمانتَي الساقين. قد يكون السبب

t.me/qurssan

في ضعف صحّتها هو إجهادها في عملها مع سوء التغذية. لاحظت كذلك أن ملابسها لم تكن نظيفة، إذ كانت هناك بعض البقع عليها. ملاحظة أخيرة: كانت أصابع اليدين متورّمة.

الشيء الوحيد الذي شجّعني على استئناف الحوار معها هو نظرة الذكاء التي بدت في عينيها. ليس فقط الذكاء، بل فلأقل إن النظرة كانت مصحوبة بقدر من الدهاء.

سألتها: ماذا يوجد في الحقيبة الورقية التي تحملينها؟

قالت: بها بعض الأعشاب.

سألت: هل هي لغذاء الأرانب التي تربّينها؟

قالت: هي أعشاب طبّية أبيعها لبعض الدكاكين في مارسيليا، وهي نباتات شوكية مما يجرح أصابعي ويجعلها تتورّم.

سألت: فيمَ تُستعمل؟

قالت: السيدات الحوامل يشربن منقوع هذه النباتات في الماء المغلي للتخلص من الأجنّة غير المرغوب فيها!

سألت: هل هذا مصدر دخلك الوحيد؟

قالت: كنت أربّي الدجاج وأبيعه، وكانت لديّ ١٢٠ دجاجة، حتى قضى عليها كلها وباء الكوليرا الأخير.

سألت: وكم تكسبين من بيع هذه الأعشاب؟

قالت: ٢٠ فرنكًا.

t.me/qurssan

قلت: موافق، سأدفع لك في كل مرة تأتين فيها لتنظيف الفيلّا نفس هذا المبلغ، ما رأيك؟

قالت: أنا موافقة، لكني يجب أن أحصل أولًا على موافقة زوجي مايك.

قلتُ محاولًا تحفيزها بالمزيد من المكاسب: بالإضافة إلى زجاجة نبيذ وعلبة سجائر.

لا أعرف لماذا أردت الاستمساك بها، قد يكون السبب في غريزتي الروائية، إذ شعرت أن وراءها قصّة مثيرة.

(٢)

بعد مرور بضعة أيام، ولم تكن امرأة مايك قد عادت إلى الظهور، ذهبتُ إلى الأوبرج للاستعلام عنها.

قالت مدام رو: «لا تأخذها للعمل عندك فهي تمارس السحر الأسود في إسقاط الأجنّة».

وعندما ظهرت على وجهي علامات الدهشة، أضافت المزيد لتجعلني أرضخ لرأيها: «ثم إنها لصّة تسرق المنازل، وقد كانت مؤخّرًا مسجونة بسبب سجلّها لدى الشرطة».

تدخّل ابن مدام رو الشاب العشريني في الحديث قائلًا: «لقد كانت متشرّدة تتسكع على أرصفة الميناء في مارسيليا، على أمل أن يلتقطها أي رجل، عندما عثر عليها مايك».

t.me/qurssan

سألتُ: لكنه تزوّجها؟

قال: نعم، وقد كنت شاهدًا على عقد الزواج.

ثم أضاف: لاحظ أنه سبعيني، وهي في العشرينيات.

ثمّ قال: لكن مجاملة لمايك تساهل موظّف العمودية في مسألة أنها لم تكن لديها بطاقة شخصية، ولا حتى شهادة ميلاد.

سألته: ولكن مَن هو مايك هذا؟

قال: إنه رجل لا يفيق أبدًا من السكر، لا تراه أبدًا إلا وزجاجة خمر في يده، وقد أنفق على الخمور كل ما كسبه من مال في حياته، وكل ما ورثه عن والديه.

سألت: وما إذَنْ مصدر دخله الحالي؟

قال: إنَّ لديه معاشًا شهريًّا صغيرًا من نقابة العاملين في البحرية، ثم إنه كان -حتى أعوام قليلة- قادرًا على ممارسة مهن مختلفة، فهو مثلًا عمل نقاشًا، فهو الذي قام بدهان حوائط منازلنا وخشب مراكب الصيد، وكان كذلك قادرًا على إصلاح الأعطال الكهربائية لمحرّكات المراكب، والأعطال الميكانيكية لآلات صيد الأسماك. أما بعد زواجه، فقد افتتح في منزله متجرًا صغيرًا لبيع الخمور، يشغل حيّزًا صغيرًا من مدخل المنزل، إلا أن المشكلة هي أنه هو نفسه أكبر مستهلك لمخزون متجره، لهذا فإن زوجته تجد نفسها مضطرّة للبحث عن عمل.

سألت: وأين هذا المتجر؟

قال: ليس بعيدًا عن الفيلّا التي تسكنها، ولكنه ليس في الجهة التي

t.me/qurssan

تسلكها لصعود التلّ، بل في الجهة الأخرى منه، ومن المؤكّد أنك أثناء تجوالك الدائم، قد مررت أمامه لكنك لم تلحظه، ومن أهم العلامات عليه وجود شجرة أكاسيا ضخمة في مواجهته، وضع عليها اللافتة التي تشير إلى وجود المتجر.

قلت: سأنطلق الآن على الفور للبحث عنه.

(٣)

صعدت التلّ من مسلك لا أستعمله عادةً، ووجدت شجرة الأكاسيا واللافتة التي عليها، وفي الحقيقة فإن الكوخ الذي يشغل المتجر حيّزًا فيه، صغير الحجم جدًّا بحيث يمكن بسهولة عدم ملاحظة وجوده، بالإضافة إلى اختفائه الجزئي خلف صخرة، يحتمي بها من تيّارات الهواء الشديدة.

أمّا الكوخ نفسه، فهو مصنوع بمهارة من ألواح من خشب الصنوبر، ولا أستبعد أن يكون مايك نفسه هو الذي بناه لنفسه. لكنني تساءلت إن كان مايك لبناء هذا الكوخ، قد حصل من دار العمودية التابع لها، على أوراق رسمية تثبت امتلاك قطعة الأرض، وامتلاك المنزل الذي بناه عليها؟

إلى جوار الكوخ وجدت مجموعة من الأدوات المعدنية البسيطة، مبعثرة في إهمال على الأرض، غالبًا هي التي كان يستعملها مايك في عمله كميكانيكي، إلا أنه من الواضح أنها متروكة هكذا في العراء منذ مدّة طويلة، لأنها كلها تقريبًا تغطّيها طبقة من الصدأ.

t.me/qurssan

وجدت كذلك مبعثرة على الأرض بعض الأواني الخالية، التي تشير العبارات المكتوبة عليها، إلى أنها كانت يومًا ما، تحتوي دهانات بألوان مختلفة. هو إذَنْ توقّف كذلك عن عمله كنقّاش.

كان الباب مغلقًا، لذلك ناديت باسم (مايك)، ثم اقتربت من الباب وطرقته، إلا أن أحدًا لم يرد عليَّ. كيف أنه يبيع زجاجات الخمور إذا كان لا يفتح الباب لمن يطرقه من الزبائن المحتملين للمحل؟ أم أن هناك مواعيد محدّدة لفتح المحلّ؟ ولماذا إذَنْ ليست هناك لافتة موضوعة في مكان واضح تشير إلى تلك المواعيد؟

درت حول جوانب الكوخ الخشبي، فلم أجد نافذة مفتوحة، ليس هناك خلف المنزل إلا حمار مربوط إلى شجرة، نظر إليّ ثم حرّك أذنيه، يبدو أن مايك يستعمله كوسيلة انتقال، فهو إذَنْ لم يعد قادرًا لا على المشي، ولا على ركوب درّاجة هوائية. هذا هو ما استنتجته.

عند رؤية الحمار للكلبة (فولجا) التي أتت خلفي ببضع خطوات، حرّك ساقيه الخلفيتين، كأنه يقول لها إذا اقتربتِ مني سأرفسك. أما هي فقد ردّت عليه بنبحتين.

على أحد جانبي المنزل، هناك لوحة تشكيلية مرسومة على الحائط، استعملت لرسمها مجموعة كبيرة من الألوان لا تقل عن عشرة ألوان مختلفة، من درجات الأزرق والأخضر والأحمر، تشغل الحائط بأكمله، مرسومة بأسلوب أقرب إلى الفن الساذج، أو كأنها تخطيط مبدئي للوحة لم تكتمل.

هناك أولًا شكل سفينة يقف على سطحها قراصنة بحار بقبعّاتهم

t.me/qurssan

التقليدية، وإلى جوارها هناك ثانيًا جزيرة بأشجار كثيفة، وبعض أشكال بشرية، كأنهم أفراد قبيلة من قبائل جزر المحيط الهادئ البدائية، من الرجال والنساء والأطفال، بالإضافة إلى بعض حيواناتهم الداجنة، وقد وضع الرسّام (مايك) اسمه أسفل اللوحة. إذَنْ فهو لديه فعلًا محاولات جادة لممارسة الرسم.

(٤)

صباح اليوم التالي جاءت امرأة مايك تطرق بابي. إذَنْ فهي قد رأتني أمس وأنا أطرق باب الكوخ، لكنها لم تفتح لي! أو قد يكون مايك هو الذي رآني ولم يفتح لي. لماذا لم يفتحا لي؟ كنت أقف في مطبخي أعدّ قهوة الصباح، وحيث إنني عادةً ما أترك الباب الأمامي مفتوحًا لاستقبال العشّاق الباحثين عن الأمان، الذين أصبحوا ينصحون بعضهم بعضًا بالاستعانة بي عند اللزوم.

وجدتها فجأةً تقف إلى جواري في المطبخ، دون أن يصدر عنها أي صوت عند دخولها. هي إذَنْ لا تفهم أبسط قواعد اللياقة، لا تفهم أنها عندما تدخل مكانًا دون طرق الباب فإن عليها على الأقل، أن يصدر عنها أي صوت يشير إلى وجودها. هل هي على هذه الدرجة المتواضعة من الذكاء؟ من افتقاد قواعد السلوك السليم؟ أم أنها خبيثة؟

سلّمتها أدوات التنظيف والتلميع، وطلبت منها أن تبدأ بالعمل في الطابق العلوي، حتى يحين موعد مغادرتي للبيت، فتستأنف عملها بالطابق الأرضي. لاحظت أنها أثناء صعودها على السلّم إلى الطابق

t.me/qurssan

العلوي، كأنها تُخفي شيئًا أسطواني الشكل تحت ثيابها، يظهر أحد طرفيه عند بداية الفخذ، والطرف الآخر في الظهر أسفل خط الحزام الذي تضعه حول الوسط.

أنهت عملها بعد ساعتين، وهو وقت طويل نسبيًا، فتركتها في الطابق الأرضي، وصعدت إلى العلوي لأجد أنها قد أجادت عملها تمامًا، حتى إنها قد أخرجت ملابسي الموجودة في حقيبتي منذ وصولي إلى هنا، ووضعتها بترتيب في دولاب الملابس، القمصان والبنطلونات معلّقة في أماكنها، والشرابات والمناديل في الأدراج، ثم إنها حافظت على ترتيب أوراقي كما تركتها على المائدة، رغم إزالتها لطبقة التراب من حولها.

كنت ألاحظ من النافذة، مرور سفينة ركّاب إنجليزية، غالبًا ستكون غادرت ميناء مارسيليا هذا الصباح قبل ساعة واحدة، في طريقها إلى إنجلترا، عبر مضيق جبل طارق، وغالبًا ستكون قادمة من الهند، عبر مجرى قناة السويس المائي.

أنا أعرف أن شركة النقل عبر البحار هذه متخصّصة في هذا الخط الملاحي الذي يقلّ زبائنه عامًا بعد عام، منذ ظهور الخطوط الجوّية لطائرات الركّاب، أيّ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، التي تقطع آلاف الكيلو مترات في اليوم الواحد، أي أنها تقطع نفس هذه الرحلة في يوم واحد.

لكن أصحاب الشركة لا يزالون يحاولون البقاء على قيد الحياة، ولم يعد زبائنهم إلا من كبار السنّ الذين أُحيلوا إلى التقاعد، الذين يبحثون

t.me/qurssan

عن متعة السفر في البحر، ويقطعون الرحلة من الهند إلى إنجلترا في أسبوعين، أو في ثلاثة أسابيع، لأنهم لم يعودوا مضطرّين إلى الإسراع في العودة إلى بلادهم.

هذه الشركة الإنجليزية صاحبة هذه السفينة، هي الشركة الوحيدة التي تستعمل هذا النوع فقط من السفن البيضاء الكبيرة الحجم، أي أن كل سفنها تتشابه، إلا أن كل سفينة تحمل اسمًا مختلفًا، استطعت أن ألمح وجود حرف W كبير في بداية الاسم، إلا أنني لم أتمكن من قراءة باقي الحروف لأنها كانت أصغر حجمًا.

(٥)

هنا ظهرت المرأة من جديد على بابي، وقالت إنها نسيت أن تعطيني الهديّة التي أرسلها زوجها لي معها، وأخرجت من تحت ثيابها منظارًا مقرّبًا كبير الحجم، من الطراز القديم، الذي كان رجال البحر يستعملونه في نهايات القرن التاسع عشر. التوقيت كان غريبًا، إذ تمكّنتُ على الفور من قراءة بقيّة الحروف. شكرتها على الهدية، وأعطيتها الأجرة المتفّق عليها، وكذلك نسخةً من مفتاح البيت، لتتمكن من المجيء للتنظيف وفقًا لأوقات فراغها.

بواسطة المنظار المقرّب، استطعت معرفة أسماء كل السفن المارة أمامي، أثناء وصولها إلى ميناء مارسيليا، أو أثناء مغادرتها له، وتمكنت كذلك من مشاهدة أطقم العمل في الفنارات القريبة، أثناء وصول البعض ومغادرة البعض الآخر، بل شاهدت أعمدة الإنارة في شوارع مارسيليا،

t.me/qurssan

وهي تنطفئ أوتوماتيكيًا شارعًا بعد شارع عند شروق الشمس، وكذلك عند إضاءتها شارعًا بعد شارع عند غروب الشمس.

هذا التحكّم في إضاءة الشوارع عن طريق لوحة مفاتيح، كان تقنية جديدة في المدن الفرنسية، بعد أن كنا معتادين حتى سنوات قليلة، على مسؤولي الإضاءة، الذين يمرّون على الأعمدة واحدًا واحدًا لإضاءته بالغاز في بداية الليل، ويعودون إلى المرور صباحًا لإطفائها واحدًا واحدًا في بداية النهار. مع بداية العشرينيات، اختفى هذا المنظر تمامًا.

انشغالي بمتابعة السفن أثّر على نظامي السابق، وجعلني أتأخر عن مواعيدي المعتادة، لتناول وجبات الغذاء والعشاء في مطعم الأوبرج، وهو ما أثار شكوك مدام رو في أن تكون قد نشأت علاقة ما بيني وبين زوجة مايك.

في الحقيقة كانت زوجة مايك قد بدأت تطيل من فترات بقائها في منزلي، حتى بعد أن تكون قد انتهت من عملها، تتحدّث معي في أمور تافهة تنشغل بها، وهو ما جعلني أتساءل إن كانت المسألة هي أنها تفضّل البقاء في هذا البيت الواسع على البقاء في كوخها الخشبي؟ أم أن المسألة لا علاقة لها بالكوخ، وأنها تفضّلني أنا على زوجها؟ هل هي تكرهه وتريد أن تتركه؟

(٦)

بعد بضعة أيام كنت في المطبخ أعدّ قهوة ما بعد الظهيرة، عندما جاءني صوت زوجة مايك وهي تصرخ، صرخات قصيرة متقطّعة تدلّ

t.me/qurssan

على أنها في حالة هياج شديد، فخرجت إلى الشرفة أنتظر وصولها لأعرف السبب، عندما رأتني توقّفت على بعد عشرة أمتار من البيت.

قالت: اهرب بجلدك؛ لأن مايك قادم إليك ليقتلك!

ثم جرت من أمامي دون أي كلمة توضيحية إضافية. بعد بضع ثوانٍ جاءني صوت مايك، في شكل همهمات غير واضحة، ولكنها عميقة ومهدّدة. بدأت الكلبة (فولجا) في النباح، وتحرّكت بسرعة في اتجاه الصوت القادم المهدّد.

ثم ظهر مايك أمامي، ولم أكن قد رأيته من قبل. كان رجلًا طويلًا منتصب القامة قوي البنية، لا ينحني إلى الأمام رغم سنواته السبعين التي يحملها على كتفيه. كان يحمل في يده سيخًا حديديًّا يبدو أنه ينوي استعماله كأداة قتال، وقد بدأ فعلًا في استعماله لإزاحة الكلبة من طريقه.

قال: أبعدها عنّي حتى لا أؤذيها.

ناديت على الكلبة، فتراجعت إلى ركنها المعتاد. لكني كنت مشغول الفكر بالزوجة المهووسة، التي قد تذهب الآن إلى آخرين وتقول لهم إن زوجها يهدّدني، أو حتى قد تتصل تليفونيًّا برجال الشرطة.

فكّرت كذلك في جدوى دوراني في الشوارع طوال حياتي، مختلطًا بالرعَاع من حثالة البشر، لو لم أتمكن في الموقف الحالي من الاستفادة بهذه الخبرة في الوصول إلى التصرّف الأمثل، لتهدئة هذا الشخص الهائج الماثل أمامي. ما فاجأني فعلًا هو أنه كان مثلي بذراع واحدة.

رغم أنني أراه لأول مرّة، إلا أنني أعرف تمامًا مفتاح شخصيته،

الذي يمكنني أن أستعمله الآن لتهدئة الموقف. فكّرت في أغلى زجاجة براندي لديَّ الآن في منزلي، التي لن يستطيع مدمن خمور أن يقاوم رغبته في احتسائها. فإذا كان فعلًا لا يتوقّف طوال ساعات النهار عن احتساء الخمور، فهو لن يتردّد في تأجيل مسألة قتلي حتى يأتي أولًا على هذه الزجاجة.

كنت أقف في شرفة الطابق العلوي، فطلبتُ من مايك أن يصعد إلى الشرفة بعد أن أشرت عرضًا إلى اسم زجاجة الخمر، التي سأذهب للإتيان بها وتقديمها إليه. نجحت الخطّة؛ إذ إنه جلس مستكينًا على كرسيٍّ إلى جواري.

قال: لقد ضربت صوفي زوجتي مساء أمس، وربطتها طوال الليل بحبل إلى عامود الفراش، إلا أنها تمكنت من تخليص نفسها، سأقتلك فور الانتهاء من الزجاجة، ثم ألحق بها هي الأخرى لأقتلها.

كنت معتادًا على أن أحتفظ في جيبي بمسدس محشو بالطلقات، منذ أن تعرّضت منذ سنوات في حواري نيويورك لمحاولة سرقة واغتيال، وقد وضعته من جديد في جيبي عندما ذهبت لإحضار زجاجة البراندي.

طبعًا أنا في حالة دفاعي عن نفسي، لن أرغب في قتله، بل فقط أرغب في توجيه رصاصة إلى الساق أو إلى القدم، تجعله عاجزًا عن تنفيذ خطّته. قرّرت أن أستمرّ في لعب دور اللا مبالي، فبالإضافة إلى المسدس، كنت في الأربعين من عمري، وفي حالة بدنية جيّدة، فرغم أنه أكبر مني حجمًا، إلا أنني لو اضطررت إلى استعمال القوّة البدنية، أستطيع أن أتغلب عليه.

t.me/qurssan

(٧)

بعد الكأس الثانية، دار بيننا هذا الحوار الوديّ:

سألته: هل كنت بحّارًا لمدّة طويلة؟

قال: حوالي عشر سنوات.

سألت: هل ذهبت شرقًا إلى الصين أو غربًا إلى أمريكا؟

قال: لم أخرج من دائرة مدن حوض البحر المتوسّط، ولم أعمل إلا على القوارب الشراعية، ولم أضع قدمي أبدًا فوق سفينة تدور بالمحرّكات الكهربائية.

سألت: وكيف إذَنْ تعلّمت إصلاح الآلات الميكانيكية والكهربائية؟

قال: على البرّ، وباجتهاد ذاتي.

سألت: وهل فقدت ذراعك أثناء الصيد؟

قال: لا. بل تكعبلت قدمي ذات يوم، فسقطت أمام ترام مارسيليا الكهربائي وأكل ذراعي!

سأل: وأنت؟

قلت: في انفجار قنبلة أثناء الحرب وأنا أؤدّي الخدمة العسكرية الإجبارية.

لم أقل (الحرب العالمية الأولى)، فنحن في سنة ١٩٢٧ لم نكن نعرف بعد أن هناك حربًا عالمية ثانية ستقوم بعد سنوات قليلة.

t.me/qurssan

بعد احتساء ثلاثة كؤوس، وقد أخذت ملامح وجهه في الاسترخاء، قلت: سؤال أخير، لماذا تريد أن تقتلني؟

قال: لأن صوفي خانتني معك.

سألت: وما دليلك على هذه التهمة؟

قال: مساء أمس وجدت بقايا سائل منوي في ملابسها الداخلية، وأنت الرجل الوحيد الذي ظهر مؤخّرًا في حياتنا.

قلت في محاولة للنجاة: لقد فقدت قدراتي الجنسية بسبب انفجار القنبلة، لكنني لا أدور في الشوارع لأعلن هذا لكل الناس.

ضحك ضحكة قصيرة، ثم بان الهمّ من جديد على وجهه، ثم قال: "أنا آسف لإزعاجك، لكنها إذَنْ قد خانتني مع رجل آخر، ولهذا فهي تستحق القتل، وسأبحث عنها حتى أقتلها، فأنا قد انتشلتها من الشوارع على أمل أن ينصلح حالها".

وانتفض من مكانه، واختفى في بضع ثوان.

قرّرت أن أغادر هذا المكان صباح الغد؛ لأن الوقت كان قد تأخّر على المغادرة الآن، إلا أنني بدأت على الفور في جمع أشيائي، وفي تريب أغراضي داخل الحقائب التي نقلتها إلى السيّارة، حتى أغادر صباحًا عند شروق الشمس بنيّة الانتقال إلى منطقة أخرى في الجنوب، أو حتى إذا لزم الأمر العودة إلى منزلي في ضواحي باريس.

قبيل ذهابي إلى الفراش، جاء شخص من الجوار، وقال لي إن مايكل مات بسكتة قلبية، وإن كل معارفه وجيرانه يتجمّعون الآن في كوخه، لمعرفة كيفية تنظيم مسألة دفنه، فهو بلا أولاد أو أقارب، وقد

t.me/qurssan

اختفت زوجته الشابة صوفي. لم يكن هذا الشخص يعرف بمسألة اتهامه لها بالخيانة، وتهديده لها بالقتل.

(٨)

أثناء ذهابي مع هذا الجار تساءلت، إن كانت الأزمة القلبية هي بسبب الغيرة من قيام علاقة بين زوجته وبين رجل أصغر منه سنًّا، كما هي الحال دائمًا في هذا النوع من الزيجات؟

أم أن الأزمة كانت بسبب إحساسه بأنه أحبّها إلى درجة أنه لن يستطيع أن يتخيّل الحياة دونها؟ على أي الأحوال هذه نهاية درامية عنيفة لمثل هذه القصّة المعتادة.

عند الوصول إلى الكوخ، كان الجثمان ممدّدًا على مائدة في منتصف الحجرة، وقد قمت على الفور بدفع المبلغ اللازم للمشاركة في مصاريف الدفن، ثم التفت انتباهي إلى أحد أركان هذه الحجرة، حيث وجدت العشرات من الأقمشة المستعملة في الرسم والتلوين، مطوية داخل بعضها البعض، وملقاة على الأرض في إهمال، فرفعتها كلها عن الأرض، وبدأتُ في فكّها من بعضها، ثم في فردها لوحة لوحة بحبّ استطلاع جعلني أنسى مسألة دفن الجثّة.

المناظر المرسومة شديدة التنوّع:

١ - غابة عذراء بأشجار ضخمة، ليست من نوع الأشجار المنتشرة في غابات أوروبا، بل هي غالبًا من أشجار وادي نهر الأمازون. هذا بالتأكيد من مناظر أمريكا الجنوبية.

t.me/qurssan

٢- جريان نهر في حالة من الهدوء، مما سمح بظهور بعض التماسيح في مياهه وعلى ضفافه. هذا بالتأكيد من مناظر أفريقيا الاستوائية.

٣- منظر غريب لفريق من الرجال المرتدين لثياب ثقيلة، أثناء عملية محاولة صيد مجموعة من الدببة البيضاء، على أرض تكسوها طبقة من الجليد الكثيف. هذا بالتأكيد من مناظر القطب الشمالي.

٤- منظر لعملية صيد حوت، مأخوذ من فوق ظهر إحدى السفن المتخصّصة في صيد الحيتان، في منطقة تبدو قريبة الشبه من مياه جنوب المحيط الهندي، عند رأس الرجاء الصالح.

٥- منظر لعمليات إنزال قوّات عسكرية حربية على ساحل بحري، تبدو كما لو كانت أثناء غزو القوّات الفرنسية سنة ١٨٦١ لسواحل المكسيك.

٦- منظر لعمليات بناء برج إيفل في باريس سنة ١٩٨٩.

٧- منظر لانفجار بركان فيزوف، على الساحل الإيطالي جنوب مدينة نابولي.

٨- منظر للزلزال الذي هدم نصف منازل مدينة لشبونة عاصمة البرتغال.

هل ذهب مايك إلى كل هذه الأماكن؟ هل كان يكذب عليَّ عندما قال إنه لم يخرج من البحر المتوسّط؟ أم أن كل هذه المناظر هي بوحيٍ من خيالاته الخصبة؟

t.me/qurssan

(٩)

أسلوبه في الرسم قريب الشبه جدًّا، من أسلوب الفن الساذج، وهو الأسلوب الذي ارتبط باسم رسّام آخر، اشتهر مؤخّرًا في متاحف ومعارض باريس، هو روسّو الذي عمل موظّفًا *douanier* في جمارك باريس، فسمّي رجل الجمارك روسّو، وهو اللقب الذي ارتبط باسمه *le douanier Rousseau*.

قلت في نفسي لو أن تجّار اللوحات الفنية في باريس، كانوا قد اكتشفوا هذه المجموعة من اللوحات، لأمكنهم بالتأكيد أن يصنعوا من صاحبها أسطورة أخرى مثل أسطورة روسّو.

أنا الآن وأنا أكتب هذا الموضوع في سنة ١٩٤٧ لا أعرف مصير هذه اللوحات، لكني كثيرًا ما تساءلت: كيف لهذا الرجل الذي ادّعى الجهل أن يرسم كل هذه المناظر؟

أعتقد الآن أنه من الجائز أن يكون قد طاف الدنيا كلها، لكنه كما يحدث غالبًا لمَن هم فوق سن السبعين، كان قد دخل في مرحلة الزهد في الدنيا، وعدم الرغبة في الحديث عن ذكريات الحياة، نتيجة إحساس عام باللا جدوى؟ أو أن ضعف الذاكرة بسبب الشيخوخة جعله ينسى هذه الذكريات؟

❊ ❊ ❊

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الحادي عشر

انتحار شاعر

(١)

كنت قد فقدت الأمل في إتمام الكتاب الذي بدأت في كتابته قبل شهور طويلة، وذلك بسبب انشغالي الدائم بموضوع جديد، ظهر مؤخّرًا في فرنسا قبل نحو عامين، وأخذ يشغل الرأي العام على المستوى القومي، وهو مسألة الاختراعات العلمية العديدة التي تخرج إلى الوجود كل يوم، وإمكانية الاستفادة منها في تطبيقات على حياة الفرنسيين العملية اليومية.

كان اهتمامي بهذه المسألة قد بدأ منذ كنت أقيم في البرازيل، حيث اكتشفت أنهم يملكون في حوض نهر الأمازون، أكبر مساحة غابات موجودة في دولة واحدة في العالم أجمع، ملايين الهكتارات من الأراضي القابلة للزراعة، لكنها مشغولة بأشجار عملاقة.

هكذا بدأ المشروع القومي لتطوير البرازيل:

t.me/qurssan

أولًا- بقطع هذه الأشجار والاستفادة منها بتصدير أخشابها إلى العالم أجمع، أو الاستفادة بأخشابها في عمليات البناء العملاقة الجارية الآن في البرازيل، ناطحات سحاب عملاقة على غرار ما هو قائم الآن في أمريكا الشمالية، أو كَبارٍ عملاقة تصل بين المدن، وتعبر فوق المسطّحات المائية.

وثانيًا- بتحويل هذه الأراضي الشاسعة إلى أراضٍ قابلة للاستصلاح الزراعي، تمهيدًا لزراعتها بالمحاصيل الغذائية المختلفة، المطلوبة لإطعام هذا الشعب الكثير العدد السريع التكاثر، مثل محاصيل القمح والذرة.

إلَّا أن الجانب السلبي لهذه المشروعات الضخمة، هو تلوّث الهواء الناتج عن احتراق ملايين الأطنان من المواد البترولية، المستعملة في تشغيل الآلات الضخمة، اللازمة لقطع الأشجار ولاستصلاح الأراضي.

كنت خلال إقامتي في البرازيل قد ساهمت في إدارة بعض هذه المشروعات، بحكم عملي كوسيط لتسهيل التعاون بين البرازيل وبين بعض الدول الأوروبية التي كانت البرازيل تستورد منها هذه الآلات التكنولوجية الضخمة.

طبعًا كنت قد تمكّنت من الحصول على العمل كوسيط بفضل اللغات التي أتكلّمها، والبلاد الأوروبية التي أعرفها، وكذلك بفضل المناخ الذي ساد العالم في فترة ما بين الحربين العالميتين، وأدّى إلى قيام تعاون كبير بين العديد من الدول الكبرى؛ في محاولة من الجنس البشري وقتها لتعويض خسائر الحرب الأولى ونسيان ويلاتها.

t.me/qurssan

لم يكن أحد وقتها يتحدّث عن ضرورة الحفاظ على البيئة، وعن ضرورة منع التدهور البيئي، وعن خطورة التدمير الذي يصيب الغابات، وعن تأثير ذلك على مناخ العالم، وعلى ارتفاع نسبة التلوّث في الجو، بل على العكس؛ كان الكل فخورًا بعمله في تحويل أراضي الغابات إلى أراضٍ صالحة للزراعة. لن يبدأ الحديث عن الحفاظ على البيئة إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

(٢)

كنت في ذلك الوقت أعتقد أن عملي، الذي أقوم فيه بربط أطراف بعضها، هو لصالح جميع الأطراف، وقد تقابلت مرات عديدة مع رئيس جمهورية البرازيل، الذي كان يتحدّث معي بالفرنسية التي يجيدها؛ لمناقشة تفاصيل المشروعات الكبرى، في الوقت الذي كانت فيه البرازيل تتعامل مع كل أوروبي يصل إليها -مهما كان مستواه الثقافي- على أنه خبير أجنبي.

لكني كنت في احتياج إلى مساعدين على جانبي الأطلنطي، في فرنسا عندما أكون في البرازيل، وفي البرازيل عندما أكون في فرنسا؛ لتسهيل الحصول على المعلومات من شركات إنتاج الآلات، وشركات نقل البضائع عبر البحار، وتسهيل إرسال البرقيّات التلغرافية بالمعلومات؛ ذلك لأن خطوط التليفونات لم تكن قد تمكنت بعد من عبور المحيطات.

في ذلك الوقت كانت البرقيّات التلغرافية هي أسرع وسيلة اتصال

t.me/qurssan

متاحة، إذ كانت تصل في التوّ واللحظة، أما الرسائل بالبريد الجوّي فكانت تستغرق ثلاثة أيام على الأقل باستعمال الطائرة.

في العشرينيات كان الانتقال بالطائرات لا يزال في بداياته، ولم تكن هناك خطوط يومية لنقل الركّاب بين كلّ الدول، كان هذا متاحًا فقط بين عواصم الدول الأوروبية، لذلك لم يكن هناك بين باريس وريو دي جانيرو إلا رحلتان كل أسبوع، ولذلك لم يكن البريد الجوّي يصل إلينا في البرازيل قادمًا من فرنسا إلا مع هاتين الرحلتين الجوّيتين الوحيدتين.

أما نقل الآلات والمعدّات فكان يتمّ عبر خطوط الملاحة البحرية شبه المنتظمة، ويستغرق الوصول من موانئ شمال فرنسا، في كاليه أو الهافر أو دنكرك، إلى موانئ البرازيل، في ريو دي جانيرو أو سان باولو، عشرين يومًا إذا لم تتوقّف السفينة في الطريق في موانئ أمريكا الشمالية مثل بوسطون أو نيويورك، أو في موانئ جزر البحر الكاريبي، مثل هافانا في كوبا، أو في جزر المارتينيك الفرنسية.

(٣)

كان لديّ صديق شاعر اسمه (أندريه)، يعمل موظّفًا إداريًّا في إحدى شركات الملاحة البحرية، التي مقرّها ميناء مارسيليا، حيث توجد مقار أغلب الشركات التجارية الأوروبية الكبرى، وكان قد تخرّج في مدرسة القانون بمارسيليا، ووصل إلى مرحلة إتقان العمل في تخصّص، صياغة العقود الخاصة بالاستيراد والتصدير، بين الشركات

t.me/qurssan

المتعدّدة الجنسيّات *multinational*، وكان هذا النوع من الشراكة لا يزال في بداياته، ولا يزال أغلب العاملين فيه يجهلون حجم التناقض الموجود بين التشريعات الخاصة بهذا المجال بين الدول وبعضها. هذا الشاعر هو الشخص الذي أصبحت أعتمد عليه كمندوب لي في فرنسا.

عندما تعرّفت عليه لأول مرّة، كنت أقيم في المنزل أعلى التلّ في منطقة (لارودون)، حيث جاء لزيارتي وأبدى إعجابه بالمنظر البانورامي الجميل لخلجان منطقة الساحل غرب مارسيليا، وإذا بي أفاجأ بعد زيارته هذه مباشرة بوفود أعداد كبيرة من السيّاح الأجانب إلى منطقة أعلى التلّ حيث أقيم، لمشاهدة المنظر البانورامي، ووجدت أن الأدلّة السياحية المطبوعة في أيدي السيّاح تشير إلى المكان، وتدلّ السيّاح على خطوات الوصول إلى هذا المكان، أولًا باستعمال القطار لمسافة ٢٠ كيلو مترًا، وثانيًا بارتقاء التلّ مشيًا على الأقدام.

أدركت أن أندريه هو السبب في هذا التدفّق السياحي، بعد أن وجدت أنه في الكتيّبات السياحية إلى جوار الصورة الفوتوغرافية لهذا المنظر الساحر، التي كان قد التقطها بنفسه، توجد في الدليل السياحي، أبيات قصيدة شِعرية من تأليفه، وجد الجرأة في أن يضع عليها توقيعه!

شعرت في البداية بالغيظ، وكان في نيّتي ألّا أغفر له أبدًا هذه الخيانة، التي أضاعت عليَّ هدوء المكان وسكينته، مما جعلني في النهاية أغادره آسفًا عليه، إلا أنني بعد أن قمت بإعادة النظر في الموضوع، أدركتُ أن موهبة هذا الشاعر الحقيقية ليست في قرض الشِّعر، بقدر ما هي في

t.me/qurssan

القدرة على تحويل هذا الشِّعر إلى بيزنس. هذه الانتهازية هي بالتحديد ما جعلني لاحقًا أثق فيه كرجل أعمال حرة، أو كما يقول الأمريكيّون (بيزنس مان).

(٤)

تعرّضت أثناء إقامتي في البرازيل للعديد من المعارك الكلامية، التي وصل بعضها فعلًا إلى مرحلة الاشتباك بالأيدي مع بعض أعضاء الحكومة وأعضاء الأحزاب السياسية، ومع بعض رجال الأعمال المتاجرين في الوقود البترولي، ومع بعض الصحفيين الذين كانوا يشجّعون الاحتكارات الأمريكية، التي كانت في ذلك الوقت تتوسّع في كل دول أمريكا اللاتينية، على حساب المصالح الأوروبية التي كان يؤخذ عليها في ذلك الوقت، تاريخها الاستعماري الطويل، قبل أن يدرك الجميع لاحقًا أن الاستعمار الاقتصادي الأمريكي هو أكثر جلبًا للوبال والكوارث على بلاد أمريكا اللاتينية، من الاستعمار الأوروبي التقليدي القديم.

في ذلك الوقت كانت شركات السيّارات في مدينة ديترويت الأمريكية تحتكر توريد السيّارات من الموديلات الأمريكية إلى البرازيل، وهي أكثر الصناعات الأمريكية في القرن العشرين ارتباطًا برجال المال في بنوك وول ستريت، وبالتالي كان من مصلحة أصحاب هذه البنوك استمرار تلك الاحتكارات، وامتدادها إلى تجارة قطع غيار السيّارات.

كان هذا هو المناخ العام الذي كنت أبحث فيه عن فتح أبواب بيع

t.me/qurssan

الجرّارات والآلات الأوروبية إلى البرازيليين، وهو ما يجعلكم تدركون حجم المجهود الجسماني والذهني الذي كان عليّ أن أبذله، لكنّي في ذلك الوقت كنت لا أزال شابًا قادرًا على بذل هذا المجهود.

بدت لي العملية الذهنية الخاصة بالحوار، مع أصحاب القرار من المسؤولين البرازيليين، في محاولة لإقناعهم بالشراء، عملية ممتعة تمامًا، حتى بصرف النظر عن تحقيق نتائج سريعة، فكلما كان هناك رفض مبدئي لأفكاري، كلما حاولت أن أعود إلى نفس المسؤول بأفكار جديدة، وبحجج مقبولة. لكن كان من الضروري أحيانًا اللجوء إلى قدر كبير من الدبلوماسية.

من المهم هنا كذلك أن أضيف ملحوظة خاصة، بقدرة البنوك على تسهيل عمليات انتقال الأموال بين بلاد العالم، رغم استعمال هذه البلاد لعملات نقدية مختلفة، مما يجعلني في تساؤل دائم حول كيف كان الناس يشترون ويبيعون بين الدول المختلفة قبل اختراع الأنظمة البنكية؟

(٥)

عندما كنتُ أعود من البرازيل إلى فرنسا بالطائرة، من أجل حلّ مشكلة معقّدة تتعلق بالتصدير من فرنسا إلى الخارج، كنت أنتهز الفرصة للحصول على إجازات طويلة أو قصيرة. وحيث إن كل المصالح الحكومية الفرنسية المعنية بالتصدير باستخدام السفن توجد في ميناء مارسيليا، كنت أعود إلى الإقامة في البيت فوق التل، حيث كنت أقضي وقتًا طويلًا في أيام فراغي من العمل، أو في أيام انتظار الردّ من جهة

t.me/qurssan

القدرة على تحويل هذا الشّعر إلى بيزنس. هذه الانتهازية هي بالتحديد ما جعلني لاحقًا أثق فيه كرجل أعمال حرة، أو كما يقول الأمريكيّون (بيزنس مان).

(٤)

تعرّضت أثناء إقامتي في البرازيل للعديد من المعارك الكلامية، التي وصل بعضها فعلًا إلى مرحلة الاشتباك بالأيدي مع بعض أعضاء الحكومة وأعضاء الأحزاب السياسية، ومع بعض رجال الأعمال المتاجرين في الوقود البترولي، ومع بعض الصحفيين الذين كانوا يشجّعون الاحتكارات الأمريكية، التي كانت في ذلك الوقت تتوسّع في كل دول أمريكا اللاتينية، على حساب المصالح الأوروبية التي كان يؤخذ عليها في ذلك الوقت، تاريخها الاستعماري الطويل، قبل أن يدرك الجميع لاحقًا أن الاستعمار الاقتصادي الأمريكي هو أكثر جلبًا للوبال والكوارث على بلاد أمريكا اللاتينية، من الاستعمار الأوروبي التقليدي القديم.

في ذلك الوقت كانت شركات السيّارات في مدينة ديترويت الأمريكية تحتكر توريد السيّارات من الموديلات الأمريكية إلى البرازيل، وهي أكثر الصناعات الأمريكية في القرن العشرين ارتباطًا برجال المال في بنوك وول ستريت، وبالتالي كان من مصلحة أصحاب هذه البنوك استمرار تلك الاحتكارات، وامتدادها إلى تجارة قطع غيار السيّارات.

كان هذا هو المناخ العام الذي كنت أبحث فيه عن فتح أبواب بيع

t.me/qurssan

الجرارات والآلات الأوروبية إلى البرازيليين، وهو ما يجعلكم تدركون حجم المجهود الجسماني والذهني الذي كان عليّ أن أبذله، لكنّي في ذلك الوقت كنت لا أزال شابًا قادرًا على بذل هذا المجهود.

بدت لي العملية الذهنية الخاصة بالحوار، مع أصحاب القرار من المسؤولين البرازيليين، في محاولة لإقناعهم بالشراء، عملية ممتعة تمامًا، حتى بصرف النظر عن تحقيق نتائج سريعة، فكلما كان هناك رفض مبدئي لأفكاري، كلما حاولت أن أعود إلى نفس المسؤول بأفكار جديدة، وبحجج مقبولة. لكن كان من الضروري أحيانًا اللجوء إلى قدر كبير من الدبلوماسية.

من المهم هنا كذلك أن أضيف ملحوظة خاصة، بقدرة البنوك على تسهيل عمليات انتقال الأموال بين بلاد العالم، رغم استعمال هذه البلاد لعملات نقدية مختلفة، مما يجعلني في تساؤل دائم حول كيف كان الناس يشترون ويبيعون بين الدول المختلفة قبل اختراع الأنظمة البنكية؟

(٥)

عندما كنتُ أعود من البرازيل إلى فرنسا بالطائرة، من أجل حلّ مشكلة معقّدة تتعلق بالتصدير من فرنسا إلى الخارج، كنت أنتهز الفرصة للحصول على إجازات طويلة أو قصيرة. وحيث إن كل المصالح الحكومية الفرنسية المعنية بالتصدير باستخدام السفن توجد في ميناء مارسيليا، كنت أعود إلى الإقامة في البيت فوق التل، حيث كنت أقضي وقتًا طويلًا في أيام فراغي من العمل، أو في أيام انتظار الردّ من جهة

t.me/qurssan

مسؤولة، متنقّلًا بين الصخور، متأملًا السفن والبحر والخلجان، وكنت أترك باب بيت المنزل فوق التلّ مفتوحًا، حتى يدخل أندريه وينتظرني حتى أعود من جولاتي، التي لم تكن لها مواعيد محدّدة.

لاحظ أندريه ذات يوم وجود آلة الطباعة النمطية (التايب رايتر *type writer*)، الموجودة على المائدة إلى جوار النافذة، ولاحظ كذلك وجود نفس الأوراق التي أكتب فيها نصّي الجديد. كنت منذ حضرت إلى مارسيليا هذه المرة، قد توقّفت في هذا النصّ عند جملة معيّنة، لم أضف إليه كلمة جديدة منذ أيام، فقرّر أندريه مساعدتي بقراءة الصفحات السابقة، ومحاولة إضافة فقرة من تأليفه، لإخراجي من الورطة التي وضعت بطل روايتي فيها. في الحقيقة كانت إضافته رائعة، وبالتالي احتفظت بها في روايتي الجديدة، لكني لن أذكر لكم هنا الآن المزيد من التفصيل.

كان أندريه موهوبًا في أشياء عديدة:

١- منها مثلًا أنه بفضل وسامته وقوامه الرياضي، وبفضل قدراته اللغوية في اختيار الكلمات الجميلة، وفي إلقاء النكات المضحكة، كان قادرًا على الإيقاع بأيّ امرأة في شباكه.

٢- اكتشفت بعد ذلك موهبته التجارية، وقدرته الانتهازية على التقاط الفرص التجارية المتاحة.

٣- إلا أن موهبة أندريه الأدبية كانت هي الأخرى لا شكّ فيها، وكان قد بدأ مبكّرًا في حياته في نشر قصائده الشِّعرية، في الجرائد المحلية لمنطقة جنوب فرنسا.

t.me/qurssan

في الحقيقة حدث في مرّات عديدة أن قابلت أندريه ومعه في كل مرة فتاة جديدة لم تكن معه من قبل، وكان بعد أن يزهد فيها لا يبخل على أصدقائه المقرّبين بتعريفهم بها، لعلّها تجد من بينهم مَن يستطيع أن يحلّ محلّ أندريه عند تخلّيه عنها، فلا تتسبّب له في مشاكل. كان يدعوني أحيانًا إلى الطعام في مطاعم مارسيليا ومعه فتاة، حتى يتعرّف كلٌّ منا على الآخر، لعلّ وعسى.

إلا أنه عندما تزوّج بعد ذلك بفترة طويلة، لم يسمح لي ولا مرّة واحدة بمشاهدة زوجته، وهو كعادة كل الرجال من هذا النوع، قد يسمح لك بالتعرّف على عشيقاته، إلا أنه لا يمكن له بأي حال من الأحوال أن يسمح لك بالتعرّف على زوجته، فكما أنه كان يسهل عليه الإيقاع بالنساء، كان يخاف على زوجته من الرجال الذين قد يتمكّنون من الإيقاع بها. هذه هي إحدى القواعد العامة في العلاقات الإنسانية.

(٦)

كنت قد قابلت أندريه لأول مرة في إسطنبول، حيث قدّم لي نفسه على أنه يقيم بشكل مؤقّت هناك، بصفته وكيلًا لإحدى الشركات الفرنسية التي تقوم بشحن البضائع في السفن في مارسيليا، وتقوم بتفريغ نفس السفن في ميناء الوصول، فإذا جاءت شحنات سفن من مارسيليا، أشرف هو على تفريغ حمولاتها، وذكر لي أنه في بعض المواسم كانت هناك سفن شحن من مارسيليا تقريبًا كل يوم. في فترة ما بين الحربين العالميتين، كانت التجارة العالمية قد ازدهرت لبعض الوقت.

t.me/qurssan

كنت أنا في إسطنبول في محاولة منّي لاستعادة البيزنس الذي برعت فيه قبل الحرب الأولى، وهو بيزنس العمل كوسيط في شراء وبيع المشغولات الذهبية والأحجار الكريمة. كان الروسي ليبيديف *Lebedeff*، الذي سبق لي العمل معه، قد أصبح صاحب أشهر محلّ للمجوهرات في إسطنبول، وهي المدينة التي كانت قد اكتسبت شهرة عالمية مؤخّرًا بسبب بداية تحوّلها إلى العلمانية، بعد خسارة تركيا الحرب عند دخولها حليفا مع ألمانيا، وبالتالي سقوط الخلافة العثمانية.

كان ليبيديف قد أرسل إليَّ تلغرافًا على عنواني في باريس، يطلب منّي فيه سرعة الحضور إلى إسطنبول بسبب ازدهار أعماله، ورغبته في افتتاح أفرع أخرى من محلاته، في أحياء أخرى من المدينة، حيث يمكن له فيها الاعتماد على أشخاص مثلي، لديهم خبرة في الأحجار الكريمة، ومعرفة بلغات أوروبية عديدة. هذا هو ما قاله في التلغراف. وكنت أنا في ذلك الوقت لا أزال لا أدري بعد ماذا سأفعل بمستقبل أيامي، فاستجبت على الفور لدعوته.

كانت موهبة أندريه الشِّعرية هي أول ما حدّثني به عن نفسه، إذ قال لي -بعد أن عرف أنني قد طبعت أعمالًا شِعريةً لدى بعض دور النشر الباريسية- إنه يرغب في فعل الشيء نفسه، ويتعشّم أن أساعده في تقديمه إلى دور النشر الباريسية، فطلبت منه أولًا أن يسمعني بعض نماذج من أعماله، وقد حدث على الفور أن أدركت موهبته، وقرّرت مساعدته. أخرجت على الفور بعض بطاقاتي الشخصية، التي تحمل اسمي وعنواني البريدي ورقم تلفوني، وكتبت على بعضها رسائل

t.me/qurssan

قصيرة، موجّهة إلى بعض أصحاب دور النشر الباريسية، وبها بعض عبارات التقريظ لموهبة أندريه الشِّعرية. كنت أعتقد في تلك اللحظة أننا لن نتقابل مرّة ثانية.

بعد تلك المقابلة الأولى بسنوات، تقابلنا مرة ثانية بالصدفة البحتة أثناء مشيي العشوائي في شارع كانبيار الرئيس، المؤدّي إلى الميناء القديم في مارسيليا. في ذلك اللقاء الثاني حكى لي أندريه كيف كان ذهابه إلى باريس، وكيف كان لقاؤه بمجموعة الشعراء السيرياليين، أو الما وراء واقعيين، وقد أنصتُّ إليه وإلى ما قاله عنهم، وإلى ما أعجبه في أشعارهم.

(٧)

كنت منذ ذلك الوقت المبكّر أعتقد أنهم لم يكونوا يستحقّون من الجمهور الأدبي كل هذا الاهتمام الذي أحاطوهم به. وكنت أؤكّد دائمًا على أن الشعراء السيرياليين يتعمّدون الغموض والإبهام في أعمالهم الشِّعرية، وعلى أن الرسّامين السرياليين يتكلّفون ما يظهرونه من جنون في تصرّفاتهم، وكلهم سواء أكانوا من الشعراء أم من الرسّامين، يتكلّفون في الكلمات التي ينطقون بها في المناسبات التي يتمّ الاحتفاء بهم فيها.

لكن كان أخطر ما حدث لأندريه معهم هو أنه قد وقع في أسر المخدّرات، أو المركّبات الكيميائية التي يتناولونها وتجعلهم يهلوسون. أنا مثلًا رغم بقائي في الصين لمدّة سنتين، إلا أنني لم أفكّر مرة واحدة في تجربة مركّبات الهلوسة التي يدخّنونها هناك. لم يحدث

t.me/qurssan

هذا بفضل وازع أخلاقي، ولكن بسبب رغبتي في الاحتفاظ بصفاء ذهني وبوضوح أفكاري. المادة الوحيدة التي استعملتها، لكني لم أدمنها، هي الأفيون.

لكني أعتقد الآن أن المركّبات الكيميائية التي تنتجها المعامل الصيدلانية الحديثة أخطر بكثير من المنتجات الطبيعية من محاصيل الحقول مثل الحشيش والأفيون، فالأولى تعرّض العقل لمخاطر كبيرة منها التلف التام النهائي للقدرات الذهنية، وهو التلف الذي يذهب به الإنسان في رحلة ذات اتجاه واحد، رحلة بلا عودة إلى عالم الجنون، في حين لا يتعدّى تأثير الثانية أن تجعل المتعاطي، ينفصل مؤقّتًا عن عالمه الأرضي بما فيه من معاناة. رغم أنني أعرف كذلك أن التسمّم بالأفيون يمكن أن يُفضي إلى الموت، بعد مرحلة عذاب مستمر يأكل ببطء الروح والجسد، كما شاهدته في حالات إدمان وقعت لبعض الأصدقاء المقرّبين.

(٨)

كان أندريه قد عاد إلى الاستقرار في مارسيليا وكيلًا لشركات شحن البضائع، وانتهز فرصة استقراره هذه، ليبدأ في إصدار دورية أدبية شهرية مستقلّة، تُعنى بالشّعر والنثر والنقد الأدبي، أطلق عليها اسم (كرّاسات الجنوب)، كانت في بداياتها قادرة بشجاعة على فضح مدّعي الأدب، وعلى مواجهة العقليات المتزمّتة، بدليل مثلًا المقال الشجاع المنشور تعليقًا على ظهور العمل الأدبي الرائع للأديب الفرنسي المعاصر

t.me/qurssan

(أندريه جيد *Gide*)، المعنون (الغذاء الأرضي *Les Nourritures terrestres*)، الذي يقرّظ فيه كاتب المقال (ويُدعى لامبير) مؤلّف العمل، على شجاعته في عرض قضيّة المثلية الجنسية، حيث يكتب المؤلّف بوضوح وبلا لبس عن تجربته الشخصية في الجنسية المثلية. تتحوّل هذه الدورية قرب نهاياتها -مثل غيرها من الدوريات الصغيرة- إلى أداة للتهديد السياسي والابتزاز ولنشر الفضائح الأخلاقية.

عادة ما يقدّم المدعو (لامبير)، الذي لم أتشرّف بلقائه، إلى قرّاء المجلّة، نقدًا على قدر كبير من البصيرة والفطنة، يشبه الطريقة التي اعتاد الأكاديميون من أساتذة الجامعات أن يكتبوا بها مقالاتهم النقدية، بالإضافة إلى استعداده الدائم للاستعانة بالتفسيرات النفسية (السيكولوجية) في تحليل العمل الروائي، وهذا الاتجاه النفسي في التحليل الروائي كان لا يزال في بداياته.

لم يكن انقطاع الصِّلات بيننا أنا وأندريه يسمح بتبادل الخطابات، وبالتالي لم أكن أعرف كيف يتطوّر مشواره الشِّعري، لذلك عندنا وقعت في يدي بعض الأعداد من (كرّاسات الجنوب)، أدركت أنه يمكنه أن يصبح شاعرًا مهمًّا في تاريخ فرنسا الشِّعري.

إلا أن المؤسف في الموضوع، هو أن هذه المجلّة الدورية، لم تكن تغطّي تكاليف إنتاجها، لذلك انتشرت في الأوساط الأدبية في مارسيليا قصّة رواها لي أحد شعراء المدينة، مفادها أن أندريه قد أوقع في غرامه سيّدة ثريّة، وهي أرملة لأحد كبار رجال البنوك، وأنها هي التي تتولّى عملية الإنفاق على المجلّة.

t.me/qurssan

هذه الإشاعة كانت بالنسبة لي محتملة الحدوث جدًّا، من واقع خبرتي بتاريخ أندريه العاطفي؛ إذ إنني عندما اقتربت منه أكثر وأكثر في مرحلة العمل المشترك في تحرير عقود تصدير الآلات من فرنسا إلى البرازيل، وإرسال البرقيات بالمعلومات أولًا بأول، أدركت أنه في كل مرّة يأتي فيها إلى منزلي أعلى التلّ كان يحضر معه امرأة جديدة، وأنه لم يحدث أبدًا، أن تكرّر حضور نفس المرأة إلى البيت.

(٩)

عندما حان موعد سفري من جديد في منتصف مايو عائدًا إلى البرازيل، وأنا كنت أتحرّى البقاء في فرنسا خلال فصول شتائها، والذهاب إلى البرازيل خلال فصول شتائها، فأنا أكثر ميلًا إلى المناخ البارد منّي إلى المناخ الحار، ومن المعروف عن البرازيل التي تقع غاباتها في المنطقة الحارة، المعروفة بأنها تحت الاستوائية *subtropical*، ارتفاع الحرارة الشديد هناك خلال فصول الصيف، ومن المعروف كذلك أن يونيو ويوليو وأغسطس في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، هي شهور الشتاء في بلدان هذا النصف من الكرة الأرضية.

المهم هو أنني اخترت هذه المرّة سفينة تبحر مباشرة إلى ريو دي جانيرو، ولا تتوقّف أبدًا في أي مكان، بل تنطلق مباشرة من المحيط الأطلسي الشمالي إلى المحيط الأطلسي الجنوبي، وذلك حتى أوفّر لنفسي الهدوء التام، لمدّة ثلاثة أسابيع تقريبًا، حتى أتمكن بفضل العزلة النسبية من الانتهاء من الكتاب الذي كان يشغلني موضوعه في ذلك

t.me/qurssan

الوقت. وكنت قبل سفري بيوم قد أرسلت برقية إلى ناشري الباريسي، أعده بإرسال النصّ الكامل من الكتاب بالبريد الجوّي يوم وصل السفينة إلى ريو.

كنت قد اتخذت بيني وبين نفسي قرارًا آخر، يتعلّق برغبتي في الابتعاد التام عن الأوساط الأدبية، وذلك لسببين أولهما هو كثرة الشائعات والقيل والقال بين الأوساط الأدبية، فإذا كان هناك مَن ينقل إليك هذه الشائعات، فثق تمامًا من أنه ينقل إلى غيرك إشاعات عنك. وثانيهما هو أن الأدباء اعتادوا على النوم نهارًا، ثم الانشغال أثناء المساء بالسهر مع الأصدقاء واحتساء الخمور، على أن يقضوا ساعات الليل في الكتابة.

وأنا على العكس من ذلك تمامًا، فأنا أفضّل العمل في ضوء النهار الطبيعي، وأكره الأضواء الكهربائية، وحتى لو لم أكن مشغولًا بالكتابة نهارًا، فإني أفضل الانشغال نهارًا بجولات حرّة على الأقدام في مناطق الطبيعة البكر، مثل شواطئ البحار والأنهار، أو المناطق الجبلية، ومناطق الغابات.

كان هذا السبب الثاني هو نفسه من أهم أهداف عودتي الدائمة إلى البرازيل، التي تتوفّر في مناطق غاباتها مناظر طبيعة رائعة، وحيث كنت أتمكّن أحيانًا من استئجار أكواخ صغيرة على شواطئ البحار الرملية الدافئة، التي تقع على حواف غابات عذراء ليس لها مثيل في العالم، وحيث لن يتمكن أي شخص من معارفي مهما حاول من الاستدلال على مكاني.

t.me/qurssan

(١٠)

قبل مغادرة ذكريات تلك الفترة من حياتي، أودّ الإشارة إلى السقطة القاتلة التي تعرّض أندريه لها ذات يوم عند زيارته للبيت فوق التلّ. حدث هذا في يوم الأحد التالي على أحد عيد الفصح في أوائل مايو من سنة ١٩٢٧، وكان (أندريه جايار) قد أصبح شاعرًا معروفًا في الأوساط الأدبية الفرنسية.

كان قد جاء لزيارتي صباح ذلك اليوم، وبقي حتى موعد تناول وجبة الغذاء معي ومع بعض الأصدقاء الآخرين، ثمّ بعد الغذاء أراد أن يذهب وحده في جولة عند الصخور، على أن أذهب إلى محطّة القطارات القريبة في موعد قطار المساء الذي سيعود به إلى مارسيليا، حيث نلتقي من جديد حتى أودّعه قبل سفري الوشيك عائدًا إلى البرازيل.

كنت قد لاحظت في ذلك اليوم كيف أن أندريه كان غارقًا في خيالاته، فاعتقدت أنه يبحث في ذهنه عن حلول لبعض قصائده، ولم أقل له أي شيء، لذلك لم أعرف منه ما الأفكار التي كانت تشغل ذهنه، لكنني لم أكن قلقًا.

في موعد القطار الأخير لم يظهر أندريه على رصيف المحطّة، هنا بدأت أشعر بالقلق. لحسن الحظّ كانت الليلة مقمرة. قرّرت أن أذهب للبحث عنه في منطقة الصخور، التي أصبحت الآن أعرفها جيدًا، بعد أن قمت في السابق بعمل جولات عديدة فوقها.

t.me/qurssan

هناك يوجد الكثير من المناطق الخطيرة، منها منطقة خطيرة جدًّا، حيث يمرّ متسلّق الصخور بممرّ ضيق جدًّا على حافة جرف يرتفع حوالي عشرين مترًا فوق سطح البحر، فإذا فقدت توزنك تسقط لا محالة، إمّا في مياه البحر لو كنت محظوظا، وإما فوق الصخور لو كنت قليل الحظّ.

هناك لمحت جسد أندريه ممدّدًا فوق الصخور، ولم يكن يتحرّك. وصلت إلى مكانه بعد دقائق قليلة، فوجدته غائبًا عن الوعي. قرصته في ذراعه فلم يتألّم، اعتقدت أنه قد يكون ميّتًا، بسبب كسر في الجمجمة نتج عن ارتطام رأسه بالصخور. كانت الساعة الثانية عشرة مساءً، عندما قمت بنقله على ظهري إلى البيت.

هناك وضعته على الفراش، وأدركت أنه لا يزال على قيد الحياة. قمت بغسل جروح الرأس والذراعين بالكحول الأبيض لتطهيرها. إلا أنه لم يستجب لأيّ مؤثّرات خارجية، من تلك التي استعملتها في محاولة إفاقته بها، مثل شكشكة جلد الأطراف بدبّوس.

أدركت أن كتفه الأيمن مخلوع، أو من الجائز أنه كان مكسورًا؛ لأني عندما نقلت أندريه على ظهري، كان هذا الذراع يتدلّى إلى جوار الجسد، ولم أعرف كيف يمكنني التميز بين الحالتين، الخلع أو الكسر، لذلك قمت بربط هذا الذراع إلى جذع جسده، بحزام قديم كان لديّ، حتى لا يتأذّى هذا الذراع بأيّ حركات مفاجئة قد تصدر عنه عندما يفيق.

بعد وقت قليل استردّ أندريه وعيه، وبدأ يصرخ من شدّة الألم. قمت بنقله إلى السيّارة التي قدتها وصولًا إلى فندق (الأوبرج)، حيث توقّعت أن يدلّني أحد على أقرب جرّاح عظام، أو على الأقل مجبّر كسور. كانت الساعة قد أصبحت الثانية صباحًا.

بالصدفة البحتة اكتشفنا أنه من بين نزلاء الفندق في تلك الليلة يوجد أحد أطبّاء مارسيليا، وقد تسبّبت الضجّة التي أحدثها وصولنا، في إيقاظ كل نزلاء الأوبرج. قام هذا الطبيب مشكورًا على الفور بنقل (أندريه) في سيّارته إلى أحد مستشفيات مارسيليا.

أثبتت صور الأشعّة السينية، وجود كسور متعدّدة في الذراع اليمنى وفي الكتف الأيمن وفي ضلوع القفص الصدري، بالإضافة إلى جروح قطعية ورضّيّة متعدّدة، في الوجه وفي الأطراف الأربعة، منها جرح قطعي عميق في فروة الرأس من الخلف.

تساءلت بيني وبين نفسي: ماذا كان الأطبّاء يفعلون قبل اختراع أجهزة التصوير بالأشعّة السينية؟ وكيف كانوا يشخّصون الكسور؟ يبدو كذلك ولحسن الحظ، أنه لم يكن هناك أي نزيف دموي، لا خارج الجسم ولا داخله.

سؤالي الأخير لنفسي هو: هل كانت هذه السقطة طبيعية؟ أم أن أندريه كان يحاول الانتحار؟ أنا أعرف أن الرجال من هذا النوع من الرجال المتعدّدي العلاقات النسائية، الذين يسهل عليهم الإيقاع بأيّ

t.me/qurssan

امرأة تعجبهم، أولئك الذين اعتادوا على هجر المرأة عندما يملّونها، يبدأ هذا النوع من الرجال في فقد الثقة في نفسه، إذا حدث ذات يوم موقف عكسي، أي أنه بدلًا من أن يهجر هو المرأة، أن تكون المرأة هي التي هجرته. أقول ذلك رغم أن أندريه كان لا يزال شابًّا وفي حالة صحيّة طيّبة.

هل هي فعلًا مجرّد حادثة اختلال توازن؟ كان من المحتمل أن يفقد أندريه حياته غرقًا وهو فاقد الوعي، لو أن سقطته انحرفت قليلًا عن موضعها، وسقط في البحر بدلًا من السقوط فوق الصخور.

❊ ❊ ❊

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثاني عشر

المليونيرة الأمريكية

(١)

جاءت (مسز باتموس) صديقتي الأمريكية الجنوبية لزيارتي، وهي تقود بنفسها سيّارتها الرولز رويس، من أحدث طراز. كان لقاؤنا ذاك غير المرتقب في فرنسا في منتصف العام ١٩٢٨، هو الذي تسبّب في تغيير خططي المستقبلية فيما يتعلّق بعودتي إلى البرازيل، إذ كانت الاضطرابات هناك في ذلك العام قد وصلت إلى مرحلة، إحساس رؤوس الأموال الأجنبية -خاصة الاستثمارات الأمريكية الشمالية- بالخطر من احتمال اندلاع حرب أهلية.

كانت تلك الاضطرابات هي من أوائل العلامات الدالة -لمَن يجيد قراءة الخرائط السياسية- على قرب وقوع أزمة الكساد العالمي سنة ١٩٢٩، التي ستؤثّر على التجارة والاستثمار في العالم كله. لذلك كانت سفرتي إلى البرازيل في ذلك العام هي آخر سفرة إلى هناك لأمدٍ طويل.

t.me/qurssan

أمّا مسز باتموس فإنها كانت قد أصبحت مليونيرة قبل وقت قصير، وهي لا تزال في سن الثلاثين، بعد وفاة زوجها رجل الأعمال الأمريكي، الذي ترك لها ثروة تقدّر ببضعة ملايين من الدولارات، في وصيّة خاصة سمحت لها، بالحصول على الجزء الأكبر من ميراثه، رغم أن له أولادًا ذكورًا من زيجات سابقة.

عندما جاءت إلى فرنسا في ذلك العام، كان هدفها هو محاولة الخروج بأكبر قدر من أموالها من البرازيل إلى أوروبا عن طريق التحويلات البنكية، حتى تكون لها في بنوك أوروبا أرصدة، تسمح لها بالسحب منها كلما أرادت، بعيدًا عن القيود التي بدأت السلطات البرازيلية في وضعها على سحب العملات الأجنبية من بنوك البرازيل.

من بين ما قالته لي في لقائنا في ذلك العام، هو أن زوجها رغم أعوامه الستين لم يكن مخلصًا لها تمامًا، فهو في خلال إجازتهما الأخيرة معًا في باريس في صيف ١٩٢٧، وهي الإجازة التي انتهت بوفاته بسكتة قلبية، لم يكن مخلصًا لها تمامًا، إذ كان يتركها وحدها في الفندق الباريسي، ليسرح (على حلّ شعره) في علب الليل، غير مدرك أن سنّه يمنعه من ذلك.

كانت قد شعرت ببعض الخوف من فقد وضعها كزوجة مفضّلة، عندما عرفت أنه في هذه الأندية الليلة، يلاحق مغنية جاز *jazz* أمريكية شابة، حتى إنه ذهب وراءها من أندية باريس إلى أندية برلين وفيينا. خافت أن تفقد الوصيّة التي كتبها لها بخصوص الميراث. غالبًا كانت

t.me/qurssan

هذه المغنية الشابة هي المتسبّبة في الأزمة القلبية. تساءلت بيني وبين نفسي: كيف لا يدرك الرجال من كبار السنّ هذه الحقيقة؟

(٢)

كانت مسز باتموس ذات جمال خاص جدًّا؛ بشرتها خلاسية بلون مشروب الشوكولاتة بالحليب، فهي هجين أب أشقر شاهق البياض من شمال أوروبا، وأم بلون أسمر داكن من جنوب البرازيل، هذه الخلطة السحرية التي أنتجت ملكات جمال العالم، هي من منجزات الحضارة البرازيلية الحديثة.

ما لا يعرفه الكثيرون هو أن البرازيل مثل أمريكا الشمالية، استقبلت أعدادًا ضخمة من الأفارقة السود، للعمل كعبيد في مزارع البرازيل، كما كان حالهم في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن أوروبيي البرازيل كانوا أكثر إقبالًا على الزواج (أو التزاوج) من الفتيات الأفريقيات السوداوات.

هي الآن قد عادت إلى فرنسا، ولا يشغل بالها إلا شيء واحد، هو البحث عن الرجل الذي يستطيع أن يملأ عليها حياتها، فهي لم تعد تبحث عن الرجال الأثرياء من كبار السنّ، بل هي الآن تبحث عن رجل في مثل عمرها، يتميّز بالوسامة والذكاء، ولا يهمّها وضعه المالي كثيرًا.

رغم ثروتها الهائلة فهي مثل كل البشر، تخشى من الإحساس بالوحدة، في اليوم الذي ستصبح فيه امرأة متقدّمة في السن غير قادرة على الحصول على الحبّ، إلا بشرائه من الذكور الذين يبيعون شبابهم. قبل سفرها من

t.me/qurssan

البرازيل هذه المرّة، وضعت قائمة طويلة بأسماء الرجال الأوروبيين الذين ستحاول استمالة أحدهم. اسمي كان موجودًا في هذه القائمة.

كانت قد قرّرت اختبار كل هؤلاء الرجال لمعرفة مزاياهم وعيوبهم، وكانت الطاقة الجنسية هي الاختبار الأول والأهم، لتحديد إن كان الرجل سيظل في القائمة أو أنه سيغادرها. لهذا السبب قامت بكل الحيل الممكنة لإغوائي بالذهاب معها إلى الجناح الذي تشغله في فندقها بمارسيليا، حيث بقينا سويًّا ليلةً كاملةً، كانت من اللون الأحمر القاني، لون الدماء والنار؛ لأننا خلال تلك الليلة احترقنا سويًّا بعواطفنا الملتهبة.

بقينا طوال نهار اليوم التالي، نلفّ وندور في شوارع مارسيليا، حول منطقة أرصفة الميناء القديم. في ذلك اليوم كان هناك الآلاف من البشر يمشون على الأقدام، يتزاحمون ويتصادمون بالأكتاف، في كل مكان ذهبنا إليه، ومئات السيّارات في الشوارع، في سيل متدفّق لا ينقطع، والعشرات من عربات الترام الكهربائي، تتدلّى من أبوابها العناقيد البشرية، بسبب شدّة الازدحام داخلها.

(٣)

أنا لا أستطيع أن أنكر أن هذه المرأة في تلك المرحلة من عمرها حول سنّ الثلاثين، كانت في الفراش قطعة من اللهب. الآن وقد تعدّيت الستّين، لم أعد أعرف بالضبط ما الذي منعني في ذلك الوقت من الارتباط بها.

t.me/qurssan

غالبًا ما تكون التفسيرات التي نصل إليها بعد تقدّمنا في السن، هي فقط محاولات لتبرير أخطاء الماضي، حتى لا نشعر بالندم. إلا أن إحدى النتائج التي وصلتُ إليها في سنّي المتقدّم، هي أن الحياة لم تكن أبدًا سهلةً وبسيطةً؛ إذ لم تكن المسألة في تلك اللحظة هي أن أقول (نعم) أو أن أقول (لا).

قالت: يجب أن تعرف أن السفينة التي أخذتها من ريو، وصلت بي إلى فينيسيا، حيث اشتريت سيّارتي الرولز، وأنني من هناك قدتها عبر شمال إيطاليا، ثم عبر كل سويسرا، فقط للوصول إليك في جنوب فرنسا، فعلت كل هذا من أجلك.

قلت: ولماذا كل هذه المشقّة؟

قالت: لم أرك منذ عامين واشتقت إليك.

قلت: وكيف عرفتِ مكان إقامتي؟

قالت: من البرازيل، اتصلت بعدد من مكاتب التحرّيات في فرنسا، للبحث عنك، وقد كلّفتني هذه المكاتب ١٠٠ ألف فرنك فرنسيًّا. أنا صحيح أحبّك، لكني في نفس الوقت أحتقرك، وغالبًا ما سألت نفسي، إذا كنت تحبّني فلماذا تخفي نفسك عني؟

قلت: أنا لم أحاول إخفاء نفسي عنكِ، بل في الحقيقة أنا أعتزل العالم كله.

قالت: أنت لا تعرف عدد الرجال الذين يحاولون التودّد إليَّ أينما ذهبت، حتى في فرنسا وإيطاليا، فمن اللحظة التي غادرت فيها السفينة حتى الآن، لم يمرّ يوم واحد دون أن يحاول رجال كثيرون التقرّب إليَّ.

t.me/qurssan

في فينيسيا مثلًا في اليوم الأول من وصولي، وقع الأمير باربيريني من العائلة الملكية في غرامي.

قلتُ (محاولًا إغاظتها بعد أن استفزّني غرورها): هما اثنان يحملان نفس اللقب، الأب والابن، فأيهما تقصدين؟

ردّت غاضبةً: ما هو الفرق بينهما في وجهة نظرك؟

قلتُ: الأب ساحر نساء، يفتن كل النساء اللائي يقعن في دائرة بصره، بذكائه وكلماته المنتقاة جيدًا، في حين أن الابن ساذج غرير.

قالت: هذه فعلًا هي الحقيقة، وقد كاد الأب أن ينجح في الإيقاع بي، لولا أنني كنت أفكر فيك أنت، حتى اعتقدت أحيانًا -في ساعات يأسي من العثور عليك- في أنني قد أهب نفسي للربّ، وألتحق بأحد الأديرة، وبذلك أكرّس ما تبقى لي من حياتي في خدمة الربّ، فحياة الرهبنة تبدو لي مثيرة وجذّابة.

(٤)

قابلت ابنتها الطفلة ذات الستّة أعوام، التي ستكون فيما بعد نسخة طبق الأصل من أمّها. كانت في ذلك الوقت من طفولتها، تعاني من مرض في الرئتين، لم يكن الأطباء قد توصّلوا بعد إلى تشخيصه، أعتقد أنه داء الرئة الذي يصيبُ عادةً أبناء الأثرياء جدًّا، الذين بسبب الثراء الفاحش يعزلون أولادهم عن العالم، ويحبسونهم في المنازل الدافئة المكيّفة، ويمنعونهم من النزول إلى الهواء الطلق في الشوارع، بحجّة منعهم من الاختلاط بالسوقة.

t.me/qurssan

كانت الطفلة تعاني من ارتفاع دائم في درجة حرارة الجسم، بالإضافة إلى إحساس دائم بالإعياء والإنهاك المستمرّين. كان المرض يلتهم حيويّة جسدها. كأن القدر يريد أن يقول لهذه الأم: إنه لا يمكن لأي انسان أن يحصل على كل شيء، فإذا حصلت على الجمال والثروة، فإنه لا يمكنها أن تحتفظ بابنتها.

كان منظر هذا الوجه الشاحب المرهق لهذه الطفلة، قد أعادني إلى منظر رسومات حائطية لأميرات شرقيّات من العصر البيزنطي، كانت لهنّ نفس هذا الوجه الشاحب المرهق. بمجرّد رؤيتي للطفلة في تلك المرّة، شعرت نحوها على الفور، بمشاعر متدفّقة من الحنان والعطف.

قالت الطفلة: أنا أعرفك لأن أمي حدّثتني كثيرًا عنك. لكن قل لي لماذا جعلتها تبكي هكذا؟

قلت: إنها تبكي من فرط السعادة يا صغيرتي، لا من فرط التعاسة كما قد تظنّين، إنها سعيدة لأنها عثرت عليَّ، لكني مضطر إلى السفر غدًا من جديد، عائدًا إلى البرازيل، لتصفية أعمالي هناك، ثم سأعود إلى فرنسا، لكنها لا تصدّقني.

قالت (وقد بدت لي ملامح ذكائها الاستثنائي): لكن سفرك هذا سيتعس أمي، ثم من الجائز كذلك أن تفقد صداقتي.

قلت في نفسي (غالبًا إن هذه الطفلة تريد أن تحصل على أب، فهي من الجائز تعتقد أنها إذا فقدت أبًا، يمكنها أن تحصل لاحقًا على أب آخر بديل).

t.me/qurssan

قلت لها: للأسف فإن رحلتي محجوزة مقدّمًا على السفينة، ولا أستطيع تأجيلها، كما أن هناك التزامات ضخمة تنتظرني في البرازيل، لكني سأكتب إليكِ بمجرّد وصولي إلى هناك.

قالت: إذَنْ فأنت مثل كل رجال الأعمال من نوعية أبي، تفضّلون عقد المزيد من الصفقات، من أجل المزيد من المال، على البقاء مع زوجاتكم وأولادكم.

كنت مذهولًا من فصاحتها اللغوية، ومن منطقها في التفكير. لكني قبّلتها وودّعتها وغادرت الجناح، متّجهًا إلى الطابق الأرضي لمغادرة الفندق. أثناء مروري أمام كاونتر (منضدة) البار في الطابق الأرضي، لمحت رجلًا وامرأة يجلسان بمحاذاة هذا الكاونتر، على مقعدين من تلك المقاعد المرتفعة، بحيث إنك عندما تجلس عليها، لا تستطيع أن تضع قدميك على الأرض، اعتقدت أنهما الشاعر رجل الأعمال أندريه جايار، وفتاة الأدغال الأفريقية الحسناء الآنسة ديانا. إذَنْ هكذا تتشابك خيوط الحياة وتتعقّد.

(٥)

فكّرت في ضرورة الاستمتاع بليلة ثانية بها. كان موظّف استقبال الفندق، قد أنكر في البداية وجود حجرات خالية في الفندق، لكن حيث إن كل موظّفي استقبال الفنادق في كل فنادق العالم لا يعدمون الحيلة، ليعثروا لك على حجرة خالية، مقابل بقشيش معقول، بشرط أن تعرف كيف تعطيهم إيّاه، دون لفت انتباه أشخاص آخرين، وضعت أسفل

t.me/qurssan

الدفتر المفتوح أمامه ورقة بألف فرنك.

عندئذ قال: سأجعلك تبيت هذه الليلة، في حجرة يشغلها رجل أعمال بريطاني، يغيب عن مارسيليا ليلتين، بشرط أن تحافظ على متعلّقاته في أماكنها.

في الحقيقة لم أحافظ على وعدي لموظّف الاستقبال بعدم لمس متعلّقات البريطاني؛ إذ لم أستطع مقاومة تدخين سيجار، من علبة كان قد تركها على قطعة الأثاث الصغيرة إلى جوار الفراش. كانت رائحة التبغ الكوبي الأصلي القادم من هافانا طازج بالطائرة تفوح منها. نفس الشيء حدث مع زجاجة الصابون السائل، التي تركها إلى جوار حوض الاستحمام، إذ إنها من صنف لم أسمع به من قبل، فأردت تجربته. فقط من باب حبّ الاستطلاع. وفي الحالتين لن يتمكّن البريطاني من إدراك ما فعلته.

إذَنْ أخذتُ حجرة في نفس الفندق، وعلى الفور اتصلت بمسز (باتموس) أعطيها رقم الحجرة، وبعد خمس دقائق كانت عندي. دخلتْ دون أن تطرق الباب، الذي كنت قد تركته دون إغلاق. كانت ترتدي معطفًا ثقيلًا من الفرو الرمادي اللون، خلعته على الفور فبدت عاريةً تمامًا.

لم يكن على جسدها الجميل، إلا عقد من اللؤلؤ كان حول رقبتها. هل كان تركها له هو بدافع التأنّق والدلال والغنج والفتنة والإثارة؟ أم بدافع الاستعجال والنسيان لأنها اعتادت على ملمسه على جلدها، حتى إنها لم تعد تشعر بوجوده، فلا تخلعه عند الذهاب ليلًا إلى الفراش؟

t.me/qurssan

بقياس المسافة بين حجرتي وبين جناحها، أدركت أنها قد جاءت إليَّ وهي تجري؛ لأنها قالت إنها لم تستعمل المصعد الكهربائي، حتى تتجنّب إثارة فضول عامل المصعد، الذي كان حتمًا سينتظر بالطابق حتى يعرف رقم الحجرة التي ستدخل فيها.

كنت أشعر أحيانًا بما في تصرّفاتها من مجون وفجر واعتياد على الخيانة، فرغم أنها أرملة ليس لها زوج يحاسبها على تصرّفاتها، إلا أن طريقة تصرّفاتها الخرقاء توحي بأنها كما لو كانت تعتقد أن زوجها لا يزال حيًا، وأنها تنتقم من خياناته المتعدّدة لها، التي عذّبتها خلال سنوات زواجهما القليلة العدد.

هناك احتمال آخر، وهو أنها كانت دائمًا تحاول أن تجرّب تأثير سحرها وفتنتها، على أكبر عدد ممكن من الرجال. كانت ذات ميول سادومازوخية، تستمتع بتعذيب الرجال، الذين يتعلّقون بها فتعطيهم الأمل في الوصال، ثم تتركهم يهوون وحدهم في بئر الحرمان. رغم كل ما أقوله هنا عنها، إلا أنني في أحيان أخرى -أثناء تبادل أطراف الحديث معها- كنت أشعر أنها كما لو كانت لا تزال طفلة بريئة ساذجة. كانت شخصية مليئة بالمتناقضات.

(٦)

كنت أشكّ أحيانًا في أنها قد تلبّستها روح شريرة، أو سكنها شبح من أشباح الماضي، وقد بدأ هذا الشكّ يتملّكني، عندما كانت تصل معي إلى قمّة اللذّة، إلى هزّة الجماع (الأورجازم)، فتصدر عنها من فمها

t.me/qurssan

ومنخريها أصوات لا علاقة لها بطبيعة أحبال البشر الصوتية. كانت على درجة كبيرة من الحساسية، خاصة جلد بشرة الرأس، والبشرة خلف العنق والأذنين، فهذه المناطق إذا لمستها يد رجل، جعلها هذا على الفور تشهق من اللذّة، فحتى لمس ثدييها أو تقبيلهما لا يجعلها تصدر هذه الشهقة.

في ليلة واحدة وصلت إلى هزّة الجماع عشر مرات متتالية، لا يفصل بين الواحدة والأخرى إلا نصف ساعة. كيف تكون لها كل هذه الطاقة الجنسية؟ أنا في حياتي كلها لم أرَ مثل هذه الطاقة، لا من قبل ولا من بعد. قد يكون هذا هو السبب في أنها لم تتزوج أبدًا من جديد بعد وفاة زوجها، فهي لم تجد مَن يستطيع وحده أن يلبّي كل رغباتها الجنسية. هذا إذَنْ هو السبب في الأزمة القلبية التي قتلت زوجها، ومغنية الجاز الأمريكية بريئة من هذه التهمة.

كان مما يثيرها جنسيًّا الثرثرات الشبقية بأسلوب الرجال المنحطّين، والتلفّظ أمامها بأسماء الأعضاء الجنسية بالطريقة التي ينطقها بها صبية الشوارع. هل كان هذا يذكّرها بالمرّات الأولى التي اكتشفت فيها الجنس، تلك العلاقات الجنسية الخاطفة مع صبية شوارع المناطق الخلفية في ريو دي جانيرو، أثناء أيام مراهقتها الأولى؟

من الغريب أيضًا السلوك الذي تسلكه مع الرجل الذي قد يبدأ في لمسها وتقبيلها، دون أن يصل معها إلى الفعل الجنسي، إذ تتحوّل إلى حيوان مفترس. لذلك فإن هدوءها معي في صباحي ليلتينا الحمراوين، هو الدليل على رضاها عن أدائي، كأنني كنت في اختبار لياقة بدنية.

t.me/qurssan

تنفجر في ضحكات سعادة مفاجئة، تتبعها على الفور تنهّدات حزن عميق، وتعود إلى موضوع زواجنا الحتمي، الذي لن أستطيع أن أتنصّل منه.

كنت أقابل هذه المواقف ببرود شديد، كأنها تتحدّث في موضوع لا يعنيني في قليل أو كثير، فتبدأ في توجيه سباب لا تتناسب خطورته مع ما كنت أعتقد أنه جرم ضئيل. وقد وصل بها الأمر إلى أن قالت إنها قادرة على تدمير مستقبلي، لو أنها ادّعت أنني تحرّشت بابنتها الطفلة، بل إنها يمكنها أن تذهب إلى حدّ القول بأنني اغتصبت ابنتها الطفلة. فأجبتها بأن هذا قد يجعلني أهرب منها إلى الأبد، إلى أي مكان آخر في العالم الواسع. هنا هدّدتني بالانتحار!

(٧)

في محاولة أخيرة للإفلات منها، حاولت أن أتفلسف، فقلت: إن كل العلاقات الجنسية في بداياتها تكون على نفس هذا القدر من الالتهاب، إلا أن النتيجة الأكيدة للاعتياد والتكرار ليلة بعد ليلة لبضعة أشهر هي انحسار اللهب، فلا يستطيع أي رجل مهما كانت فحولته الجنسية أن يحافظ على هذا القدر من الالتهاب لأكثر من ثلاثين ليلة متتالية، عندما يمارس نفس الفعل مع نفس المرأة، وأننا لو ارتبطنا بالزواج، فبعد مرور شهر واحد على الأكثر، ستفقد حماسها لي وتقديرها لإمكانياتي.

كانت أذكى مني، فقالت: اتفقنا إذنْ، سأكتفي منك مؤقّتًا بثلاثين ليلة متتالية!

t.me/qurssan

عندما أدركت إصراري على الرحيل، جذبت فجأة من حول عنقها عقد اللؤلؤ، لتتناثر حبّاته المئة على أرضية الحجرة. بقيت ساعة أبحث عنها، تحت قطع الأثاث، وخلف حقائب البريطاني المجهول، الذي أشغل حجرته مؤقتًا، وقد تركتني أفعل هذا وحدي، وهي تضحك بطريقة هستيرية مجنونة.

كنت مضطرًّا إلى استعمال أظافر يديّ في البحث عن حبّات اللؤلؤ، داخل الشقوق الموجودة في ألواح الأخشاب التي تغطّي أرضية الحجرة. كنت أجمع الحبّات داخل تجويف قبّعتي المقلوبة، وتمكنّت من العثور على ٩٩ حبّة، وبذلك فقد ظلّت حبّة واحدة فقط ضائعة.

قدّمت لها القبّعة بما فيها من لؤلؤ، لتنقل محتوياتها إلى حقيبة يدها، قائلًا: إنني سأطلب من الإدارة البحث عن الحبّة الضائعة، على أن ترسلها إليها على العنوان الذي ستتركه في الإدارة. في الحقيقة كنت مضطرًّا إلى مغادرة الحجرة، وفقًا لاتفاقي مع موظّف الاستقبال، ولم أكن أرغب في تركها وحدها في الحجرة، فلا يمكن تخمين ما الذي يمكن أن تفعله فيها للانتقام منّي.

أمامي يوم طويل من السفر بالقطار، للوصول من مارسيليا إلى ميناء الهافر، الذي سترحل منه صباح الغد سفينتي المتجهة إلى ريو بالبرازيل. تركتني أرحل دون كلمة وداع واحدة، ولم أعرف لبعض الوقت ماذا فعلت هي بحياتها بعد ذلك!

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثالث عشر

مستعمرة عربات القطار

(١)

في العشرين من العمر، بين عامي ١٩٠٦ و١٩٠٧، انشغلت بمشروع تربية النحل واستخراج العسل، وتعبئته في الأواني الزجاجية بأحجام مختلفة، وتسويقه وبيعه تجاريًّا. كنت أقوم بكل مراحل هذا العمل وحدي، هكذا كانت الأحوال وقتها. كنت أسكن في ضواحي باريس، ثمّ وقعت في غرام فتاة شابة صغيرة السنّ، كان أبوها يعمل غوّاصًا في بلدية باريس، وكانت البلدية تحتاج إلى الغوّاصين، للكشف على قاع النهر، وللبحث عن الأشياء التي تسقط فيه، وللعمل على تنقيته أولًا بأول من الأجسام غير المرغوب فيها.

لم يكن مشروع النحل يسبّب لي أي قلق، ولم تكن الفتاة ولم يكن أبوها يسبّبان لي أي قلق، إذ كنت أعيش فترة من أسعد فترات حياتي، لاهيًا عابثًا غير مبالٍ، إلا أن مصدر القلق كان شيئًا آخر.

t.me/qurssan

كنت ألتقي بالفتاة واسمها (أنطوانيت) في الأيام المشمسة الدافئة من فصلي الربيع والصيف في ذلك العام البعيد، وكان مكان لقائنا دائمًا بالقرب من المنزل الذي تسكن فيه مع والديها، على ضفاف قناة (أورك *Ourcq*)، الواقعة في شمال شرق باريس، حيث كنّا نفترش الحشائش على ضفاف القناة، ونبدأ في ممارسة طقس التقبيل، حتى تلهث أنفاسنا.

إننا تقريبا لم نكن نفعل أي شيء آخر أكثر من ذلك، إلا أن يدغدغ أحدنا الآخر أحيانًا بالأعشاب أو بالقش في أذنه، أو أن ننفخ الهواء في الخنافس الصغيرة، ذات الظهور الصفراء المبقّعة بالأسود، لنطيّرها بعيدًا عنّا. كانت هي في السابعة عشرة. كنا أحيانًا نظلّ نتقلّب على الحشائش، حتى ألحق بها فأقبض عليها بيديّ، وأهصر جذعها الضئيل بين ذراعي. لم أكن قد فقدت بعد ذراعي اليمنى.

عندما كان أصحاب القوارب المسطّحة (الصنادل) المارة في قناة أورك يروننا، كانوا يدعوننا إلى القفز فوق قواربهم، لنستمتع معهم بجزء من رحلتهم النهرية؛ لأن قناة أورك كانت تصبّ بعد كيلو مترات قليلة في نهر السين.

كانت عمليات نقل البضائع بين باريس والإقليم المحيط بها، تتمّ في ذلك الوقت بالمراكب النهرية قليلة الغاطس، عبر شبكة من القنوات المائية التي تصبّ في نهر السين أو تتفرّع منه، فكنا أحيانًا نقفز فوق هذه الصنادل، بشرط أن يكون قائدوها من بين أصدقاء والد أنطوانيت، لاحتمال أن الذين لا يعرفونها، قد يسيئون إلى سمعتها، بإشاعة الأقاويل عن استعدادها لركوب صنادل لا تعرف أصحابها، بها كبائن تحت

t.me/qurssan

سطح الصندل، يمكن الاختفاء فيها، والإتيان بأفعال لا تتخيّلها إلّا الأذهان المنحرفة.

أما سائقو الدرّاجات الهوائية، الذين يمرّون على الطريق الريفي الأسفلتي الواقع بمحاذاة القناة، الذي تقلّ عليه الحركة لأن السيارات ذات المحرّك لم تكن قد انتشرت بعد، كانوا يتوقّفون أحيانًا وينظرون إلينا، ويطلقون الصفّارات بأفواههم، وكأنهم يقولون لأنفسهم (يا لحظ هذا الشاب)؛ لأن أنطوانيت كانت جميلة.

لكنهم كانوا يتركوننا في حالنا، ولم يتعدّوا أبدًا على خصوصيّتنا، ولم يقولوا أبدًا أي شيء، ولم يفعلوا أبدًا أي شيء أكثر من إطلاق صفّارات الإعجاب. إلا أن أحدهم -وكان يعرف أنطوانيت ويعرف أباها- نقل إليه ما رآه، مما سيكون له بعض التبعات لاحقًا.

أما الحانات كثيرة الانتشار على ضفّتي القناة، فبمجرّد أن ندخل إحداها، كان الجمهور داخلها -الذي يتكون غالبًا من الرجال- يستقبلنا بابتسامات تواطؤ وتشجيع، وتعبيرات ليس بها أي قدر من الانتقاد، بل إنهم كانوا يلقّبوننا بالعشّاق الصغار.

كنت أحافظ على كرامتها أمامهم، وأتحرّى أن أعاملها معاملة السيّد المهذّب للسيّدة المهذّبة؛ إذ كان أبوها مشهورًا جدًّا في كل هذه المناطق، بوصفه موظّفًا حكوميًّا يعمل في صيانة نهر السين، وكان لأغلب هؤلاء علاقة ما بالنهر. بالإضافة إلى أنني لو لم أعاملها أمامهم بهذه الطريقة المحترمة، فهناك احتمال أن يسيء إليها مَن لا يعرفونها، إذا اعتقدوا أنها فتاة سهلة.

فإذا أردنا الذهاب معًا إلى باريس، كان من الأفضل أن نستعمل وسائل النقل العام، مثل خط القطار الذي يمرّ قريبًا من مكاننا المفضّل أو خطوط الأوتوبيسات التي جاءتنا حديثًا من القارة الأمريكية. أما سيّارات الأجرة الخاصة (التاكسيات)، فكانت قليلة العدد جدًّا، وتكلّف الكثير من المال، مما كان يمكن اعتباره تدليلًا زائدًا عن الحاجة للفتاة التي أحبّها.

بالإضافة طبعًا إلى الشائعات التي يمكن أن تنطلق حول سلوك الفتاة التي تقبل أن تذهب إلى المقعد الخلفي من نفس السيّارة مع الشاب الذي تحبّه، فإن الخطايا التي يمكن أن يكونا قد ارتكباها هناك، لا يمكن أن تتخيّلها إلا الأذهان المريضة. لقد كرّرت هذه العبارة من قبل!

(٢)

وبمناسبة الحديث عن السيّارات، كانت أكثرها إصدارًا للضوضاء -في تلك المنطقة عند قناة (أورك)- هي سيّارة (الأخ فرنسوا)، الذي اكتسب هذا اللقب لأنه انضمّ سنة ١٨٨٠ إلى جماعة (الإخوان) الكنسية *Les Freres*، وهي نوع من الأخوية المسيحية، كان أعضاؤها ينشئون المدارس الدينية، التي تحرص على تدريس العلوم الدينية ضمن مناهجها الدراسية، في مواجهة محاولات فصل الدين عن الدولة، التي قامت بها الحكومات العلمانية، بإنشاء المدارس العلمانية (الليسيه *Lycee*)، التي ليست في مناهجها كلمة واحدة عن الدين. في نهاية الأمر، نجحت الحكومة في عزل الكنيسة عن السياسة سنة ١٩٠٥. لم

t.me/qurssan

يستمر (الأخ) فرنسوا في السير في هذا الخط، بل اتجه إلى سلوك طريق آخر.

كان فرنسوا -قبل شراء سيّارته سنة ١٩٠٥- قد اعتاد على أن يستعمل في انتقالاته عربة بأربع عجلات خشبية يجرّها حصانان، كانا -لسبب أو لآخر- يحرنان في أحيان كثيرة، ويعندان مع صاحب العربة، ويرفضان استئناف جرّها، فيقوم هو بإخراج سوط جلدي يحتفظ به في جراب، ويفرقع به أمامهما في الهواء، فيخاف الحصانان من الجَلْد، إذ على ما يبدو أنهما كانا على معرفة سابقة به، ويتراجعان عن عنادهما ويستأنفان السير.

من الأشياء الغريبة المضحكة، أن فرنسوا كان يستعمل نفس الأسلوب مع سيّارته، فإذا تعطّل محرّكها لسبب أو لآخر ورفضت أن تسير، أخرج السوط من جرابه وفرقع به في الهواء، في محاولة منه لإخافة السيّارة، دون أن يلاحظ على ما يبدو ذلك الفرق الفنّي الدقيق، بين عربة يجرها حصانان، وسيّارة لا تجرّها أحصنة، بل يجرّها محرّك.

عندما عرفت هذا الرجل سنة ١٩٠٧، كان في سنّ الستين، ويعاني من فقد زوجته قبل سنوات. مَن يعرفونه قالوا إن موتها كان نقطة تحوّل في حياته، إذ قرّر بعدها أن يغيّر حياته بالكامل، أي أن يترك الوظيفة التي كان يعمل بها في التدريس، وأن يبيع الإسطبل الذي كان يشرف عليه بما فيه من خيول، وأن يبيع العربة ذات العجلات الخشبية. في أثناء ذلك بدأ في الذهاب إلى باريس، والتردّد على توكيلات السيّارات الأمريكية، التي زاد عددها جدًّا، يسأل عن كل التفاصيل، للاستعلام عن أفضل

t.me/qurssan

الفرص المتاحة، حتى يتمكن من شراء أفضل سيّارة بأقل سعر ممكن كان هذا هو أسلوبه دائمًا، أي أسلوب البحث والتقصّي.

كان هذا الرجل من النوع الذي لا يمكن له -سواء من الناحية النفسية أو من الناحية الجسدية- أن يبقى في مكانه ساكنًا دون حركة، لذلك كانت أفضل مهنة له اختارها لاحقًا هي تلك التي تتيح له كثرة التنقّل بين الأماكن، وهي مهنة الوكيل التجاري، فهو في حركة دائبة بين أماكن إنتاج البضائع، في الورش والمصانع على أطراف المدن، وبين أماكن توزيعها في المحلاّت التجارية في المدن، على نطاق واسع بين باريس وضواحيها، ذلك بعد أن يكون قد قام بعمليات التسويق اللازمة، حتى يجد إقبالًا على شراء هذه البضائع، وهو بذلك كان يقوم وحده، بالعمل الذي يقوم به الآن عدد من الأشخاص.

كانت الحياة في بدايات القرن العشرين أقلّ تعقّدًا بكثير عمّا أصبحت عليه هذه الحياة بعد نصف قرن. بعد أن كنت قد اقتربتُ منه إلى حدٍّ ما، سمح لنفسه بانتقاد أسلوبي في الحياة، إذ قال لي ذات مرّة: "أنا دمي حار، ولو لم أشغل ست عشرة ساعة من اليوم بالحركة الدائبة، لما استطعت في العاشرة مساءً أن أذهب إلى الفراش، لأنام ثمانيَ ساعات باستغراق تام".

ثم بعد فترة صمت، قال: "أنا في سنّ والدك، دعني أقول لك إنني لا أفهم كيف أنك شاب لم تتعدَّ العشرين، وتكتفي في حياتك بمشروع واحد مثل عسل النحل، ثم تقضي بقية اليوم على ضفاف الأنهار تتسلّى وتعبث مع الفتيات الصغيرات".

t.me/qurssan

ثم صمت من جديد، وقال: "فأنا لذلك لا أميل إلى تصديق تلك المغامرات التي حكيتها لي عن ذهابك إلى روسيا والصين وإيران، في السنوات الثلاث الأخيرة، أين ذهب هذا الحماس للمغامرة؟ أقول لك ليس هذا أوان الاستقرار في الحياة، ولا حتى أوان الزواج، صحيح أنك شديد التعلّق بأنطوانيت، لكنك ستجد دائمًا النساء الجميلات، فهنّ موجودات في كل مكان، ولا ينبغي أبدًا وأنت لا تزال في سنّ العشرين، أن ترتبط بعلاقة زواج تستمر مدى الحياة".

(٣)

ثم هاكم قصّة من أعجب ما شاهدت في حياتي. عرفت أنه ورث عن زوجته عقارين، أولهما فندق حقير سيّئ السمعة في أحد أحياء باريس الشعبية، لم تكن له تقريبا أيّ قيمة، إلا أن يُهدم وأن تباع قطعة الأرض الفضاء. وثانيهما قطعة أرض كانت خارج أسوار شمال باريس، جهة بوّابة سانت وان *Saint Ouen*، لم تكن لها قيمة مادية كبيرة، ليس بسبب موقعها البعيد، بل بسبب شكلها، إذ إنها كانت شريطًا ضيّقًا من الأرض، لا يتعدّى عرضه عشرة أمتار، يمتدّ على مسافة طولها حوالي ٥٠٠ متر، لم أعرف أبدًا كيف حصلت عليها زوجته المتوفّاة.

صحيح أنها بتلك المقاييس تبلغ ٥٠٠٠ متر مربّعًا، لكنها لا يمكن بأي حال البناء عليها، خاصة لو عرفنا أنها تحيط بها من الجانبين أراضٍ تابعة للجيش، لا يمكن بأي حال التفاوض في شرائها؛ لأن رجال الجيش هم رجال الجيش في كل مكان، لا يمكن التفاهم معهم. الميزة

t.me/qurssan

الوحيدة لها، التي لا يستطيع إدراكها إلا رجل أعمال مخضرم، هو أنها تقع بالقرب من أحد الأسواق الشعبية، لبيع الأشياء المستعملة، عند بوّابة سانت وان. قيل له ذات مرّة إن الأرض لا تصلح إلا لمرور شريط قطار عليها، فصمت لبعض الوقت، ثم لمعت الفكرة العبقرية في خياله.

ذهب إلى مخازن السكك الحديدية الفرنسية، حيث يتمّ تكهين عربات القطارات القديمة، وإحالتها إلى الاستيداع، واشترى منهم خمسين عربة قطار قديمة مستهلكة دون عجلات، بسعر بخس جدًا؛ لأنه كان لدى الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت خطّة طموحة لتجديد العربات التي كان بعضها قد بلغ من العمر سبعين عامًا.

استعان فرنسوا بروافع صناعية قويّة، لتحميلها فوق سيّارات نقل ضخمة، وذهب بالعربات واحدة واحدة إلى شريطه الضيّق، ليضعها جميعًا الواحدة خلف الأخرى، حتى تكوّن لديه أطول قطار في العالم، ثابت في مكانه لا يتحرّك لأنه دون قاطرة، ولأن عرباته دون عجلات. فكرة عبقرية لا تخطر إلا على ذهن داهية.

قام على الفور بتجديد العربات قدر المستطاع، بإصلاح ما بها من عيوب، ودهان جدرانها من الداخل ومن الخارج، ثم أعلن في الجرائد عن تأجيرها باليوم أو بالأسبوع، لتجار يعملون غالبًا في تجارة كل ما هو مستعمل، من أثاثات منزلية وتحف فنية وملابس وأحذية.

شاع بعد ذلك على الفور في جميع أنحاء باريس الخبر أنه قد تمّت إضافة أجزاء كبيرة، لسوق سانت وان لبيع الأشياء المستعملة، التي نسمّيها في فرنسا *marche aux puces* أسواق القمل، وكان هذا السوق

t.me/qurssan

هو أكبر أسواق القمل في كل باريس، وهكذا تمكن فرانسوا من تأجير العربات الخمسين، وخلال سنوات قليلة ضاعف الإيجارات دون أن يفكّر أي مستأجر في الاحتجاج عليه.

(٤)

مع أن فرنسوا كان يفكّر قبل كل شيء في مكاسبه المالية، إلا أنه كان يفكّر كذلك -ربّما بسبب خلفيته الدينية- في فقراء باريس من الصعاليك والمتشرّدين الذين كانوا يتعذّبون شتاءً، بسبب الجو البارد والأمطار المستمرّة، فكان يؤجّر بعض عرباته، للعائلات الفقيرة في باريس، التي تبقى أحيانًا بلا مأوى، خلال فصول الشتاء.

في هذه الحالات كانت هناك عائلات عديدة، تتقاسم أو تتشارك في الحياة داخل نفس العربات، بفضل اتساع المساحة الداخلية المتاحة، بشرط أن تكون انتماءاتهم العرقية واحدة، أو أن تكون اللغة التي يستعملونها واحدة، كأن يكونوا كلهم من الغجر أو من السود أو من الصينيين أو من العرب، حتى يسهل التفاهم بينهم، ويتحمّلوا بعضهم بعضًا، وبالتالي تقلّ الاحتكاكات بينهم قدر الإمكان. هذا الشرط الذي فرضه فرنسوا هو أحد ملامح عبقريته.

قال لي ذات مرّة إن هدفه في هذه الحالة لم يكن فقط جمع المال، بل كذلك خدمة المجتمع. كنت أميل إلى تصديقه، فمن تصرّفاته أدركت أنه من نوع البشر الإنسانيين *humaniste*، الذين يسعون إلى خدمة البشرية قبل أي شيء آخر، بدليل أنه قام طوال شبابه بالتدريس

t.me/qurssan

في ملاجئ الأيتام دون مقابل. تقبّلت منه كلامه هذا، رغم أنني في العادة أتشكّك كثيرًا في شهادة إنسان عن نفسه، وأترك الحكم النهائي للأيّام.

إلا أن مسألة تأجير عربات قطار متجاورة، تسكن فيها أقلّيات عرقية من بلاد عديدة، أدّت رغم الاحتياطات التي اتخذها إلى بعض الاحتكاكات والمشاجرات، بين أفراد الجنسيّات المختلفة، غالبًا بين العرب والغجر، إذ يأتي الشباب المغاربي إلى أوروبا غالبًا دون نساء، هذه حقيقة اجتماعية معروفة. بالإضافة إلى حقيقة أخرى، وهي أن الغجريات القادمات من رومانيا وصربيا في شرق أوروبا مشهورات بالجمال والدلال، ومشهورات أحيانًا كذلك بالخفّة والتساهل الأخلاقي. في مثل هذه المشاجرات اضطر البوليس إلى التدخّل لحلّها.

إلا أن أسوأ ما حدث هو استدعاء البوليس له ذات مرة، للتحقيق معه في تهمة إخفاء رجال مطلوبين للعدالة، كانوا من الغجر ومن العرب، إذ اكتشف البوليس أنهم يكوّنون عصابات، تقوم بكل أنواع سرقات المساكن إذا تمكنّوا من دخولها، أو الملابس المغسولة المعلّقة لتجف على حبال المناشر، أو ثمار الفاكهة من الحدائق القريبة، أو الدواجن من الحظائر الملحقة بالمساكن، أو يخطفون الحقائب من أذرع النساء في الشوارع. هم لا يتورّعون عن سرقة أي شيء تقع عليه أيديهم، ولا يستنكفون من السرقة، مهما كان الشيء المسروق تافهًا، طالما كان في قدرة أيديهم الوصول إليه، ثم يجرون بسرعة كبيرة فلا يلحق بهم أحد، ويختبئون في مدينة عربات القطار، منتهزين فرص الزحام الشديد الغالب على المكان طول الوقت.

(٥)

إلا أن فرنسوا في الحقيقة كان إنسانًا ذا قلب كبير، إذ إنه كان يكلّف محاميه بالذهاب إلى قسم الشرطة؛ للدفاع عن سكّان مستعمرته، مهما كان الموقف في غير صالحهم، في محاولة منه لتخفيف معاناتهم، فرغم أنهم لصوص ومجرمون، إلا أنه في الحقيقة كان يتعاطف معهم. هم رغم ذلك لم يحترموا الرجل، بل قاموا باتخاذ بعض الإجراءات التي لم يكن لهم حقّ فيها، مثل بناء أسوار من الطوب الأحمر، بين بعض العربات، في محاولة منهم للحصول على بعض الخصوصية، لكن الأدهى هو أنهم بدأوا في زراعة مساحات صغيرة من الأرض المحيطة بالعربات، بالخضراوات التي تلزمهم في غذائهم اليومي. مع ذلك لم يحتج فرنسوا.

وقد حدث ذات مرة أن قام بعض قاطني مستعمرة عربات القطارات بالزراعة على قطع من الأراضي التي تتبع كومباوند الفيلات القريب، الذي لم تكن له أسوار تحيط به، بل لم تكن هناك أي حواجز على الإطلاق بين وحداته، وبين عربات القطارات. قامت نزاعات ذات طابع طبقي بين سكان الكومباوند وسكّان المستعمرة.

عندما علم فرنسوا بالوقائع، فحضر إلى المستعمرة، واجتمع بالرجال الأشدّاء فيها، ونصحهم بالذهاب ليلًا إلى أقرب مكان من مساكن الكومباوند، وإصدار أكبر ضجّة ممكنة باستعمال الطبول أو الأخشاب، حتى لا يجرؤ سكان الكومباوند مستقبلًا على الشكوى. هنا

t.me/qurssan

في الحقيقة لم أفهم معنى تصرّف فرنسوا، إلا أن يكون بسبب ميله إلى الطبقة الكادحة ضد الطبقة المرفّهة.

أمّا الذي جعله يغيّر سياسته الرحيمة معهم، فهو توقّف بعضهم عن دفع الإيجار، غالبًا بسبب اعتقادهم أن قلبه الرحيم لن يسمح له بطردهم. هنا تحوّل إلى شخص مختلف تمامًا، أراد أن ينتقم مهما كلّفه هذا الانتقام من ثمن. أولًا: ظهر في المستعمرة وقد أحاط به عشرة بلطجية أشدّاء. ثانيًا: ظهر في يده السوط الذي كان يخيف به حصانيه وسيّارته.

بدأوا في إخلاء العربات التي لا يدفع ساكنوها الإيجار عربةً عربةً، بحيث لا يتدخّل الجيران؛ لأنهم لا يعرفون إن كان فرنسوا سيصل إليهم ومعه بلطجيّته، ويشملهم بقرار الطرد أم لا؟ وبسبب هذا الأمل في الاستثناء، تمكّن من الانفراد بالسكّان المتمرّدين واحدًا واحدًا، دون أن تحدث إصابة واحدة لأي فرد من أيٍّ من الطرفين.

بالصدفة البحتة كنت حاضرًا معه في المستعمرة في ذلك اليوم، وشاهدت كيف أنه رغم أعوامه الستّين، كان لا يزال قادرًا على استعمال السوط بكفاءة شديدة، في تقييد حركة خصمه، دون إصابة جسد هذا الخصم بأي ضرر، بل لقد شاهدت كيف أنه باستعمال السوط، تمكن في حالات عديدة، من إسقاط السلاح الأبيض من يد الخصم.

سألته: ألم تخف أن يتهوّر عليك أحدهم ويقتلك بالسكّين؟

قال: أن أموت مقتولًا بسكّين أفضل عندي من أن أموت شيخًا عاجزًا على فراش المرض.

t.me/qurssan

كان من أكثر ما أدهشني في حياتي ما فعله فرنسوا قبيل موته، وهو الدليل القاطع على إنسانيّته.

صحيح أنه لم يكن لديه أولاد، ولا أعرف موقفه من إخوته، أو من بقيّة أفراد أسرته، إلا أنه قبل بضعة أشهر من موته بسكتة دماغية (جلطة في المخ)، عرفنا أنه كان قد ذهب إلى مكتب أحد أكبر محامي باريس، وترك عنده وصيّة مكتوبة بخط يده، بأن تؤول كل قطعة أرض بعربة القطار التي فوقها إلى مَن كان يسكنها فعلًا لحظة موته.

لقد وهب هذه المساحة من الأرض البالغة ٥٠٠٠ متر مربّعًا إلى حوالي خمسين أسرة مشرّدة شبه معدمة، بحيث أصبحت كل أسرة من تلك الأسر، مالكة لقطعة أرض مساحتها مائة متر مربّع في ضواحي باريس، ستصبح لها قيمة عقارية ضخمة يومًا ما. هو لم يكن قبل موته قد ذكر لأي شخص أي شيء عن هذه الوصيّة، وهو دليل إضافي على أنه لم يكن يريد أي مقابل عاطفي.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الرابع عشر

فنّان تشكيلي

(١)

كنا قد خرجنا للتوّ من مترو الأنفاق إلى سطح الأرض في ميدان يحمل اسم (كريملين بيساتر)، ويقع في منطقة جنوب باريس، وكالمعتاد في باريس فالأسماء لها حكايات طويلة، والاسم هنا كما ترون هو اسم مركّب من كلمتين، الثانية منهما (بيساتر *Bicetre*) هو اسم القرية التي كانت في هذا الموقع منذ قرون طويلة، وقد دخلت في كوردون المدينة في القرن الثامن عشر. تمّ بعد ذلك في هذا المكان، إنشاء المستشفى الذي خصّص سنة ١٨١٣ لعلاج الجرحى من جنود جيش نابوليون، بعد فشل حملته الروسية، و(كريملين *Kremlin*) هو اسم المقهى الذي افتتح في ذلك الوقت إلى جوار المستشفى، في إشارة إلى موقع في قلب العاصمة الروسية، التي جاء منها الجنود الجرحى.

كان معي في ذلك اليوم صديقي الفنّان التشكيلي الطليعي (فرناند ليجيه *Fernand Leger*)، وهو لا يكبرني في السن إلا بسنوات قليلة،

t.me/qurssan

وكنا سويًّا نمر في ذلك الوقت من حياتنا بمرحلة التسكّع والصعلكة الباريسية، قبل أن يشتهر هو كأحد مؤسّسي الحركة التكعيبية، وكمبتكر للوحات الحائطية الضخمة، التي تعبر عن مناظر الشبيبة الفرنسية المعاصرة، التي تقف في كتلة واحدة، وتظهر من خلفها آلات العصر الحديث، أو مناظر الشباب وهو يمارسون الرياضات المختلفة، وتشغل هذه اللوحات الحائطية حاليًا العديد من المباني الهامة في باريس، مثل الحائط المواجه لمدخل متحف الباب الذهبي عند غابة فانسان، وفي العديد من حوائط متاحف جنوب فرنسا.

كنا بالكاد قد وضعنا أقدامنا في مدخل سوق البضائع المستعملة الموجود على أطراف الميدان، حتى امتلأ الجوّ فجأةً من أمامنا وخلفنا بصافرات رجال شرطة باريس، ثم على الفور بوجودهم الجسماني بين الناس، وبنداءات متكرّرة تأتي منهم ومن الباعة الواقفين إلى جوار بضاعاتهم، نداءات تشير إلى شخص ما يلقّبه الجميع بـ(ذي الندبة) أو (أحمر الشَّعر) أو (المشاكِس) أو (الشَّرِس).

لاحظنا كذلك أن الباعة الشباب القادرين على حمل بضاعتهم القليلة في بقجة واحدة، والاختفاء بها عن أعين رجال الشرطة خلف أبواب المحلّات القريبة، قد فعلوا هذا، في حين بقي في أماكنهم الباعة الآخرون من كبار السنّ، غير القادرين على بذل هذا المجهود الجسماني للاختفاء.

لم أفهم إن كان المختفون ببضاعتهم بالجري السريع، يهربون من الشرطة بسبب أنهم ليست لديهم أوراق إثبات شخصية، أم بسبب أن

t.me/qurssan

بضاعتهم مسروقة، أم أنهم يختفون خوفًا من معركة وشيكة الوقوع، بين رجال الشرطة وبعض المجرمين الهاربين، وعلى رأسهم زعيمهم ذلك أحمر الشَّعر المشاكس الشرس.

قلت لصديقي الفنان التشكيلي: "لقد انتهى السوق ليومنا هذا، فهم لن يعودوا ببضاعتهم إلا يوم الخميس المحدّد للسوق في هذا الميدان من الأسبوع القادم".

ثم بعد لحظة صمت، قلت له: "أرجوك يا فرناند توقّف في المرّات القادمة عن ارتداء أزيائك التنكّرية، فحتى أنا لا أستطيع التعرّف عليك والتأكّد من شخصيّتك".

لم يردّ وبدا غاضبًا، فأضفت: "إن تنكّرك هذا بغرض الاندساس في الجموع دون أن يلاحظك أحد، هو نفسه السبب الذي يجعلك دائمًا أكثر من يلفت الانتباه".

لم يرد، فقلت: "إن بنيانك القوي يجعل الناس يعتقدون أنك شرطي متنكّر، أو على الأقل أنك تعمل مرشدًا مع الشرطة، لننسحب من هنا الآن مؤقّتًا، وتعال معي نشرب كأسًا قبل أن نستأنف البحث عن أولئك الذين جئنا إلى هنا نبحث عنهم".

(٢)

كان (فرناند ليجيه) قد جاء قبل بضعة أشهر من قريته في جنوب فرنسا إلى باريس، ليستكشف الحياة الباريسية التي لم يكن يعرفها، وهو لا يتركني يومًا واحدًا، ويُلقي على كاهلي مهمّة مساعدته في اكتشاف

t.me/qurssan

المدينة. وكان من بين ما يريد أن يتعرّف عليه حياة الغجر المقيمين في باريس. كان فرناند كسولًا بطيء الحركة متراخي العضلات، رغم حجمه الضخم أو يجوز بسبب حجمه الضخم، لكنه كان قريبًا إلى قلبي بفضل بساطته وبراءته الواضحة.

الآن هو يريد أن يذهب إلى شمال باريس، حيث قيل له إن هناك غجريّات، يقمن في منطقة باب سانت وان *Saint Ouen*، في الحي الثامن عشر. لم أعرف أبدًا من أين يحصل هو على معلوماته تلك التي لا يريد مجرّد أن أتناقش معه فيها، ولا يريد حتى أن يقول لي ما هو الهدف من زيارته للغجريّات. كانت لديه قناعة تامة أنني قادر على فعل كل شيء.

قلت له: "أنا لا أعرف غجريّات سانت وان، لكنني أعرف غجريّات كريملين بيساتر، وهنّ ثلاث فتيات شقيقات، كان والدهنّ قد حطّ الرحال في باريس، وتمكن من استئجار مسرح لعرض المنوّعات الغنائية الراقصة، حيث عملت الفتيات لفترة، حتى اشتهرن وانتقلن إلى مسارح أخرى، وقد تعرّفت إليهنّ لأن أخاهنّ الوحيد كان زميلًا لي في الفرقة العسكرية سنة ١٩١٥ أثناء الحرب الكبرى".

في الحقيقة لم تكن لديّ نيّة اصطحابه لزيارة هذه الأسرة، طالما أنني لم أعرف ما الغرض من هذه الزيارة. فرناند كان غاضبًا؛ لذلك لم يردّ عليّ، فاستأنفت مونولوجي الطويل: "طوال ثلاثة أشهر ستدور معارك في الشوارع بسبب الدعايات الانتخابية، اللازمة لعملية انتخاب ملك الغجر في باريس، حيث تتصارع الأحزاب المتعارضة بشكل

t.me/qurssan

دموي عنيف، ويكون الحيّ كله في حالة غليان، وقد يكون هذا هو السبب الحقيقي في وجود الشرطة اليوم هناك، وفي بحثها عن زعيم إحدى العصابات الشرس أحمر الشَّعر. سيكون سكّان الحيّ أكثر حذرًا من المعتاد، وأكثر شكًّا في الأغراب، ويمكن بلا أيّ مناسبة أن تصيبك ضربة قاضية من قبضة أحد هؤلاء المتهوّرين، فهم هناك من النوع السريع الانفعال والغضب، وهم لا يحبّون المتطفّلين".

(٣)

كنت في ذلك الوقت من عام ١٩٢٣ أعاني من الإفلاس شبه التام، وقد عدت للتوّ من روما حيث عملت مساعد إخراج في فيلم من أفلام الإنتاج الكبير *big production*، هو فيلم (فينوس السوداء) بطولة (دورجا)، وهي راقصة من أصول هندية، كانت ترقص في العروض الاستعراضية بأوبرا باريس وروما، مع عدد من الحيوانات، وهي قادرة على ما يبدو بحكم نشأتها في الغابات أن تجد التآلف اللازم مع الحيوانات، ولا أعرف كيف كانت تفعل ذلك؟!

إلا أن إنتاج هذا الفيلم تعثّر كثيرًا بسبب انهيار بنك (سكونتو)، الذي كان يموّل الفيلم، وكان الانهيار شبه العام قد أصاب كل قطاعات الاقتصاد الإيطالي، بسبب خوف الاقتصاديين من صعود موسوليني إلى مقعد الرئاسة. ولم يكن موقف صناعة السينما في حال أفضل من موقف بقيّة القطاعات الصناعية والإنتاجية، بحيث كان صعود موسوليني هو الضربة القاضية التي تعرّضت لها صناعة السينما في إيطاليا.

t.me/qurssan

فيما بعد قام البارون F وحده -وكان صاحب أكبر نصيب من الأسهم في بنك (سكونتو)- بتمويل إنتاج كل الأفلام الإيطالية المتعثّرة، التي كان قد توقّف إنتاجها بسبب الحالة الاقتصادية المتدهورة، ولن يبدأ تعافي السينما الإيطالية من الأزمة الاقتصادية الخانقة، إلا بعد نهاية الحرب الكبرى الثانية. كان من المفترض أن أحصل في هذا الفيلم، على أجر يصل إلى ٨٠٠٠ جنيه إسترلينيًّا، لم أحصل منها على أي شيء على الإطلاق، لذلك فعند عودتي تلك المرّة إلى باريس كان رصيدي في البنك صفرًا.

(٤)

ولشرح موقفي المالي لنعد إلى الخلف قليلًا، فأنا أتذكر أنه بعد انفجار قنبلة في ذراعي أثناء الحرب سنة ١٩١٥، وبتر هذه الذراع، أن أبي جاء إلى المستشفى العسكري لزيارتي، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أراه فيها منذ حوالي اثني عشر عامًا. عدت سنة ١٩١٦ إلى الحياة المدنية في باريس، وقد حصلتُ من الجيش الفرنسي على وعد بمعاش مناسب، إلا أنهم لم يتمكّنوا من الوفاء بوعدهم، لذلك كان أبي هو الذي ساعدني على الوقوف على قدميّ من جديد.

كان فقْد ذراعي أقل أثرًا في تدمير حالتي النفسية من الاكتشاف الذي وجدته في انتظاري في باريس! كانت صدمتي شديدة سنة ١٩١٧ باكتشاف هذه الموجة الهوجاء من الإنتاج الأدبي والفنّي المتدهور الباطل المنحطّ، في الشِّعر والنثر والرسم والنحت، التي أسموها

t.me/qurssan

السيريالية *surrealism*، ما وراء الواقع، وادّعوا أنها حركة قامت للتعبير عن معاناة الشعوب من جراء الحروب. اعتقدت لوقت طويل أن كل هذه الفنون التشكيلية والأدبية قد ماتت، وأنه لن تقوم لها قائمة من بعد، إلا إذا وجدنا مَن يدافع عنها ولا ينخدع بادّعاءات السيرياليين.

إن انتشار المذاهب السيريالية في عشرينيات القرن، ثم بعدها التجريدية *abstractism*، في ثلاثينيات القرن، لهو دليلي الأكيد على وجود اضطراب عقلي شديد لدى الأدباء والفنّانين، سرعان ما امتدّ إلى غير هذين المجالين من مجالات الحياة الحديثة، بحيث أدّى هذا الامتداد إلى اختلال تام في جميع المقاييس في عدد كبير من المجالات، مما أدّى لاحقًا إلى تسميم جميع الأنشطة البشرية، قبل أن يصيبها بالشلل التام.

ما حدث لي بعد ذلك هو أنني توقّفت عن الكتابة، وجمعت كل ما سبق لي كتابته حتى ذلك الوقت من أوراق ومخطوطات في الشِّعر والنثر، ووضعته في صندوق محكم الغلق، ودفنته تحت الأرض في حجرة سريّة، بمنزل ريفي خاص بأحد الأصدقاء. ثم غادرت الأوساط الأدبية والفنية في باريس، بل غادرت باريس وفرنسا كلها، في محاولة مستميتةٍ للنجاة من هذه الموجة الملعونة، من هذا الشرّ المستطير، وحتى لا أقع تحت تأثير أحد أولئك السيرياليين الشياطين، أو حتى لا يصيبني الرذاذ المتطاير من أفواههم بميكروبات العدوى القاتلة، من موجتهم الهوجاء الطائشة. سكتُّ تمامًا احترامًا لنفسي، ولم أنشر أي شيءٍ، بل حتى لم أكتب أي شيء، لمدّة ستّة أعوام.

t.me/qurssan

(٥)

لا يمكن لأحد أن يصدّق هذه الحالة المتدهورة التي كانت لا تزال عليها عاصمة النور حتى سنة ١٩٢٣، فبعد الخروج من تلك الكتلة البشرية المتزاحمة في سوق ميدان (كريملين بيساتر) بباريس، وجدنا أنفسنا -أنا وفرناند- وقد انفتح أمامنا الطريق، لكننا اضطررنا مع ذلك إلى السير في خطوط متعرّجة، حتى يمكننا أن نتفادى الأسلوب العشوائي الذي يتخذه البائعون في نصب خيامهم التي يعرضون فيها بضائعهم ويقيمون فيها على حواف الطريق. كأنَّ أحدًا من المسؤولين في دار عمودية باريس لم يمرّ أبدًا من قبل بهذا الشارع.

ورغم وصولنا إلى نهاية شارع السوق، ودخولنا في منطقة سكنية، لكن استمرّ مشينا بشكل متعرّج، بسبب الأكواخ الخشبية التي لا تتخذ خطًّا مستقيمًا واضحًا، كما ينبغي أن تكون الطرق وفقًا لأساليب خطوط التنظيم، بل إن هذه المساكن (الأكواخ) تتحرّك بشكل عشوائي تمامًا، حتى إن بعضها يعترض مجرى الطريق، ويتكوّن أغلبها من ألواح خشبية مربوطة بعضها ببعض، دون أن تحفر لها أساسات في الأرض، ثم تغطّى أسقفها بألواح من الصاج، لوقاية السكّان من المطر الغزير، الذي يسقط على باريس في فصل الشتاء، مما يجعلها هشّة تمامًا وقابلةً للانهيار بسهولة.

وصلنا إلى منطقة بدأ فيها ظهور قطع صغيرة من الأراضي المزروعة بالخضراوات، لزوم الاستهلاك المحلّي، إلى جوار عشش لتربية الدواجن، ثم ظهرت قطع من الأراضي الفضاء الغامضة المحاطة

t.me/qurssan

بالأسلاك الشائكة، التي يضع رجال العصابات أيديهم عليها، في انتظار أن تصبح قيمتها مرتفعة لبيعها، ولا يستطيع أحد أن ينازعهم عليها، أو حتى أن يعترض على تصرّفاتهم.

من الأشياء الغريبة التي لاحظتها أن بعض الحوائط العشوائية التي تفصل بين بعض هذه الملكيات الصغيرة مبنية بالكامل من شقافات فخّارية، تمّ تجميعها غالبًا من مقالب القمامة، واستعمالها في البناء بدلًا من استعمال قوالب الطوب، وهذا النوع من الحوائط لا يمكن أن نراه إلّا لدى بعض القبائل البدائية الفقيرة. عبرنا فوق خطّ سكة حديد من الواضح أنه لم يعد يستعمل، ولم أعرف من أين كان يأتي، وإلى أين كان يذهب.

هنا ظهرت أعداد كبيرة من كلاب الشوارع الضالة الغاضبة، اقتربوا منّا وهم يزومون وينبحون، كأنهم يحتجّون على دخولنا إلى منطقة تخصّهم. كانت لدي طريقة في معاملة الكلاب، تعلّمتها من كثرة تربيتي للكلاب، وغالبًا ما تنجح في تهدئتهم، إذ كنت أغني بصوت مرتفع، وأصفّق باليد على الإيقاع، فتتوقّف أصواتهم العدائية وكأنهم ينصتون إلى الأغنية.

فيما بعد عندما يبدأ رجال الإدارة المحليّة في تخطيط باريس الحديثة، وإنشاء الطريقين الدائريين الداخلي (الحزام الصغير)، والخارجي (الحزام الكبير)، سيتمّ تنظيف هذا المكان، وسيُعرف هذا الشارع باسم (بلانكي)، وستقوم على جانبيه الأبنية الحديثة، وستخرج تجمّعات الغجر إلى ما وراء الطريق الدائري الخارجي.

t.me/qurssan

(٦)

وصلنا إلى هدفنا من هذه الرحلة، وهو المكان الذي توجد فيه ستّة أبنية صغيرة مستطيلة متشابهة، يحتوي كلٌّ منها على بضع حجرات، ويتكوّن كلٌّ منها من طابق واحد فوق الأرضي، تستعمل كملجأ لأطفال الشوارع، وكمدرسة يتدرّبون فيها على بعض المهارات التي قد تسمح لهم بالعمل بهلوانات في السيرك.

توجد لافتة باسم (أكاديميّة شارلو) فوق مدخل المبنى الذي يحمل رقم (١)، في حين تحمل بقية الأبنية الأرقام من (٢) إلى (٦). كان الفنّان شارلي شابلن قد حقّق مؤخّرًا نجاحًا عالميًّا بسلسلة أفلامه، بحيث أصبح اسمه معروفًا في كل بلاد الدنيا، وهكذا أصبح اسمه (شارلي أو شارلو) هو الاسم المستعمل في الإشارة إلى كل مَن يتّخذ التهريج مهنة له.

هناك طفل في حوالي التاسعة من العمر، يجلس وحده على سلّم المدخل أمام أحد هذه الأبنية.

سألته: أين ماركو؟

قال: ماركو الترانسيلفاني؟

قلت: نعم مدير الدار.

قال: إنه ذهب عند الملك.

سألته: إذَنْ فقد تمّ انتخاب الملك؟

قال: نعم.

t.me/qurssan

قلت: مَن هذا الملك؟

قال: لا أعرف.

ثم بعد لحظات من الصمت، قال: كم تعطيني مقابل أن أذكر لك اسم الملك؟

أخرجت له من جيبي عملةً معدنيةً قيمتها عُشر فرنك، أي قطعة من ذات العشرة سنتيم.

فقال: إنه ساوو.

سألت: لكن هناك ثلاثة رجال يحملون هنا نفس هذا الاسم، فمَن فيهم؟

فمدّ يده المبسوطة من جديد ناحية يدي، التي كنت لا أزال محتفظًا داخلها ببعض العملات المعدنية الأخرى، فأعطيته قطعة معدنية جديدة، فقال: "إنه ساوو ذو الندبة في وجهه".

أخذت فرناند من ذراعه، ودرنا من هناك حول منطقة مدافن جانتيي *Gentilly*، حيث صفوف من أشجار الصفصاف، حين سألني لأول مرة، بعد أن كان صامتًا منذ بدأنا جولتنا تلك: "اشرح لي الآن ما الذي يحدث هنا، ومَن هذا الملك؟ وأين مملكته؟".

قلت: "لا أستطيع أن أذكر لك كل هذه التفاصيل مرّة واحدة، ولكن مبدئيًا لو أردت أن تعرف المزيد عن هذا الموضوع، عليك أن تواظب على قراءة الجريدة اليومية [الباريسي الصغير *Le petit Parisien*]؛ لأن محرّريها هم أقدر صحفيي الجرائد اليومية في باريس، على اختراق هذه

t.me/qurssan

المناطق المحظورة، التي قد لا يستطيع حتى رجال شرطة باريس أن يدخلوها إلا وهم في أعداد كبيرة".

بعد لحظة صمت حتى يستوعب ما قلت، أضفتُ: "اقرأ خاصة سلسلة التقارير الصحفية التي يكتبها صديقي الصحفي المخضرم لوروج عن مناطق القلق والاضطراب الباريسية، التي تقع في أحياء شمال شرق باريس، الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، التي يعرفها لوروج جيدًا لأنه ولد فيها، ولا زال يعيش حتى الآن فيها، حيث يتجمّع عدد كبير من البشر الذين يحملون جنسيّات أجنبية، من أوروبا الشرقية ومن شمال أفريقيا، مع أولئك الذين ليست لديهم أوراق إثبات شخصية على الإطلاق".

(٧)

وصلنا إلى موقف سيّارات الأجرة.

قلت لفرناند: "سنأخذ سيّارة واحدة نمرّ بها أولًا على مونبارناس حيث تنزل أنت، ثم أذهب بها أنا بعد ذلك إلى محطّة قطارات سان لازار حيث لدي موعد".

قال: "لا أريد الذهاب إلى مونبارناس، بل أريد الذهاب إلى بورت دورليان، لكنك لم تشرح لي ما يحدث!".

قلت: "هي ببساطة قصة صراع طويل بين اثنين من زعماء العصابات، لكن عليك شراء الجريدة".

قال: "ولكن ما صلة هذا بالفتيات الغجريات؟".

قلت: "لا تقلق لكن علينا أولًا انتظار نهاية هذه القلاقل".

t.me/qurssan

قال: "أنا غاضب منك؛ لأنك تخفي عنّي أشياء".

قلت: "سأرسل إليك برقية هوائية *pneumatique*، ثم سنتقابل حتمًا بعدها".

أنا أكتب هذا الكلام في نهاية الأربعينيات، وقد توقّف العمل بهذه البرقيات الهوائية منذ عشرين عامًا على الأقل، لذلك عليَّ أن أشرح لكل مَن لا يعرف، خاصة من الأجيال الشابة، كيف كانت هذه البرقيّات الهوائية تصل إلى الناس.

١- كانت بلدية باريس قد اخترعت -في أوائل القرن العشرين- نظامًا استمر العمل به حتى عشرينياته، يسمح بإرسال برقيات ورقية، أي رسائل مكتوبة على قصاصات من الورق المقوّى.

٢- يتمّ إرسالها من عدد من المكاتب المركزية في وسط باريس، إلى عدد من المكاتب الفرعية المنتشرة في أحياء العاصمة العشرين.

٣- أو من أحد تلك المكاتب الفرعية في الأحياء، إلى بعض الشوارع الهامة في الأحياء.

٤- كان ذلك الإرسال يتمّ باستعمال أنابيب أو مواسير، تجري تحت الأرض، بها هواء مضغوط يعمل كقوّة دفع للرسائل الورقية، لذلك سمّيت برقيّات هوائية *pneumatique*.

٥- في المرحلة الأخيرة يقوم موظّفو مكاتب الشوارع الهامة بنقلها فورًا باليد، إلى العنوان الخاص بالمرسل إليه، المسجّل على غلاف البرقية، بحيث تصل هذه البرقيات في أقلّ وقت ممكن.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الخامس عشر

لقاء الملك

(١)

ظللت لمدة أسبوع أتردّد كل يوم صباحًا ومساءً على بهو فندق كريتيريون، الذي اعتاد (ساوو) على التردّد عليه، دون أن أتمكن من مقابلته، أو من العثور على شخص يكون قد رآه مؤخّرًا، فلا أحد أفادني بأي شيء، كأنه فصّ ملح ذاب في الماء. خلال نفس ذلك الأسبوع كنت أقرأ أثناء ساعات انتظاري له في بهو الفندق، كل الجرائد الباريسية التي تصدر صباحًا ومساءً، لأعرف قدر الإمكان كل ما كتب فيها عن مسألة انتخاب (ملك صقلّية)، والمعارك التي جرت في كل المناطق الجنوبية من باريس، بسبب هذه الانتخابات.

إن غياب ساوو عن هذا الفندق هو من العلامات الدالة على وجود شيء غير طبيعي، وهو ما أدّى إلى بداية شكّي في حقيقة الأحداث. قيل إنه قد يكون في إنجلترا لصالح أعماله التجارية المتعلّقة ببيع وشراء الأحجار الكريمة، لكن مع ذلك كان شكّي يزداد إلحاحًا عليَّ، حتى

t.me/qurssan

إنني قرّرت ذات مساء، المرور على مقرّ جريدة [الباريسي الصغير]، لأعرف من أصدقائي الصحفيين هناك، إذا كانوا على علم بحقيقة ما يحدث.

كان صديقي الصحفي جوستاف لوروج هناك، وكنت أفضل الذهاب إليه في الجريدة على الذهاب إليه في بيته بسانت وان. كان في ذلك الوقت مسؤولًا عن باب يومي بعنوان (أخبار باريس)، إذ كانت تتجمّع لديه كل أخبار المدينة، فيعيد صياغتها بأسلوبه الجميل، مضيفًا إليها أو مختصرًا منها ما يراه هو مناسبًا.

هو: «ألم تلاحظ كل أولئك الغجر الأوغاد، الذين يدورون على أرصفة وشرفات المقاهي الباريسية، في أحياء شمال المدينة؟ لقد استجويت بعضًا منهم، وحاولت أن أفهم منهم بفرنسيتهم البسيطة من أين يأتون، وما هي ظروف حياتهم في باريس، وأنا في سبيلي إلى إعداد تقرير صحفي عنهم».

ضحك ضحكة قصيرة، ثم أضاف: «إنهم مضحكون هؤلاء الصبيان، كأنهم تخرّجوا كلّهم في مدرسة واحدة، لتدريس الألعاب البهلوانية، ثم إنهم يرتدون كلهم نفس النوع من الملابس، كأنه زيّهم الموحّد، لكن في الحقيقة أنا لا تأخذني بهم شفقة، فما هم إلا لصوص صغار، سيكبرون يومًا ليصبحوا لصوصًا كبارًا».

أنا: «لقد جئت إليك اليوم بالضبط بخصوص هذه المسألة، إذ أردت أن أعرف منك أي شيء عن الاضطرابات التي وقعت هناك يوم انتخابات ملك صقلّية؟».

t.me/qurssan

هو: «ألم تسمع أي شيء عن جريمة القتل؟».

أنا: «مَن قتل مَن؟».

هو: «القاتل هو ذو الندبة صديقك ساوو، والقتيل هو ماركو من رانسلفانيا».

أنا: «مدرّب دبة السيرك، الذي يسكن أكاديمية شارلو! لكن لماذا؟».

هو: «تخليص حسابات قديمة، فمن المعروف أنهما كانا يكرهان بعضهما غالبًا بسبب انتماءات قبلية قديمة، فأنت تعرف كم تتباين الأصول العرقية لغجر باريس، كلنا كنا نعرف أن حياة ماركو مهدّدة بسبب عدائه لساوو، حتى بصرف النظر عن موضوع الانتخابات».

أنا: «هل أنت متأكّد من هذه المعلومات؟».

هو: «في الحقيقة لا، لكنهما اختفيا كلاهما عن الأنظار».

(٢)

كان من المعتاد أن يفقد لوروج أعصابه عندما يتحدّث عن مواضيع مثل جرائم القتل، فتهرب الدماء من وجهه، وتبدأ أصابع يديه الموضوعتين على ركبتيه في الارتعاش، ثم يمدّ يده اليمنى إلى وجهه، كأنه يريد إخفاء ملامح الرعب البادية عليه، أو كأنه يريد إخفاء منظر القتل الذي يراه أمام عينيه. بعد ذلك تبدأ طباع الصحفي في التغلّب عليه، ويبدأ في إلقاء المزيد من الأسئلة حول الموضوع، الذي قد تكون

t.me/qurssan

لديك عنه بعض التفاصيل التي لا يعرفها هو، ويمكنها أن تخدمه في التقرير الذي يكتبه.

أنا: «صدقني لو قلت لك إنني لا أعرف المزيد من التفاصيل، وإلا لما كنت جئت إليك باحثًا عنه».

هو: «لكن كيف تقول إن ماركو هو مدرّب دببة؟».

أنا: «كل ما أعرفه عنه هو أنه كان متعدّد المواهب، فهو أيضًا الذي كان يعلّم الأطفال مبادئ العزف على بعض الآلات الموسيقية مثل البيانو والكمان».

هو: «إذَنْ فلهذا السبب أطلقوا على هذه المدرسة اسم الأكاديمية؛ لأن الأطفال كانوا يتعلّمون فيها الموسيقى».

أنا: «أعتقد أن هذا الاسم قد أطلق عليها، بواسطة بعض السكّان المحلّيين من غير الغجر كنوع من السخرية من الغجر، خاصةً لو عرفنا أنه نفس المكان الذي يتعلّم فيه نفس الأطفال مبادئ النشل وقطع الطريق».

هو: «كنت أعتقد أن هذه المدارس لا توجد إلا في لندن منتصف القرن التاسع عشر، في روايات تشارلز ديكنز».

أنا: «لكن لماذا تقول إن ماركو مات مقتولًا؟ وأن القاتل هو ساوو؟ ما الأدلّة التي لديك؟».

هو: «يمكنك الاتصال بأصدقائك في البوليس الجنائي ليعطوك كل هذه التفاصيل، فهم يتابعون التحرّيات، كل ما أعرفه هو أن عمليّات

t.me/qurssan

القتل لدى الغجر تتمّ في صمت بالسكاكين؛ لأن القتل بالسلاح الناري يتسبّب في ضجّة تثير الانتباه».

أنا: «بودّي فقط أن أسألك هل هناك نساء في الموضوع؟ هل هناك تنافس على امرأة؟».

هو: «أعتقد أن المسألة تتعلّق بالصراع على النفوذ، وبمحاولة كل منهما فرض سيطرته على أكبر عدد من الغجر».

أنا: «هل تعتقد أن هناك فرقًا بين أن تكون غجريًا من صقلية، أو أن تكون غجريًا من أصول رومانية؟».

هو: «صحيح أن العدالة في نظر كليهما هي أن تحصل على حقّك بذراعك، دون اللجوء إلى البوليس أو إلى القضاء، فإذا ترك أحدهم ندبة على وجهك، فما عليك إلا أن تفقأ له عينه، لكن لا يمكننا تجاهل الفرق التقني بين الصقليين الذين يفضّلون استعمال السكاكين، والرومانيّين الذين يفضّلون استعمال المسدّسات».

أنا: «قصّ عليَّ المزيد من القصص التي تعرفها عنهم».

هو: «ليس هنا في الجريدة، وإنّما دعنا نذهب إلى بار لاكوبول *La Coupole*، في ميدان محطّة قطارات مونبارناس".

(٢)

ذهبنا إلى هناك، حيث اعتاد فنانّو وأدباء فرنسا قضاء سهرات تستمرّ طوال الليل، وبقينا حتى فجر اليوم التالي، نأكل المزّات ونحتسي كؤوس

t.me/qurssan

خمر الكيرش *Kirsh*. حكى كلٌّ منا للآخر كل ما يعرفه عن الموضوع، وكانت معلوماتي عن غجر جنوب باريس أكثر من معلوماته، في حين كان الوضع معكوسًا فيما يتعلّق بغجر شمال باريس. هذا هو الأصل في احتياج كلٍّ منا إلى معلومات من الآخر.

عند الفجر أخذنا قطار الأنفاق ذاهبين في اتجاه جنوب باريس، عائدين إلى ميدان كرملين بيساتر، وعند خروجنا من المحطّة إلى الشارع، كان المنظر الذي شاهدناه أقرب ما يكون إلى أرض معركة بعد انتهاء العمليات القتالية. كان من المعتاد أن تقع هنا اشتباكات، أو أن يدور قتال بشكل شبه يومي، لا تتدخّل فيه الشرطة إلا لحماية المارة، إذ كان من المعتاد أن يتقاتل الغجر الصقلّيون فيما بينهم باستعمال السكاكين، وهو ما كان يسهّل عمل الشرطة في حماية المارة.

أمّا منذ وصول غجر رومانيا، فقد أصبحت مهمّة الشرطة في حماية المارة أصعب بكثير، بسبب أن الرومانيين أدخلوا استعمال الأسلحة النارية كعادة عصابات نيويورك وشيكاجو، فتتطاير الطلقات في الهواء في كل اتجاه. وقد حاول الصقلّيون الاحتفاظ بتقاليدهم القديمة التي يتقنونها في استعمال السكاكين، إلّا أنهم كانوا مضطرين لمسايرة التقدّم العلمي. المشكلة هي:

١ - أن كلًّا من الفريقين الصقلّي والروماني، اعتاد على شغل مقهى من مقاهي هذا الميدان.

٢ - وأن هذين المقهيين (الثلاث نواصي) لغجر رومانيا، و(شمس إيطاليا) لغجر صقلية، يوجدان في نفس الشارع على رصيفين متقابلين،

t.me/qurssan

ا-دهما في مواجهة الآخر، ولا يبعد أحدهما عن الآخر إلا بمسافة عرض الشارع، بالكاد عشرين مترًا.

٣- لذلك أصبح الفجر يتبادلون إطلاق الرصاصات عبر الشارع، متمترسين خلف الموائد الخشبية، التي يقلبونها لتقف على جوانبها، فيتمكنون بذلك من استعمالها كسواتر، أو كمصدّات للطلقات، ويتخيل مراقب مثل هذه المناظر كما لو أن هذين المقهيين، يقعان في بلدين مختلفين، وأن الشارع بينهما هو خطّ الحدود.

(٤)

عند خروجنا من محطّة قطار الأنفاق، كانت السماء ملبّدة بالغيوم، وقد تساقط المطر خلال ساعات الليل، حتى إن أسفلت الشارع، وكذلك ممرّات المشاة على الأرصفة أمام المقهيين، بدت زلقة بسبب التصاق الطين بأحذيتنا، ولا تزال هناك برك مياه في المناطق الجانبية من الشوارع، مع طبقة كثيفة من الضباب تغطّي المنظر أمامنا.

كانت الساعة مبكّرة ولم تتمكن شمس الصباح بعد من تجفيف الماء أو إزاحة الضباب. كانت قطرات الماء العالقة بأغصان شجر السنط على جانبي الشارع تتساقط علينا.

المنظر مقبض للروح بأكثر مما هو عليه في المعتاد، فبالإضافة إلى غياب صوت الموسيقى والأغنيات، المنبعث عادةً من داخل هذه المقاهي، لم يكن هناك إلّا الصمت التام.

كل الإشارات تدلّ على أن حدثًا جللًا قد وقع. مقهى الرومانيين

t.me/qurssan

كانت أبوابه مغلقة، أمّا مقهى الصقلّيين فمن الواضح أنه تعرّض لتلفيّات ضخمة، إذ كانت أبوابه الخشبية ملقاة في عرض الشارع، كأنها قد نُزعت من مفاصلها بعنف شديد، بدليل تحطيم الجدارين الجانبيين لكل باب، وهناك ألواح خشبية تسدّ المداخل، من الواضح أنها دواليب خشبية مقلوبة استعملها الصقلّيون كسواتر.

بالإضافة إلى تحطّم واجهة المقهى الزجاجية إلى آلاف القطع، وانتهاك أثاث المقهى المبعثر على الأرضيات في كل مكان، ويبدو أن أطقم الفضّيات المستعملة في خدمة زبائن المقهى قد نُهبت، بدليل عثورنا على بعض القطع من هذه الأطقم مبعثرة في المكان. علاوةً على تحطيم زجاجات الخمور، والكؤوس التي كان زبائن المقهى/ البار يتناولون فيها مشروباتهم. يبدو أن الرومانيين قد انتصروا في هذه الموقعة على الصقليين.

قال لوروج: "وصلنا متأخرين، ولن يجرؤ أحد على أن يخبرنا بالحقيقة، فما دام أن الجميع قد رحلوا، فهذا يعني أنه قد تمّت تسوية ما بشكل مؤقّت، لحين وقوع معركة جديدة".

دخلنا إلى الشوارع الجانبية الضيّقة، في الاتجاه إلى الأراضي الفضاء خارج الحزام الصغير، حيث معسكر عربات خيول الصقليين، لنعرف مدى الضرر الذي وقع عليهم. ما دلّنا على خطورة الموقف، أننا بعد قطع مائة متر مشيًا على الأقدام، لم نكن قد لمحنا بعد أي شخص، لا رجلًا ولا امرأةً ولا طفلًا، فكل الناس هنا خائفون يختبئون. شاهدنا

t.me/qurssan

دبًا صغير الحجم يختبئ أسفل عربة من العربات. ثم بعد مائة متر أخرى ظهر رجل يعرفني من الحرس الخاص بساوو.

قال: "ماذا تريدان؟".

قلت: "نريد مقابلة الملك".

فقال: "انتظرا هنا".

دخل إلى العربة ذات اللون الأزرق التي أعرف أنها تخصّ ساوو، وبقينا نحن في الشارع الضيّق، ننتظر خروجه لمدّة ربع ساعة. كان لوروج متوتّرًا ومتعجّلًا.

قال: "ماذا سيحمل إلينا هذا اللقاء من أخبار؟".

لم أردّ، ولكني ربَتُّ على كتفه محاولًا تخفيف وقع الترقّب عليه. كنا في الحقيقة لا نتوقّع أن نعرف الشيء الكثير؛ لأن الغجر يعرفون كيف يصمتون. خرج رجلان يحملان كرسيًّا، مغطّى بطبقة كثيفة من القطيفة المخملية حمراء اللون، هو كرسي عرش ملك صقلّية، وضعاه فوق منصّة خشبية مثبّتة أمام العربة الزرقاء. إذَنْ فساوو يعلن لأتباعه أنه سيظهر ظهورًا رسميًّا، بكل التقاليد المتّبعة عند ظهور الملوك أمام شعوبهم.

من المحتمل الآن أن يخرج العشرات من عرباتهم، وأن يلتفّوا حوله للإنصات إلى ما قد يكون بيانًا رسميًّا عن الأحداث الأخيرة. هل يريد جلالة الملك ساوو أن يسخر منّا أنا ولوروج؟ هل علم من مساعديه أن هناك صحفيًّا كبيرًا يشغل منصب رئيس تحرير جريدة يومية باريسية،

t.me/qurssan

يرغب في لقائه، وإجراء حوار معه، فأراد أن يتّخذ الإجراءات الرسمية المناسبة لظهوره الملكي؟

الغجر لا يقلّون مكرًا عن هنود أمريكا الحُمْر، ولا يقلّون دهاءً عن أيٍّ من الشعوب البدائية، التي تلجأ إلى الحيلة، لتعويضها عن نقص أدوات الحضارة الحديثة، ويدّعون أنه من بين تلك الحيل قدرتهم على أن يقرؤوا أفكارك الباطنية، فالغجر ليسوا من بين بشر القرن العشرين، بل هم يعيشون في أزمنة سابقة على زماننا الحالي ببضعة قرون.

(٥)

أخيرًا ظهر الملك ذو الندبة أحمر الشَّعر الشرس المشاكس. يمكنك اختيار ما يحلو لك من هذه الألقاب. في الحقيقة ورغم كل هذه الألقاب، يمكن اعتبار ساوو جميلًا بين الرجال، إذ لم تكن عائلته في الأصل من جزيرة صقلية، بل من جزر الكناري في المحيط الأطلنطي. كانت عائلته من نفس جنس قبائل الجوانش *Guanches*، التي يتميّز رجالها بالجمال والقوّة الجسمانية والحيويّة وعشق النساء.

هذا هو ما جعل غزاتهم من قبائل النورمانديين -الذين هاجموا جزر الكناري في أوائل القرن الخامس عشر- يسجّلون هذه الملحوظات في دفاتر يوميات غزواتهم.

بالإضافة إلى هذا، فإن قبيلة ساوو الباريسية تدّعي كذلك الانتماء إلى قبائل غجر جنوب فرنسا، الذين يسكنون في المنطقة بين أحراش الكامارج *Camargue* الفرنسية وبين شرق إسبانيا، ويسود الاعتقاد

t.me/qurssan

بأنهم من أصول أكثر نبلًا مقارنةً بأصول غجر فرنسا.

هم يدّعون أن هذا الأصل النبيل هو بفضل انتمائهم إلى القدّيس يعقوب دي كومبوستل، *Saint Jacques de Compostelle*، الذي يحجّ إلى هيكله في شمال إسبانيا مئات الآلاف من الحجّاج في كل عام، ويمشون مئات الكيلو مترات على أقدامهم سعيًا إلى هيكله المقدّس، ويبيتون لياليهم في الطريق سعيًا إليه في العراء، وهذا هو ما يفسّر لنا الاسم.

فكلمة (كومبوستل) تنقسم إلى جزئين: (كومب) *camp* وتعني (معسكر)، و(ستيل) *stella* وتعني نجمة، والمقصود أنه قدّيس أولئك الذين يبيتون في العراء؛ لأنه لا مكان لهم يبيتون فيه تحت أسقف المنازل، إمّا لأنهم فقراء، أو لأنهم زاهدون في الحياة وفي الممتلكات، لذلك هم يبيتون تحت قبّة سماء مليئة بالنجوم، سماء المناطق خارج المدن، بعيدًا عن أضواء المدن، مما يسهّل رؤية أكبر عدد من النجوم أثناء الليل.

كان فريق غجر صقلية بسبب أصوله البحرية، يطلق على نفسه ألقاب مثل (زَبَد البحر)، أي قشطة المجتمع وأفضل مَن فيه، في حين أنه كان يطلق على أفراد الفريق الآخر من غجر رومانيا لقب (ساكني ضفاف الأنهار) *les Riverains*، كما لو أن سَكَن ضفاف نهر هو سُبّة في جبين مَن يتّصف به.

أما الغجر من أصول رومانية، فهم يتفاخرون بأن أجدادهم سكنوا ضفاف نهر الدانوب، ثم عندما يريدون استثمار التاريخ يقولون:

t.me/qurssan

إن أجدادهم كانوا من بين الفرسان الذين استردّوا المدينة المقدّسة (أورشليم) من العرب، أثناء الحملات الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، وأنهم لذلك لا يعسكرون إلّا في الأماكن المقدّسة، حيث توجد هياكل كنسية قديمة.

يضربون مثلًا لذلك بأنهم الذين أعادوا إحياء مدينة تقع على شاطئ البحر المتوسّط في جنوب فرنسا هي مدينة المريمات العذراوات البحريّات المقدّسات، *Les Saintes Maries de la Mer*، وكذلك مدينة لورد *Lourdes* في وسط فرنسا، ومدينة إسكوريال *Escorial* في وسط إسبانيا.

يقولون لك إنهم في حالة حجّ دائم بين هذه الأماكن، لتحقيق أهداف ليست دنيوية بل دينية، هي التقرّب إلى الله، وهو ما يبرّر تنقّلهم الدائم وعدم الاستقرار في مكان واحد. لكن في الحقيقة مَن يدفع ثمن هذا التنقّل الدائم هم أولادهم، الذين لا يواظبون على الذهاب إلى المدارس، وبالتالي لا يتعلّمون ولا يحصلون على فرص أفضل في الحياة.

إن الغجر الرومانيين الشرقيين في مجال تفاخرهم بما ليس لهم يمكنهم حتى أحيانًا أن يدّعوا أنهم من أصول مصرية قديمة، ودليلهم على ذلك هو التشابه اللغوي بين جذر كلمة مصر *egypt*، وبين جذر كلمة غجر *gyps*.

المشكلة الغريبة هي أن كلًّا من الفريقين الغجريّين، من شرق أوروبا ومن جزيرة صقلّية، بدلًا من التعاون فيما بينهما، على الأقل للتشابه بين طرقهما الحياتية، فيما يتعلّق بالإقامة في عربات تجرّها الخيول استعدادًا

t.me/qurssan

للتنقّل الدائم، إذا بهما يتبادلان مشاعر عميقة من الكراهية والاحتقار، وإذا بهما يتبادلان الإهانات والسباب. وحيث إن المجتمع الفرنسي -حتّى أوائل القرن العشرين- كان أكثر ميلًا إلى التديّن، فإن كلًّا من المعسكرين الغجريين كان يتّهم المعسكر الآخر بالكفر والوثنية. إن أسهل طريق إلى قلب الرجل ديانته.

(٦)

أنا: "أهلًا ساوو لقد جئنا من أجل إجراء حوار معك، فصديقي هذا هو رئيس تحرير (الباريسي الصغير)، ولو وافقت سيتمّ نشر صورة كبيرة لك مع الحوار".

هو: "إنه لطف كبير منكما أنت وصديقك، أهلًا وسهلًا بكما".

لم تكن من عادة ساوو الترحيب بضيوفه، بل هو دائم التجهّم، إذَنْ فهناك شيء تغيّر في شخصيته. إلا أنه رغم ذلك اتخذ سمت الملوك، واتخذ وضعًا ملكيًّا على كرسي عرشه، كما لو أن هناك فعلًا مصورًا فوتوغرافيًّا سيلتقط له صورة. ساوو لم يلاحظ عدم وجود مصوّر فوتوغرافي، ولم يفهم أنني عندما ذكرت موضوع الصورة، كنت أقصد أن يعطينا هو واحدة من صوره الشخصية لوضعها في الجريدة.

كان من الواضح أنه استعدّ للمقابلة، فشعره ممشّط وذقنه حليق، ويبدو أن حلاقة الذقن هي السبب في تأخّر ظهوره أمامنا ربع ساعة. بالإضافة إلى تلميع شاربيه بمادة من تلك المواد المشهورة، التي استعملها الرجال بكثرة في تلميع الشوارب في ذلك العصر.

t.me/qurssan

كان قد تخشّب في جلسته على كرسي العرش، متوقّعًا أن يكون المصوّر الذي لم يره مشغولًا بالتقاط صورٍ له، حتى فكّرت في ضرورة تنبيهه إلى عدم وجود مصوّر، على الأقل في الوقت الراهن. إلا أنني تراجعت عندما لمحت نفس نظرته التقليدية الباردة القاسية، التي لم تفارقه بعد.

لم يكن حتى يبتسم للمصوّر المزعوم، وقد أدركت كذلك أنه لم يصافحنا باليد في لحظة خروجه إلينا. ثم لاحظت أن يديه اللتين وضعهما على ركبتيه، كانتا داخل قفّازين، وكدت أبتسم عندما عرفت أنهما ليسا من نوع القفّازات العادية المستعملة في الحياة اليومية، بل هما من نوع القفّازات ذات الجلد السميك، التي يستعملها الممثّلون عندما يلعبون أدوار الفرسان في مسرحيات القرون الوسطى.

أنا: "لماذا هذه النظرة المتخشّبة يا ساوو؟ يمكنك أن تتحدّث بحرية مع مسيو لوروج كأنك تتحدّث إليَّ، نفس الأحاديث الودودة التي تدور بيننا عندما نكون وحدنا، إنه من الأشخاص اللطفاء غير المؤذيّين، وهو لن يذكر في جريدته إلا ما تريد أنت أن تقوله عن نفسك، ولن ينشر عنك أي شيء يسيء إليك. أما إذا كنت تنوي ألَّا تتحدّث معنا عن سلسلة الوقائع والأحداث الأخيرة، ففي هذه الحالة يمكننا أن نغادر المكان على الفور، ونتركك في سلام. لكن لي رغبة أن أسألك عن ابن أختك، وزميلي السابق في الحرب، فإن كان موجودًا الآن هنا، أريد أن أقابله، لقد كنت أبحث عنكما أنت وهو منذ ثمانية أيام".

هو: "أعرف".

ثم بدأ في استجوابي، وتذكّرت أن هذا الكرسي الذي يجلس عليه، هو نفسه الكرسي الذي يستعمله عندما يحلّ موعد مجلس القضاء الغجري، فيلعب ساوو دور القاضي في النزاعات التي تنشأ بين أفراد قبيلته. على هذا الأساس يمكنني أن أعتقد أن ساوو لا يزال يعتبرني فردًا من أفراد قبيلته.

لم أفهم ما هو الشيء الذي يؤاخذني عليه. لكني لم أنزعج. كنت أتوقّع أنه في نهاية هذا الاستجواب، سيبوح لنا بالأسرار التي ننتظر أنا ولوروج، أن يكشف لنا عنها.

هو: "متى رأيت ابن أختي آخر مرة؟".

أنا: "منذ أكثر من عام، عندما ودّعته قبيل سفري إلى إيطاليا".

هو: "ولماذا تبحث عنه الآن؟".

أنا: "أريد أن أعرف منه الأخبار؛ لأني توقّعت أن تكون مقابلتك مستحيلة، خلال أحداث المواجهات العنيفة بينكم وبين الرومانيين".

هو: "ومتى جئت إلى ميدان كرملين بيساتر آخر مرّة؟".

أنا: "قبل ثمانية أيام، وكان معي صديقي فرناند ليجيه الرسّام".

هو: "وماذا كان يريد منّي هذا الشخص الذي لا أعرفه؟".

أنا: "هو لم يكن يريد منك أنت أيّ شيء، لكنه أراد أن يسجّل في الكرّاسة التي حملها في يده بعض الرسومات التخطيطية السريعة، مثلما يفعل كلّ الرسّامين، قد تكون أفكارًا للوحاته المستقبلية، فهو مهتم بموضوع غجر باريس، لذلك تجوّلنا في المنطقة؛ لأعرض عليه

t.me/qurssan

الأفكار المختلفة، لزوايا الشوارع وواجهات المساكن، حتى توقّفنا أمام (أكاديمية الشارلو)، حيث أبلغني أحد الأطفال بنبأ فوزك في الانتخابات، فأردت أن أهنّئك".

(٧)

هو: "لماذا إذن انتظرت ثمانية أيّام لتهنئتي رغم أنك تعرف عنواني؟".

هو إذَنْ غاضب لأني تأخّرت في الحضور إليه لتهنئته -أو حسب طريقة تفكيره- في أن أقدّم له فروض الطاعة والولاء، كما ينبغي أن يفعل المواطن العادي إزاء ملك البلاد.

بعد فترة صمت، هو: "على أي الأحوال ليس اليوم هو المناسب، لإجراء حوارات معي، فإن الصراع لم ينتهِ بعد".

أنا: "إذَنْ لديّ موضوع آخر، كان فيكتور هوجو قد كتب ذات يوم في منتصف القرن التاسع عشر، موضوعًا عن أطفال الشوارع في باريس، حيث ذكر أن بعض هؤلاء البؤساء، يتعرّضون لعمليات تشويه دنيئة مقزّزة، في وجوههم وفي أجزاء أخرى من أجسادهم، ليصبحوا صالحين لممارسة الشحاذة".

بعد لحظة صمتٍ، قلت: "أنا أعرف أنِ هذه القصّة ليست من وحي خيال هوجو، بدليل أن هذه الأفعال لا تزال تُمارس في باريس بعد سبعين عامًا، ولكن الضحايا الآن هم أطفال أوروبا الشرقية، وبالتحديد من المجر ورومانيا، الذين يخطفهم الغجر من عائلاتهم، ويحضرونهم

t.me/qurssan

معهم إلى باريس، حيث تجرى لهم عمليات التشويه، ثم يساقون إلى الشحاذة".

لوروج: "لا أستطيع أن أصدّق أن هذه الأفعال لا تزال تُمارس حتى الآن. هل يستطيع أحدكما أن يعطيني بعض الأسماء؟".

ساوو: "أستطيع أن أعطيك قائمة بأسماء الأشخاص القائمين على هذه التجارة وعناوينهم، وكلهم من غجر رومانيا الكلاب الخنازير، فنحن لا نقترف أبدًا مثل تلك الجرائم البشعة في حقّ الأطفال، التي آن أوان محاسبتهم عليها، أنا حتى أستطيع أن أعطيك قائمة بالأسعار التي يعرضون بها هؤلاء الأطفال المشوّهين للبيع، أو للإيجار باليوم أو بالأسبوع. وبالمناسبة فإن ماركو الترانسيلفاني، هو أكبر الوسطاء السماسرة بين مناطق خطف الأطفال في رومانيا وبين مراكز تشويههم في باريس، ثم بيعهم أو تأجيرهم".

بعد فترة صمت، هو: "يمكنك يا بلاز أن تذهب للقاء [الأم]، وفي نفس الوقت يمكن لصديقك الصحفي أن يحصل منّي على كل المعلومات المتاحة لي حاليًا، عن موضوع استغلال الأطفال المشوّهين، بشرط ألّا يتحدّث معي في أي شيء له علاقة بوقائع الأيام الثمانية الأخيرة، ويمكنكما أن تعودا فيما بعد مع مصوّر فوتوغرافي، فليست لديّ حاليًا أيّ صور شخصية، وليست هذه هي اللحظة المناسبة لظهور صورة فوتوغرافية لي في جريدة، فأنا في غنى عن المزيد من المشاكل، فكل تفكيري الآن مشغول بنقل معسكر الغجر الصقليين من هنا إلى مكان آخر، لم أعلن عنه بعد".

لاحظت اليوم شيئًا غريبًا في سلوك ساوو، كأنه لا يريد أن يحرّك ذراعيه، فهو يتركهما ثابتتين على ركبتيه، رغم أنه معتاد على كثرة تحريكهما أثناء حديثه إلى الآخرين، لذلك من المحتمل أنهما أُصيبتا في المعارك الأخيرة، وهو لا يستطيع تحريكهما، ولا يريد أن يجعلنا نعرف ذلك.

عاد من جديد إلى موضوع صديقي الرسّام فرناند ليجيه، وقد اتضح لي أن فرناند عاد وحده عدّة مرّات إلى الحيّ، يجوس في الأنحاء بشكل مريب، فيتوقّف أمام بعض الأشياء أو الأشخاص ليطيل النظر، فيما لا ينبغي التوقّف أمامه وإطالة النظر فيه.

ساوو: "أبلغني جواسيسي بأمره، وكنت مغتاظًا منه جدًّا؛ لأنني لم أكن أعرف مَن هو، ثم إنه كان أحيانًا يتصرّف بغباء كبير، أو بغياب ذهن تام، فيأتي أثناء المعارك ليقف في مكان متوسّط بين المقهيين المتواجهين، وبين الفريقين المتصارعين، كأنه ينوي الانتحار. لذلك كانت شدّة ثقته بنفسه هذه، جعلتني أعتقد أنه أحد أفراد الشرطة السريين، ممَّن يحملون طول الوقت ذخيرة حيّة، مستعد وقادر على استعمالها عند اللزوم".

أنا: "لكن فرناند بريءٌ تمامًا من تهمة التجسّس، ولو تحدّثت إليه بنفسك مرّة واحدة، لأدركت حجم براءته، بل قل حجم سذاجته، فرغم ضخامة جسمه وما يبدو عليه من قوّة عضلات، إلا أنه في الحقيقة لم يكن يبحث هنا إلا عن موضوعات للوحاته القادمة".

ساوو: "على أي حال، لقد اضطرّ رجالي أمس إلى إعطائه علقة

t.me/qurssan

ساخنة، فلو أنك ذهبت إليه اليوم ستجده ملازمًا للفرش، بسبب الألم المبرّح الذي من المؤكّد أنه يشعر به في أنحاء جسده. هم لم تكن نيّتهم قتله، وإلا لكانوا قد فعلوا، ذلك لأنهم يعرفون أنه جاء إلى الحيّ لأول مرّة معك أنت، وأنا لا أزال أثق فيك، لكنهم أرادوا فقط كسر ساقه، حتى لا يعود إلى التسكّع في الحيّ، ويجب أن يعتبر نفسه سعيد الحظّ جدًّا؛ لأننا لم نكسر له إلا ضلعين أو ثلاثة أضلاع".

قام ساوو فجأةً من مكانه، وانسحب من أمامنا إلى داخل منزله، دون أن يصافحنا باليد. لاحظت أن ذراعيه تتدلّيان على جانبي جسمه، فتأكّدت أنهما مصابتان.

(٨)

بعد هذا اللقاء مع ساوو، اعتقدت أن لوروج سيقوم بكتابة صفحة كاملة في جريدته عن مشكلة الصراع القائم بين قبائل غجر باريس. صباح اليوم التالي وصلتني هذه البرقية منه:

(عزيزي سندرار، لا أستطيع أن أكتب شيئًا عن قضيّة لا تزال معلّقةً، رغم أن الزيارة قد أثارت فعلًا اهتمامي بالموضوع، لكني لن أكتب أي شيءٍ عنها في الوقت الحالي، طالما لم يصل الصراع إلى نتيجة محدّدة، لذلك أطلب منك أن تتابع هذه المسألة بنفسك، وتطلعني أولًا بأول على تطوّراتها).

كان لوروج في موقفه هذا مخطئًا، إذ إنه لو كان قد كتب في جريدته عن هذا الصراع في نفس ذلك اليوم، لفاجأته الأقدار -كما فاجأتني-

t.me/qurssan

بما حدث فعلًا في الواقع، ولكان قد فاجأ قرّاءه كذلك، ولكانت هذه المقالة ضربة صحفية لا يستهان بها.

كان ماركو مدرّب الدببة قد اختفى قبل بضعة أيام، وهذا كنت أعرفه، لكن الجديد الذي لم أكن أعرفه هو أنه قبل اختفائه كان قد ذهب بدببه الستّة إلى معسكر ساوو، وتركها في رعاية أحد أعوان ساوو، الذي عندما علم بهذا اغتاظ جدًّا، حتى إنه قتل ثلاثة من هذه الدببة خنقًا بيديه العاريتين، إذ كانت دببة صغيرة الحجم في سنّ الطفولة، إلا أن أحد هذه الدببة تمكن من إفلات رأسه وعضّ ساوو في يديه. هذا هو إذن السبب في أن ساوو أخفى يديه الاثنتين بهذين القفّازين. يا لها من مهمّة شاقة أن تكون ملك الغجر!

ثم جاءتني مكالمة تليفونية في وقت متأخر من الليلة التالية، أبلغتني أن ساوو قد قُتِل رميًا بالرصاص في قلب معسكره، في السرير الذي ينام عليه في عربته الخشبية، وأن القتلة قد فرّوا من المكان قبل أن يتمكّن أحد من اللحاق بهم، فجاءتني على الفور فكرة أن القاتل ليس من معسكر الأعداء، بل هو أحد خلصاء الملك، أو بالتحديد أحد خلصائه السابقين، وغالبًا سيكون ماركو، الذي دخل إلى عربة ساوو واختفى فيها، قبل وصول ساوو إليها، وغالبًا سيكون هو وحده القاتل دون أيّ شركاء آخرين.

هذه هي النتيجة المتوقّعة، لصراعات طويلة دامية لا تنتهي أبدًا إلا بحادثة قتل. هذه هي فعلًا نهاية الصراع التي أرادها لوروج، لعلّه يكتب الآن عن غجر باريس. لكنها في اعتقادي أنا ليست النهاية، إذ إن مثل

t.me/qurssan

هذه الحوادث يتكرّر وقوعها لدى قبائل الغجر. تساءلت هل سيكون الآن على صديقي ساوو الصغير أن ينتقم بيديه لمقتل خاله؟ وهكذا ينجرف هو -أيضًا رغم إرادته- في هذه السلسلة اللا نهائية من الثأر المتبادل، فهم يقتلون واحدًا منّا، ونحن نقتل واحدًا منهم، وهكذا إلى ما لا نهاية.

(٩)

هذا هو نصّ برقية طويلة وصلتني من صديقي الرسّام الطليعي فرناند ليجيه:

(صديقي العزيز بلاز، يؤسفني أن أقول لك إنّك جبان؛ إذ إنك جبنت عن العودة معي إلى لقاء الغجر في الحيّ الذي يقيمون به في باريس كما وعدتني.

وحيث إنك قد اختفيت تمامًا عن الأنظار، فقد قرّرت العودة وحدي إلى حيّ الغجر، إلا أن ما حدث لي معهم هناك منعني من مغادرة المنزل لمدّة طويلة، بل منعني حتى من مغادرة الفراش.

هم تكالبوا عليَّ بشكل لا يليق إلا بأخلاق الغجر، دون أي سبب واضح، لذلك لم أعد أحبّهم، بل حتى لم أعد أهتمّ بأحوالهم وبرسم مناظر من حياتهم.

المهم في الموضوع -وهو الذي من أجله أكتب إليك هذه البرقية- أنني لتزجية أوقات فراغي قمت برسم صورة لرأس وجسم الممثل الأمريكي شارلي شابلن، المشهور الآن في العالم أجمع، وقمت بقصّ

t.me/qurssan

حواف اللوحة من حول رأس وجسم شارلي، وعلّقت الرسم بالخيوط في سقف الغرفة، فبدأت الرياح القادمة من النافذة في تحريك رأسه وأطرافه، مثلما يفعل المهرّج في أفلامه، مما أوحى إليَّ بفكرة سأعرضها عليك الآن.

لقد فكّرت في إنتاج عدد من هذه اللوحات، والاستفادة من الأساليب الصناعية الحديثة في إنتاج كمّيات كبيرة منها، وإعدادها للبيع التجاري. ألا تعتقد أن هذا يمكن أن يكون مشروعًا ناجحًا، يجلب علينا بعض المال؟

لكني أسالك ألا تعرف رجل أعمال يمكننا أن نجعله يتحمّس للمشروع؟ خاصةً ونحن نقترب من موسم الاحتفال بأعياد الميلاد ورأس السنة، ألا تعتقد أن الأطفال الفرنسيين سيحبّون أن يحصلوا على واحد مثله؟

إذا كانت إجاباتك على هذه الأسئلة إيجابية، فاحضرْ إلى مرسمي في أسرع وقت ممكن، لنتناقش في كافة احتمالات المشروع).

لم أردّ أبدًا على هذه البرقية، فإن فرناند عندما أرسلها إليَّ على عنواني الباريسي، لم يكن يعرف أنني لست في باريس، وأنني لن أعود إليها قبل بضعة أشهر.

لكن لحسن حظّ فرناند -وقد أثبتت حياته أنه كان محظوظًا في الكثير من أحداثها- اشترى منه هذه اللوحة أحد كبار منتجي الأفلام السينمائية الأمريكية، ولذلك هي تعرض الآن في متحف الفنون الجميلة في مدينة هولي وود، مدينة الإنتاج السينمائي في غرب أمريكا.

t.me/qurssan

رغم ذلك فإن صديقي فرناند لم يغفر لي هذه الغلطة؛ إذ اعتقد أنني أضعت عليه إمكانية أن يكسب الكثير من الأموال، فهو لم يكن قادرًا وحده على تنفيذ هذا المشروع، هو لا يتمتّع بالعقلية العملية التجارية التي كان يعتقد أنني أتمتّع بها.

لم يحكِ لي أبدًا خلال صداقتنا التي استمرّت بعد ذلك لسنوات طويلة عمّا أصيب به من جروح أو كسور إثر زيارته وحده لحيّ الغجر الباريسي؛ لأنه لم يُرِدْ أن يعترف أبدًا أنهم ضربوه، رغم قوامه الرياضي الذي أوحى إلى الغجر أنه قد يكون من الشرطة السرّية، وأوحى إلى ساوو الصغير أنه قد يكون واقعًا في غرام واحدة من فتيات الغجر، كما ذكر لي هو فيما بعد.

قلت لفرناند ذات يوم: إنّه يكفي جدًّا للتدليل على حسن حظّه، أنهم لم يقتلوه، خاصة لو أدرك السهولة التي يقتلون بها بعضهم بعضًا، بالأسلحة النارية أو البيضاء، بسبب مسائل تتعلّق بالنقود أو بالنساء.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل السادس عشر

مسرحيٌّ موهوبٌ

(١)

بعد حادثة مقتل ساوو الكبير توقّفت عن الذهاب إلى معسكر الغجر الصقلّيين لفترة طويلة، ولكنني علمت من جريدة الصدى *l Echo* الباريسية، أن (المجدور) الذي كان نائبًا للملك، قد تولّى مؤقّتًا منصب الملك، لحين إجراء انتخابات جديدة، وأنه -أي المجدور- قد ذهب بعربات الغجر التابعة له إلى جنوب فرنسا في جولة مسرحية فنّية هزلية، إذ قد يكون هذا هو الحلّ المثالي لنسيان حادثة القتل، وللهروب من الأجواء الدموية الباريسية.

وقد اعتادت مدن جنوب فرنسا على استقبال هذه المسارح المتجوّلة، التي غالبًا ما تعرض مسرحياتها أو فقراتها الهزلية في العراء، وهو ما لا يناسب أجواء شمال فرنسا بقدر ما يناسب أجواء جنوبها، حيث يقلّ جنوبًا سقوط الأمطار في الشتاء، وينعدم تقريبا سقوطها خلال شهور الصيف ذات النهارات الطويلة الدافئة، حين يكون غروب الشمس حول الساعة الثامنة مساءً.

t.me/qurssan

هذه المسارح المتجوّلة هي تقليد فرنسي قديم، مارسه أغلب المسرحيين الفرنسيين في بداية حياتهم، حتى أعظم عظمائهم مثل موليير الذي عاش سنوات شبابه في تنقّل دائم خلال النصف الأول من القرن السابع عشر.

إلا أن الفرق المسرحية الغجرية المتجوّلة كان ينقصها بشكل عام الكثير مما يتوفّر غالبًا لغيرها من الفرق المسرحية المتجوّلة، مثل الملابس اللازمة للمسرحيات التاريخية، والديكورات اللازمة للمناظر، أو حتى الخلفيّات المرسومة بالألوان على قطع كبيرة من القماش، لم يكن لأيٍّ من هذا وجود لدى فرق الغجر.

كان الغجر يمثّلون دون أن تكون لديهم لا الملابس المناسبة، ولا الخلفيّات المناسبة، مما كان يجعل المنافسة بينهم وبين غيرهم من الفرق في غير صالحهم، ويجعل المقارنات غير عادلة.

(٢)

كان تأثير المسرح الرومانسي الإسباني *Romancero Espagnol* أكثر وضوحًا في جنوب فرنسا عنه في شمالها، وكلما اقتربنا من جنوب غرب فرنسا حيث تقع الحدود مع إقليم كاتالونيا الإسباني، ازداد تأثير هذا المسرح وضوحًا.

تميّز هذا المسرح بكثرة شخصيّاته الخيالية، التي غالبًا ما تنتمي إلى عالم السحرة والجنّيّات الجميلات، اللائي كنّ يظهرن على المسرح، وهنّ يرتدين أردية بلون بشراتهنّ، تلتصق بأجسادهنّ، مما كان يوحي

t.me/qurssan

إلى الجمهور عند رؤيتهنّ من على بعد بضعة أمتار، بأنهّن عاريات.

أمّا المقطوعات المسرحية الغجرية التي كانوا يمثّلونها، أو يلعبونها كما يقولون، فهي لم تكن أبدًا رومانسية أو خيالية، بل غالبًا ما كانت مقطوعات هزلية سخيفة ماجنة، تحاول فقط إثارة ضحك الجمهور وغريزته الجنسية؛ سعيًا فقط لا غير وراء المكاسب المالية مهما كان الثمن.

إلا أن المشكلة الحقيقية التي كان على المسرح الغجري المتجوّل مواجهتها، كانت هي مشكلة عدم إتقان الممثلين الغجر للغة الفرنسية، أو نطقهم لها بلهجة غير مفهومة لأهل الجنوب. وللتغلّب على هذه المشكلة، كانت أغلب مقطوعات الغجر المسرحية، من نوع التمثيل الصامت أو البانتومايم *pantomime*، على أن يقوم أحد الرواة بشرح المواقف المسرحية واحدًا بعد الآخر، بشرط أن تكون فرنسيّته مفهومة للنظّارة.

كان المجدور موهوبًا موهبة حقيقية، إذ كان هو المؤلّف الغجري الوحيد الذي تمكن من تأليف مسرحيات محبوكة، وكان قادرًا على اختلاق حبكات درامية مركّبة، مع القدرة على إيجاد حلول للعقد المحبوكة، قبيل نهاية العرض المسرحي، مما يحفظ عنصر التشويق، الذي يربط أعين الجمهور وآذانه بالمسرح إلى آخر دقيقة في المسرحية.

لذلك نجح المسرح المتجوّل على زمنه في تحقيق مكاسب مالية، لم تكن تتحقّق على زمن ساوو الكبير، الذي كان يضع قيودًا على عبقرية المجدور، ربّما غيرة منه بسبب إدراكه لها. رغم هذه العبقرية عليَّ أن أعترف أن فكّ الحبكات كان يحدث أحيانًا بأساليب تناقض كلّ منطق.

t.me/qurssan

(٣)

كان المجدور -لدهشتي الشديدة- قد استوحى من حادث مقتل ساوو واحدة من أنجح مسرحياته، وقد وضع ضمن الأحداث مسألة وصول الدببة إلى مقرّ إقامة ساوو، وكيف قتل ثلاثة منها بيديه العاريتين.

حاول المجدور صبغ هذه المسرحية بالطابع التراجي كوميك - *tragi comique*، أي المأساة/ الملهاة، وهو النوع المحزن المضحك في نفس الوقت، وقد نجحت هذه الخلطة جماهيريًا بشكل غريب، ودلّت هذه المسرحية على ما لدى المجدور من حسّ رفيع بالمأساة الإنسانية، في طريقة رسمه للشخصيات، وفي قدرته العالية على ملاحظة علاقاتها وصراعاتها.

لو كان هذا العمل قد طُبع، لكان قد حقّق على ما أعتقد شهرة واسعة للمجدور بين الأدباء المسرحيين الفرنسيين، لكن الحقيقة هي أن المجدور كان أُمّيًا، يجهل القراءة والكتابة، لكنه مع ذلك كان يتمتّع بقدرة استثنائية على حفظ نصوصه عن ظهر قلب، وعلى تحفيظها شفهيًا لممثّليه، التي كانت الأغلبية المطلقة منهم لا تعرف هي الأخرى القراءة والكتابة. كان المجدور واحدًا من القادرين على أن يحلموا، ثم على تحويل أحلامهم إلى وقائع حقيقيّة ملموسة.

ظهر هذا العمل إلى الوجود، في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، التي شهدت ظهور الحركة السيريالية *surrealisme* في الفن والأدب، التي ادّعت القدرة على رؤية ما وراء الواقع، أو القدرة على العبور فوق

t.me/qurssan

حدود الواقع. ورغم أنني لا أكنّ لهذه الحركة الكثير من الاحترام أو التقدير بسبب نوعية الشّعر والأعمال التشكيلية التي ظهرت معها، إلا أن مسرحية المجدور هي أحد أقدر الأعمال الأدبية على التعبير عن هذه الحركة، لو أن لها وجودًا فعليًّا.

(٤)

بعد انقطاع دام أكثر من عشرة أعوام، أيّ في حوالي سنة ١٩٣٤، وكنت مع ناشري وصديقي مسيو جراسيه *Grasset* في جنوب فرنسا، نقيم في أحد الفنادق الفخمة، حيث كان جراسيه يبحث لنفسه عن علاج لحالة توتّر عصبي شديد ظلّ يعالج منها لعدّة سنوات، على أيْدي أطبّاء باريس النفسيين والعصبيين، الذين فشلوا في أن يجدوا لها علاجًا.

كنت قد تركته نائمًا في الفندق، للقيام بجولتي المسائية على الأقدام، في الطرق الريفية المحيطة بمدينتنا الصغيرة، حين شاهدت قافلة من العربات الخشبية التي تجرّها الخيول، تقترب مني ببطءٍ وهي تصدر قدرًا كبيرًا من الضوضاء، وتحمل علامات مسرح الفجر المتجوّل التي أعرفها، ومنها هذه العربات المهترئة التي تجرّها خيول أصابتها الشيخوخة، وهذه العجلات التي تئنّ أنينًا مزعجًا مع كل حركة، وهذه الكسوة القماشية لتلك العربات التي لا تشبه واحدة منها الكسوات القماشية لغيرها من العربات، بل هو خليط من الألوان والأقمشة المتباينة.

t.me/qurssan

ثم جاءت في نهاية القافلة، مجموعة من الأشخاص المتربة ملابسهم القذرة أحذيتهم، فإذا بي على الفور أتعرّف فيهم، على مجموعة ممثّلي الفرقة المسرحية الغجرية المتجوّلة التي يديرها المجدور، وإذا به هو نفسه يسير بينهم، يرتدي نفس الملابس المهترئة المتربة التي يرتدونها، وقد تقدّم به السنّ بشكل واضح، ملحوظ في مشيته وفي انحناءة جسده.

اقتربت منه وعانقته فتعرّف عليّ على الفور، ونطق باسمي. سرت معهم إلى أن دخلنا المدينة، ومن خلال تبادل أطراف الحديث أدركت أنه يريد الذهاب إلى دار العمودية؛ ليطلب التصريح له بإقامة خيمة السيرك أو المسرح في أحد ميادين المدينة، فذهبت معه إلى هناك، وساعدته في الحصول على الورقة.

(٥)

بعد الحصول على التصريح المطلوب، جلسنا في إحدى حانات المدينة، ثم عند العودة في المساء إلى حجرتي بالفندق، سجّلت في كرّاستي الملحوظات التالية:

١ - الشخص الذي كنت أعرفه متألّقًا بارعًا في الحديث، قد دخل بسبب التقدّم في السنّ إلى بداية مرحلة الانطفاء.

٢ - قد يكون السبب في هذا الانطفاء النسبي، إدراكه أنه لن يحصل في حياته على التقدير الذي يستحقّه، وبالتالي أصابه اليأس.

t.me/qurssan

٣- بدا لي كما لو أنه كان غير متحمّس لإقامة الحفل المسرحي الذي حصل فعلًا على التصريح بإقامته، وأنه غالبًا لم يعد يعمل إلا لإحساسه بالمسؤولية نحو أفراد فرقته المسرحية.

٤- رغم كل شيء هو لم ينطق بكلمة واحدة تدلّ على الرثاء للذات، أو على الشكوى من المصير الذي آل إليه.

٥- دلّني هذا دلالة قاطعة، على ملمح آخر من ملامح هذه الشخصية العبقرية، وهو ملمحِ القوّة النفسية الداخلية، التي بدت واضحة في اختياره لكلماته، وفي نبرة صوته، وفي إشارات يديه وعينيه. وجدت فيه لحظتها شبهًا عجيبًا بالمؤلّف الموسيقي الإيطالي عازف الكمان المعجز نيكولو باجانيني *Paganini* (١٧٨٢ - ١٨٤٠).

٦- مظهره لم يكن بائسًا على الإطلاق، بل هو في الحقيقة أقرب شبهًا بالفنّانين البوهيميين، وهم الفنّانون المنطلقون في الطبيعة بعيدًا عن أيّ قيود اجتماعية أو أخلاقية، ودون كثير اعتناء بمظهرهم وثيابهم وما يقوله الناس عنهم.

٧- أصبح قليل الرغبة في الكلام، حتى إنني بدوت كما لو كنت أسحب الكلمات من فمه بالكمّاشة، وهي الأداة التي تستعمل في اقتلاع المسامير من الحوائط.

٨- كلما تكلّمت عن الأحداث الماضية في حياته، صمت طويلًا كما لو كان يسرح في خيالاته، يبحث عن صور غائبة، ضاعت بسبب فقدان الذاكرة المصاحب للتقدّم في السنّ.

t.me/qurssan

٩- على المستوى الإنساني هو يعرف كم أتعاطف معه، وعلى المستوى الفنّي هو يعرف كم أقدّر حجم موهبته المسرحية، لكنه يبدو كما لو كان عازفًا عن الكلام في هذا الموضوع، راغبًا عن الخوض فيه.

(٦)

كنت أعرف أن الأم قد ماتت سنة ١٩٢٥ بسرطان في اللسان والفمّ، لكن الجديد الذي أخبرني به المجدور ولم أكن أعرفه، هو أن الابنة الصغرى للأم -التي كنت ذات يوم أحد عشّاقها- قد اختفت من القبيلة دون أن يعرفوا أين ذهبت، وإذا بها تظهر بعد شهور قليلة في المجتمع البريطاني، كزوجة لأحد الإنجليز من طبقة النبلاء، ويحمل لقب لورد.

إنجلترا هي البلد الأوروبي الوحيد، الذي يمكن لنا أن نعثر فيه بين طبقة النبلاء أو طبقة كبار رجال الأعمال على أشخاص من أصول غجرية. الاستثناء الوحيد في فرنسا المعاصرة لهذه القاعدة هي صديقتي بخيتة.

الشيء المدهش فعلًا هو أن ثروة ساوو -الملك المقتول غدرًا، والتي تقدّر ببضعة ملايين من الجنيهات الإسترلينية، وكان قد حصل عليها بالاشتراك في كثير من عمليات تهريب المجوهرات، من أوروبا الشرقية إلى باريس- لم يتمّ أبدًا العثور عليها.

كان من عادة الغجر في تلك الفترة الابتعاد قدر الإمكان عن التعامل مع البنوك، ليس فقط لعدم ثقتهم في نظامها، بل كذلك لعدم

t.me/qurssan

حصول الغجر عادة على أوراق إثبات شخصية. بالإضافة إلى فكرة أن الحكومات غير الموثوق فيها قد تسأل المودعين ذات يوم عن مصادر تلك الثروات.

لذلك كان كبار رجال العصابات الأوروبية والأمريكية -مثل ساوو- يخفون في ذلك الوقت ثرواتهم بمعرفتهم، غالبًا في أماكن غير مألوفة، كالكهوف الصخرية الموجودة في المناطق الجبلية المرتفعة التي يصعبُ الوصول إليها، أو في تجاويف جذوع أشجار ضخمة في الغابات الكثيفة، مع ترك علامات يستدلّ بها الرجل وحده فقط على المكان، على أن يبلغ الرجل شخصًا واحدًا فقط لا غير، من بين الموثوق بهم من أفراد أسرته المقرّبين، كالأم أو الأخت أو الزوجة، إلا أن ساوو لم يفعل هذا، فلم يبلّغ أحدًا، وهكذا اختفت ثروته التي قد تقع ذات يوم في يد شخص مجهول، بضربة حظّ من تلك الضربات الغريبة التي تحدث في الحياة.

أما صديقي ساوو الصغير، فقد اختفى هو الآخر، بعد أن ثأر لخاله بقتل ماركو الترانسيلفاني. يقول المجدور إنهم يعرفون أنه انضمّ إلى عصابات المافيا الصقلّية، التي تعمل بين نيويورك وشيكاجو، وأنه قد استأنف هناك عمليات السرقة والنهب والقتل لصالح رجل أعمال. حكايات المافيا الصقلية النيويوركية، ستصبح لاحقًا مادة خصبة للأفلام السينمائية، وأحد أهم مصادر السينما الأمريكية في أفلام الإثارة.

t.me/qurssan

(٧)

سألني المجدور: "وماذا عن حياتك أنت؟"، هنا ذكرت له النبوءة التي كانت الأم قد نطقت بها، منذ حوالي خمسة عشر عامًا، وكيف أنني أعتقد أن نبوءتها تلك، كانت قد بدأت في التحقّق، إذ كنت قد وجدت نفسي في الكتابة، وحقّقت فيها اسمًا طيبًا، ككاتب معروف في فرنسا وفي خارجها، وكيف أنني أسعد كثيرًا بالعوالم التي أخلقها في كتاباتي، وأعيش فيها مع شخصيّاتي.

قلت إن هذا الخلق الفنّي يجعل الكاتب أقرب شبهًا بأرباب الخليقة في الأساطير القديمة؛ لأن الكاتب يمكنه أن يظلّ على قيد الحياة، بعد موته وزوال جسده، إذ ستكتب له أعمالُهُ الخلودَ، طالما ظلّت هذه الأعمال جديرة بالبقاء.

وأضفت أنه لا يمكن للكاتب أن يكتب وهو بمعزل عن العالم الذي يخلقه، إذ غالبًا ما تصاحب عملية الخلق الأدبي، مشاعر فيّاضة يشعر بها الكاتب، وهي إما مشاعر سعادة غامرة، وإما مشاعر تعاسة ومعاناة، وهذا هو الفرق بين الأرباب الحقيقيين الذين يخلقون البشر دون إحساس بسعادة أو بتعاسة، وبين الانسان الذي يخلق عملًا إبداعيًا.

ثم تساءلت أمامه: "هل يشعر الأرباب بنفس الطريقة التي يشعر بها البشر؟ أي هل لديهم عواطف بشرية؟ أو بشكل آخر: هل يسعد الربّ أو يتعس أثناء عمليات خلقه للبشر؟"، فقال: "إن كتاب التوراة

t.me/qurssan

بجعلنا نعتقد أن الله كان يفرح ويحزن ويغضب ويرتاح مثل مخلوقاته من الكائنات البشرية".

وصلنا معا إلى هذه النتيجة، وهي أن المخاطرة الحقيقية هي أن يموت الكاتب رمزيًا قبل موته الجسدي، مسحوقًا تحت ثقل عمله الأدبي، لسبب أو لآخر، كأن يعتقد أن هذا العمل بلغ القمّة في الإبداع، وبالتالي لا يعود الكاتب أبدًا بعد ذلك إلى الخلق الفني تحت تأثير هذا الاعتقاد. لذلك ظهرت أمامي فجأة هذه الصورة، للكاتب وقد تزوّد بزوج من الأجنحة، التي نبتت له في موضع ذراعيه، حتى إذا شعر بثقل إنتاجه الأدبي، يستطيع أن يخلع جسمه عن الأرض ويطير.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل السابع عشر

حياة الغجر

(١)

عند عودتي من الحرب كانت أهمّ ضربة حظّ حدثت لي، هي أنني تعرّفت إلى أم صديقي ساوو الصغير وإلى بناتها الثلاث. هنّ نساء دائمات النشاط، دائمات الإحساس ببهجة الحياة، إلا أنهنّ كنّ يذكّرنني بالجنود الفرنسيين على جبهات القتال في الحرب العلمية الأولى، الذين كانت تصدر لهم الأوامر بالتحرّك من مكان إلى مكان، فيطيعون الأوامر دون أي نقاش، ولا حتى مجرّد سؤال بسيط هو: لماذا؟ هكذا هنّ كذلك نساء الغجر، اللائي تصدر إليهنّ الأوامر من ذكور القبيلة بالاستعداد للتحرّك، فيبدأن في جمع أشيائهنّ المبعثرة في كل مكان، حول قافلة عربات الخيول، دون أن يسألن لماذا؟ ولا إلى أين؟ هنّ لا يعرفن السبب أو المعنى أو الهدف وراء ارتحالهنّ الدائم وهجرتهنّ الأبدية.

إمّا أن تمشي أو أن تموت. كان هذا هو مبدأ القتال، في حرب الخنادق *trench warfare*، التي دامت بين فرنسا وألمانيا، خلال العام

t.me/qurssan

١٩١٦ كله من بدايته إلى نهايته، وكلّفت كلّا من البلدين أرواح مئات الآلاف من الشباب، وعرفت باسم الإقليم الجغرافي الذي وقعت فيه، وهي منطقة مدينة فردان *Verdun*، في الشمال الشرقي من فرنسا، بالقرب من حدودها مع بلجيكا. إمّا أن تسرع بالهرب من الخندق، أو تقع على أمّ رأسك قنابل الأعداء، الذين تمكنوا أخيرًا من اكتشاف موقع الخندق.

أدركت لاحقًا أن هذا هو نفس المبدأ، الذي يحكم حياة كلّ أولئك الذين يعيشون في شوارع المدن الكبرى في فرنسا، بل في أوروبا كلها، دون أن يكون لهم مقرّ إقامة أو مأوى ثابت، ويعرفون اختصارًا باسم *SDF* إس دي إف، *Sans Domicile Fixe*، إذ يهربون كلما شعروا باقتراب سيّارات الشرطة الكبيرة، التي يمكن ترحيلهم فيها إلى السجون، أو إلى الملاجئ الإجبارية، التي يرحّبون بها فقط في زمهرير الشتاء. هذا هو نفسه المبدأ الذي يحكم حياة نساء الغجر، فالغجر في حالة تنقّل دائم، وتأهّب مستمر لشحن المنقولات والهرب بها، إمّا بسبب اقتراب سيّارات الشرطة، وإما بسبب اقتراب أو تهديد خصم عنيد.

فإذا كنت ذات يوم قد حاولتُ أن أعرف من الأم ما هي بالضبط خطوط سيرها، منذ وطأت قدمها أرض القارة الأوروبية لأول مرّة، وهي في السابعة عشرة من العمر، قادمة من جزيرة صقلّية، وما تنقّلاتها ومحطّات توقّفها، بين فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا، فأنا فعلت ذلك بروح الباحث العلمي المدقّق، وكنت أسجّل خلفها في كراسة كل أسماء المدن والقرى، التي كانت لا تزال تتذكّرها جيّدًا بعد أربعين عامًا، وهي في سنّ السابعة والخمسين، وأعود إلى البحث عنها في

t.me/qurssan

خرائط أوروبا وكتب جغرافيتها، وأحاول أن أربط بين الخرائط، وبين الحقائق الحياتية المروية. لقد سجّلت كل تفاصيل هذه الحياة الغامضة على الطرقات، خلال الأربعين عامًا من حياتها، التي أتاحت لي [الأمّ] أن أعرفها.

كان جلوسي إلى هذه المرأة، والاستماع إلى مرويّاتها، قريب الشبه جدًّا بالجلوس إلى قسّ كاثوليكي، أو إلى حاخام يهودي كبير السنّ، يعرف جيّدًا كل خطوط سير الشعب اليهودي مع نبيّ الله موسى، وفقًا لما جاء في التوراة، في سفر خروج شعب إسرائيل من أرض مصر، وعبورهم خليج السويس (القُلْزُم)، ثم محطّات تنقلاتهم في أرض التيه في سيناء لمدّة أربعين عامًا، حتى استقرّوا أخيرًا في وادي نهر الأردن، لتأسيس مملكة يهوذا. مسألة الأربعين عامًا من حياة المرأة التي ذكرتها أعلاه، هي التي لفتت انتباهي إلى التشابه بين الحكايتين.

(٢)

كان السبب الأصلي الذي دفع [الأمّ] إلى ترك عشيرتها الأولى في صقلّية، وعبور البحر إلى أوروبا، مع أول رجل ظهر في حياتها، هو رغبتها في التخلّص من السيطرة البغيضة لكل ذكور العشيرة، من أعمام وأخوال وأبناء أعمام وأبناء أخوال وإخوة أشقّاء وإخوة غير أشقّاء. كان كل هؤلاء الذكور دون استثناء، يلعبون دورًا قذرًا في حياة القبيلة؛ إذ يحفّزون نساء القبيلة الجميلات على ممارسة الدعارة في الطرقات، ثم يقومون بالاستيلاء منهنّ على ما يكسبن من أموال، وإذا رفضت النساء

t.me/qurssan

ممارسة الدعارة أو إعطاء الأموال، يضربهنّ الرجال.

كانت [الأمُّ] قد حاولت في سن الخامسة عشرة أن تكسب المال عن طريق شريف، أو على الأقل عن طريق عمل أقلّ تدنيسًا للشرف من ممارسة الدعارة، مثلًا بالرقص والغناء في الأسواق، أو في الاحتفالات الدينية والموالد الشعبية، إلا أن هذا الأسلوب لم يكن يعجب الرجال.

فإذا رفضت الفتاة ممارسة الدعارة، رغبةً منها في الاحتفاظ بعذريتها لزوج المستقبل، قام أقاربها الرجال بفضّ غشاء بكارتها عنوةً واقتدارًا؛ لأن هؤلاء الأقارب الرجال اعتادوا على الاعتماد التام على النساء في مسائل كسب لقمة العيش، وعلى حياة الكسل والبطالة والصعلكة، ولم يكونوا يرغبون في تغيير هذا النوع من الحياة.

إن أهم صفات الرجل الغجري باختصار:

١- هم أكثر الرجال كسلًا وأقلّهم نخوةً.

٢- القسوة على الآخرين، خاصة من النساء الضعفاء والأطفال.

٣- الخُيَلاء والزهو الفارغ، وهو ما يبدو بوضوح في طريقة المشي، وفي أسلوب ارتداء الملابس.

٤- الجشع والطمع في الاستيلاء على أموال النساء.

٥- الرغبة في ممارسة التفوّق الذكوري على الإناث، فقط باستعمال القوّة العضلية.

٦- ليس أمام الرجل الغجري إلّا إمّا الانشغال بفكرة التآمر على الآخرين، وإما الانشغال بفكرة تآمر الآخرين عليه.

t.me/qurssan

(٣)

من بين أسرار الغجر في تنقّلهم الدائم التي أفضت لي بها [الأمّ]، هو أنهم حين كانوا يصلون إلى مكان، يودّون البقاء فيه لفترة، على أطراف الحدود الإدارية لإحدى المدن الكبرى، أنهم كانوا يتعمّدون أن يقفوا بعرباتهم التي تجرّها الخيول، بحيث تكون العجلتان الأماميّتان للعربة في منطقة إدارية، وتكون العجلتان الخلفيّتان لنفس العربة في منطقة إدارية أخرى.

هذه هي الحيلة التي كانوا يلجؤون إليها، للتخلّص من مطاردة حرّاس المناطق الريفية، الذين كانوا يمنعونهم من البقاء في المناطق الواقعة في زمام حراساتهم، ثم يذهبون ويعودون بالمفتّشين الإداريين الرسميّين، الذين ينشغلون في مثل هذه الحالات بالاشتباك فيما بينهم، بسبب موضوع الاختصاص وعدم الاختصاص، بدلًا من أن ينشغلوا بطرد عربات الغجر من داخل دوائر نفوذهم.

كل المحلّيات في فرنسا وفي غيرها من الدول الأوروبية، تضع على الطرق لوحات نحاسية إرشادية ضخمة، يكتبون عليها كل المعلومات المستقاة من بنود القانون المحلّي، والمتعلّقة باستحالة شغل الطريق العام، أو بشروط إمكانية التخييم في المناطق المفتوحة في العراء، فيما يخصّ مجموعات الغجر، أو المجموعات دائمة التنقّل بشكل عام.

أمّا الغجر فلا ينطبق عليهم أي قانون؛ لأنهم دائمو التحايل على القوانين، بدليل هذا النوع من التصرّفات الماكرة، وهم لا يتوقّفون عن

t.me/qurssan

اختراع الأساليب للتحايل على القوانين، وقد ينجحون في تبرير ذلك أمامك، بالنظر إلى الصعوبات الجمّة والظروف الاستثنائية التي يجدون أنفسهم فيها.

إنهم يعيشون على هامش أي مجتمع يتواجدون فيه؛ إذ لا يقبل أحدٌ -مهما كان فقيرًا أو معدمًا- أن تستقر جماعة غجر إلى جوار مكان إقامته. بالتالي فرغم أنهم في غالبيتهم أمّيّون، لم يذهبوا أبدًا إلى أيّ مدرسة، إلا أنهم يتمتّعون بذكاء فطري، يحصلون به من واقع خبراتهم الحياتية المتنوّعة، على بعض القدرات: ١- القدرة على الملاحظة الدقيقة. ٢- القدرة على استعمال الخيال. ٣- القدرة على التخلّص من مآزقهم المستحيلة.

هناك بعض الشروط الأخرى فيما يتعلّق بالموضِع الذي يختارونه للتخييم، مثل أن يكون بالقرب من ضفّة نهر، مياهه غير آسنة أو ساكنة، أي يشترط أن تكون مياه النهر جارية، فهم يستعملون هذه المياه في أغراض شتّى: ١- الشرب. ٢- تحضير الطعام. ٣- غسل الملابس. ٤- الاستحمام. ومثل شرط أن يكون موضع التخييم واقعًا تحت كمية كبيرة من الأشجار العالية المتشابكة الأفرع، لسببين أولهما حماية العربات من مياه الأمطار في برد الشتاء، وثانيهما حمايتها من حرارة الشمس في قيظ الصيف.

t.me/qurssan

(٤)

هذه هي العناصر المشتركة في حياة الغجر:

١ - الحياة يومًا بيوم هو الحلّ الوحيد لشخص يفتقد الإحساس بالأمان، يعيش في تنقّل دائم، على الطرقات وسط الأخطار المحدقة، على استعداد دائم لمواجهة الأعداء.

٢- الاستمتاع باللحظة، أو كما كان أهل روما القديمة يقولون *carpe diem*، لذلك فإن الغجر على استعداد دائم للرقص والغناء، واحتساء الخمور وتهيّج المشاعر. هذا هو السبب في أنهم دائمو المرح والصخب رغم ظروفهم الصعبة؛ لأن هذا هو بالضبط جوهر الروح الغجرية.

٣- هذا هو أيضًا السبب في ميلهم إلى سرقة الأشياء التافهة، مثل ملابس معلّقة على حبل غسيل، أو دجاج شارد خارج الحظيرة، فهم يقتنصون على الفور كل ما يتاح لهم سرقته؛ لأنهم محكوم عليهم مسبّقًا بأنهم أغراب لا منتمون، وبأنهم غير أخلاقيين.

هذه هي العناصر التي تشكّل الطابع العام للغجر في كل دول العالم. فالغجر ليسوا جنسية أو إثنية خاصة، فأنت لا تستطيع أن تحمل الجنسية الغجرية، ولا أن تكون منتميًا إلى الجنس الغجري. الغجر هم أسلوب حياة، هم سلوك واحد وعادات متشابهة، بصرف النظر عن الانتماءات العرقية أو الجغرافية.

t.me/qurssan

فغجر أمريكا الوسطى المنحدرون من أصول هسبانية *Hispanic* من القرن السادس عشر، أو من أصول هندية حمراء أقدم من ذلك بكثير، يتشابهون في سلوكهم وعاداتهم، مع غجر وسط أفريقيا المقيمين في تنجانيقا وزنزبار، أكثر من تشابه كلٍّ من هاتين الفئتين من الغجر مع مواطنيهم الأصليين في أمريكا الوسطى أو في تنجانيقا وزنزبار.

بالمناسبة فإن كل المفردات التي تعني (غجر) ونستعملها حاليًا في أوروبا، سواء أكانت باللفظ الإنجليزي *gypsy*، أو باللفظين الفرنسيين *gitan* أو *rom*، كان المؤرّخون وعلماء الاجتماع حتى نهاية القرن التاسع عشر يستعملون في وصفهم كلمة قبائل رحّل *nomade*، سواء أكانوا من بدو الصحراء أو من أولئك الذين يعيشون على تخوم الصحاري.

كل هؤلاء كانت تجمع بينهم المهنة التي يمارسونها، وهي الأساس في نشاطهم الاقتصادي، وهي مهنة رعي الأغنام، التي كانت السبب الرئيس في تنقّلهم الدائم، بحثًا عن المراعي من حشائش وأعشاب وماء. التشابه الذي لا يزال موجودًا بين قدماء الغجر ومحدثيهم، هو التنقّل الدائم، وليس رعي الأغنام، فغجر القرن العشرين لم يعودوا رعاة أغنام.

(٥)

والآن سأتعرّض لموضوع شائك، أثار لديَّ قدرًا كبيرًا من الدهشة كلما توغّلت فيه، وهو موضوع الإجابة على السؤال حول طبيعة العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة الغجريين.

t.me/qurssan

أولًا: لا تتوقّعوا أن أجيب إجابة مباشرة على هذا السؤال، بل يجب أن ألفّ وأدور بكم طويلًا، في أروقة التاريخ والأساطير، وفي أحابيل المعتقدات الشعبية الخرافية، التي ترسّبت عبر عصور طويلة، حتى إن الأصول سحيقة القدم لبعض هذه المعتقدات قد فُقدت تمامًا، ولم يعد ممكنًا الوصول إليها.

ثانيًا: يجب أن نضع في اعتبارنا مجيء الديانات السماوية الموسوية الثلاث إلى بشر الكرة الأرضية، ووضْع نظم أخلاقية تتفق مع بعض ما جاء في هذا الإرث البشري الطويل من المعتقدات القديمة، وتختلف مع بعضها الآخر.

ثالثًا: عليَّ كذلك أن ألجأ إلى علوم حديثة نشأت في القرنين الأخيرين، ومنها علم دراسة نشأة الأجناس البشرية *ethnogenecity*، وعلوم الأخلاق والعادات التي تطوّرت مع نشأة المجتمعات البشرية الأولى، عندما كانت كل نساء القبيلة مشاعًا بين كل رجالها، بالتالي كان الأبناء يحملون اسم الأم *maternal society*، بدلًا من الوضع الحالي.

رابعًا: كل هذا ضروري قبل أن أصل إلى أي نوع من الإجابة على هذا السؤال، لأني أظنّ أن ما فهمته بخصوص هذا الموضوع بدا لي عندما طرحته على نفسي لأول مرة، كما يبدو لي الآن بعد حوالي ثلاثين عامًا من طرحي لهذا السؤال، موضوعًا مركّبًا من نقاط عديدة، شديدة الالتفاف والغموض والإبهام.

خامسًا: بالإضافة إلى السابق، هناك ملحوظة مهمّة تتعلّق بالمدى الشاسع الذي ينبغي لبحثي هذا أن يحتويه، بسبب التوزيع الجغرافي

t.me/qurssan

الغريب لقبائل الغجر، بامتداد قارات العالم الست، من نيكاراجوا في أمريكا الوسطى، إلى زنجبار في شرق أفريقيا، إلى المرتفعات الجبلية في آسيا الوسطى، ففي كل هذه الأماكن شديدة الاختلاف عاشت قبائل غجرية.

سادسًا: يجب أن نأخذ في الاعتبار الأوضاع السياسية في أوروبا الحالية، حيث تلجأ الأنظمة الحاكمة إلى اشتراطات قاسية حتى تسمح للأجنبي بالانتماء إليها وبالاستقرار على أرضها، فهذه الأنظمة بمثل هذه الاشتراطات، تحاول أن تحمي مجتمعاتها، من قيم تبدو غريبة على المجتمعات الأوروبية في القرن العشرين.

ورغم أنني في علاقتي بالغجر اكتفيت دائمًا بتسجيل ملاحظاتي على كل ما أراه وأسمعه، ولم أجرؤ أبدًا على طرح أسئلة مباشرة، فقد جاءتني المعلومات طواعية. هكذا تمكنت من الحصول على معلومات بخصوص خمسة من أزواج الأم الأحد عشر. يكفي هنا أن أذكر لكم معلوماتي عن أول أزواجها، الذي كان مشهورًا بأنه (حرامي فراخ)، ومات بالسلّ الرئوي في السجن، حيث كان يقضي مدّة عقوبة بسبب إدانته في إحدى جرائم السرقة.

(٦)

من بين أعجب المعلومات التي حصلت عليها، معرفة أن النساء اللائي يراد لهنّ الوصول إلى مكانة مرتفعة في القبيلة الغجرية، يجب أن يكنّ مختونات. من المؤكّد أن هذا الطقس وصل إلى الغجر من

t.me/qurssan

المعتقدات اليهودية، حيث تمتلئ صفحات التوراة التي تقارب الألف صفحة، بالمئات من حالات الختان للذكور وللإناث، لأنبياء اليهود ونبيّاتهم خلال ألف عام، ولبشر عاديين لا قيمة خاصة لهم، وذلك فقط كعلامة للتقرّب إلى الله.

إذَنْ كان الختان -ولا يزال- لدى الشعب اليهودي العلامة التي تدلّ على أنك مميّزٌ، وأنك مختارٌ ومخصّصٌ للربّ، وأنك مشارٌ إليك، مُنادى عليك، معيّنٌ لأداء مهمّة ما، وفقًا لما جاء به ربّ موسى، فهو الذي فرض هذه الممارسة على (شعبه المختار)، وفقًا لما سجّله النبيّ موسى، وجاء عشرات المرّات في أسفار التوراة الخمسة الأوائل، التي يقال إن موسى سجّلها بخط يده قبل موته، كإشارة وعلامة تدلّ على الانتماء إلى (شعب الله المختار).

طبعًا تبدو هذه الممارسة الآن طقسًا وحشيًّا همجيًّا بدائيًّا متخلّفًا في نظر نساء ورجال المجتمعات الأوروبية الحديثة، التي توقّفت عن ممارسة هذا الطقس على الأطفال من الذكور والإناث منذ بدايات عصر النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر الميلادي؛ لذلك يبدو الغجر في نظر الأوروبيين المعاصرين شعبًا وحشيًّا همجيًّا بدائيًّا متخلّفًا.

من الغريب كذلك أن نعرف أن أقدَم دليل على وجود هذه العادة عند الغجر، يأتي إلينا من غجر جزر الكناري، التي تقع في المحيط الأطلنطي، ويقع أقربها من الساحل الأفريقي، على بعد أقل من مائة كيلو متر من موقع سواحل المنطقة الصحراوية جنوب المغرب الحالية. كيف وصلت هذه العادة إلى هذا المكان، إن لم يكن هذا عبر أحد

t.me/qurssan

طريقين، إمّا أن قبائل أفريقية قد ركبت البحر وصولًا إلى جزر الكناري، أو أن تكون قبائل غجرية تعيش على جزر الكناري قد ركبت البحر إلى الساحل الأفريقي.

لكن ليست لديّ إجابة على السؤال: لماذا تبنّت قبائل غجر جزر الكناري هذه العادة الأفريقية؟ كل ما لديَّ حاليًا من معلومات، هو أن أقدم حضارة عظمى في أفريقيا، في الألفية الرابعة قبل الميلاد، وهي حضارة وادي النيل في مصر القديمة، هي التي تبنّت هذه العادة، ومارستها على النساء والرجال معًا، خاصةً في المنطقة الواقعة بين الشلّالين الثاني والثالث، وهي المنطقة الواقعة حاليًا في شمال دولة السودان.

ثم انتقلت هذه الممارسة من وادي النيل إلى قبائل جنوب السودان عند منابع النيل، ومن هناك إلى سائر قبائل وسط أفريقيا، لما كان لحضارة وادي النيل من تأثير حضاري قوي على بقية شعوب أفريقيا في هذا الوقت المبكّر من تاريخ البشرية.

لكن ينبغي هنا أن أشير إلى حقيقة تاريخية، وهي أن شعوبًا كثيرةً قد مارست هذه العادة وهذا الطقس، رغم التفاوت الشديد بينها في كل شيء، لأسباب ادّعت هذه الشعوب أحيانًا أنها دينية، وأحيانًا أنها جنسية أو صحّية أو ثقافية.

لكن في الحقيقة أقول لكم إن ما يبدو لي الآن السبب الرئيس في انتشار هذا الطقس، هو محاولة الرجال السيطرة على النساء، ومحاولة كبح جماح شهوتهنّ الجنسية، ومحاولة التطاول عليهنّ، واعتبارهنّ جنسًا أدنى درجةً من جنس الرجال. وهو ما يدعو إلى الاعتقاد أن

الرجال عبر التاريخ كانت لديهم ما يطلق عليه علم النفس الحديث اسم (مركّبات نقص) *inferiority complex* تجاه النساء، كأن الرجال في أعماقهم النفسية يشعرون بالدونية نحو النساء؛ لأن المرأة هي التي تنجب وترضع الأطفال.

الأدهي في هذا الموضوع هو أن بعض الديانات الحديثة، استمرّت طويلًا في التأكيد على أن ممارسة هذا الطقس تتفق مع الرغبة الإلهية. لكن يأتي هنا السؤال: إذا كان الله قد خلق الأنثى بهذا البظر، فلماذا يأتي لاحقًا ويطلب من رجال الدين قطعه؟ لماذا لم يقطعه هو بنفسه أثناء عملية الخلق؟ أعتقد جازمًا أن كل ما في الموضوع، هو أن الشعوب التي تدين بهذه الديانات الحديثة، تصدّق كل ما يقوله لها رجال الدين. هذا هو كلّ شيء.

(٧)

من العجيب أن نجد أن شعوبًا تقع على بعد مسافات شاسعة بعضها عن بعض، قد وصلت في أوقات متفاوتة إلى ممارسة طقس الختان على النساء، فمثلًا وفقًا لما عثر عليه الأثريون في حفائر الباراجواي بأمريكا اللاتينية، في موقع حفائر جامعة باريس كامبوس دي باريسيس *Campus Di Parisis*، على ضفاف نهر عملاق، لكن في إقليم استمر يعيش حياة بدائية حتى وقت قريب، ثبت من الحفائر أنهم كانوا ذات يوم من بين الشعوب آكلة لحوم البشر، وأنهم مارسوا خلال قرون طويلة طقس ختان النساء.

t.me/qurssan

وتحدّثت حينها مع لوروج عن هذه الظاهرة، معتقدًا وقتها أن هذه الممارسة كانت بهدف تخفيف ضغط حاجة النساء إلى ممارسة الجنس، كأن الرجال بهذا يعطفون على النساء، وقلت له إنها قريبة الشبه من ممارسة أخرى وجدت لدى شعوب عديدة، تفصل بينها مسافات شاسعة، وهي عادة عمل تربنة *trepanation* في الجمجمة، أي كسر خفيف يتم التحامه فيما بعد، لعلاج حالات الصداع الحاد الناتجة عن ارتفاع في ضغط الدمّ. فقال لي:

١- إن قطع جزء من بظر المرأة ليس في صالحها بأي شكل من الأشكال؛ لأنه يجعل منها كائنًا باردًا.

٢- إن هدف الرجال من هذه الممارسة هو إثارتهم هم جنسيًّا، وراحتهم هم جنسيًّا؛ ذلك بأن يحتفظوا هم بالاستثارة الجنسية، في حين تكون النساء باردات، حتى يتمكن الرجل من ترك المرأة في اللحظة التي يحصل هو فيها على لذّته، ولا يكون مضطرًّا إلى انتظار حصول المرأة هي الأخرى على لذّتها.

٣- يحدث هذا خاصة في المجتمعات الذكورية، التي يقرّر فيها الرجال كل شيء، ولا يتركون للنساء أي هامش حرية، أو أي حقّ في الاختيار، حتى في المسائل التي تخصّ النساء، أو على الأخصّ في المسائل التي تخصّ النساء.

٤- إن عددًا من الحضارات القديمة، سواء منها حضارات وديان الأنهار أو حضارات سواحل البحار، تتفق على استعمال النساء كأدوات للمتعة.

t.me/qurssan

٥- وحتى الآن في منتصف القرن العشرين، لا تزال المرأة تعتبر فقط أداة متعة، في العديد من بلدان الأرض.

٦- إن المرأة الأوروبية لم تصل إلى المكانة التي وصلت إليها في أوروبا بداية من القرن العشرين إلا بعد نضال طويل، ولا يزال أمامها طريق طويل، عليها أن تقطعه حتى تصل إلى المساواة بينها وبين الرجل.

ثم أعطاني بعض الأمثلة على كيفية اعتبار المرأة أداة متعة. فهناك مثلًا في الصين، يجبر الآباء بناتهنّ منذ سن العاشرة أن يضعن أقدامهنّ في أحذية خشبية ضيّقة طول الوقت حتى أثناء النوم أو الاستحمام؛ لأن العريس الذي سيأتي إليها وهي في السادسة عشرة، يفضّل أن تكون لها أقدام فتاة صغيرة في العاشرة من العمر؛ لأن العُرْف الذي كان سائدًا في الصين حتى وقتٍ قريبٍ هو أن الأقدام الصغيرة للمرأة حتى لو كانت مشوّهةً هي إحدى علامات الجمال الجسدي، مهما كلّف حبس الأقدام الفتيات من عذاب.

ثم ضرب لي مثلًا آخر قائلًا إنه يوجد نبات مائي في سواحل شيلي بأمريكا الجنوبية، معروف باسم جيسكيل *guesquel*، له جذع ذو قوام غليظ، استعمله سكّان سواحل شيلي منذ فجر التاريخ في تهييج النساء، فمن المعروف أنه بعد ختان المرأة يصعب تهييجها، لذلك يكون الرجل مضطرًا إلى استعمال هذه الأداة لتهييج المرأة، حتى تكون جاهزة في الوقت الذي يحدّده الرجل، لإدخال عضوه الجنسي فيها، بترطيب هذا الممرّ من جسدها أولًا، دون أن يستهلك هذا الترطيب مجهود الرجل نفسه، في إعداد المرأة للقائه.

t.me/qurssan

الحقيقة هي أن الرجل هو كائن أناني لا يفكّر إلا في لذّته هو، وقد استغل الغطاء الديني أبشع استغلال؛ قائلًا للنساء: إن الختان هو إرادة الله.

(٨)

كنت لبضع سنوات أحد عشّاق أصغر بنات الأم، ولم يلتفت أحد من القبيلة إلى هذه العلاقة، ولم يوجّه إليَّ أي شخصٍ -رجلًا كان أو امرأةً- أي سؤال بخصوص هذه العلاقة؛ فقط لأنها كانت تتمّ بمعرفة الأم، التي كانت تعرف وتسكت، وتمّ تفسير هذا السكوت بأنها موافقة. قد يكون لما رواه صديقي ساوو الصغير عني بعض التأثير على الموقف النفسي منّي من ناحية أفراد القبيلة. قال لهم إنني أنقذت حياته في الحرب. تلك الصداقة القويّة بيننا لم تنشأ إلا بعد هذه الحادثة، إذ قبلها كنا مجرّد زملاء في نفس الكتيبة، ولم يكن يعرف أحدنا الآخر. وقد ظلّ ساوو ممتنًّا لي إلى نهاية عمره.

في الحقيقة كان صديقي هذا جنديًّا شجاعًا مخلصًا، وقد حصل في نهاية الحرب على مثل ما حصلت أنا عليه في نهاية الحرب، وهي الجنسية الفرنسية، إذ كنت حتى نهاية الحرب أحمل فقط الجنسية السويسرية، وكنت قد تطوّعت في القتال في صفوف القوّات الفرنسية؛ لأنني أحبّ فرنسا، في حين لم تكن لصديقي حتى بداية الحرب أيّ أوراق إثبات شخصية على الإطلاق، إلا أنه بفضل قوّة تكوينه الجسماني تمّ قبوله في صفوف الجنود المتطوّعين.

t.me/qurssan

حصل صديقي كذلك على نوط الشرف العسكري الذي ظلّ سنوات طويلة يحمله في جيبه، فكان كلما تعرّض لموقف صعب مع الشرطة الفرنسية، كأن يعتقد الشرطي أنه وضع يده على مجرم خطير مطلوب للعدالة، فقط لمجرّد أنه غجريّ، ويريد أن يقتاده إلى قسم الشرطة، هنا يُظْهِر صديقي نوط الشرف، ويستمتع بعلامات الدهشة على وجه الشرطي، وبكلمات الاعتذار التي ينطق بها فمه. بسبب هذا الاستمتاع، كان صديقي يطيل أحيانًا قدر استطاعته فترة استجوابه، قبل إخراج النوط من جيبه، فإذا بالموقف العدائي ضدّه يتحوّل إلى موقف تكريم له.

(٩)

قالت لي الأم ذات مرّة لتبرير محبّتها لي: "أنت مولود في برج حظّ؛ لأن لديك القلب الذي يحبّ البشر، وليست لديك القدرة على إيذاء الآخرين، وهي القدرة التي لدى أغلب الرجال، وسيكون لك ذات يوم الشأن العظيم والمستقبل الباهر، الذي سيلفت إليك انتباه البشر". كنت وقتها في الثلاثين، وليس هناك ما يدلّ على أي نوع من أنواع المستقبل الباهر الذي أشارت هي إليه.

أنا أعتقد الآن أن هذه المرأة كانت مكشوفًا عنها الحجاب؛ لأن النبوءة التي نطقت هي بها، والمستقبل الذي أشارت هي إليه، منذ ثلاثين عامًا، من الممكن أن يكون هو حاضري الأدبي الحالي، الذي لم

t.me/qurssan

أكن على الإطلاق أتوقّعه. أنا أكتب هذا الفصل سنة ١٩٤٧، وهو العام الذي سأبلغ فيه سنّ الستّين.

ثمّ أضافت: "لكن حاول أن تتجنّب أن تكون لك ثروة كبيرة من المال، فإن المال يفسد الحياة، ويقيّد تمامًا حريّة الحركة التي تتمتّع بها الآن، بل ابقَ على ما أنت عليه الآن، من زهد في مغريات الحياة، وفي مقتنياتها المادية". وقد عملت بنصيحتها قدر استطاعتي.

(١٠)

من الملحوظات الأخرى الخاصة بحياة الغجر، أن أطفالهم لا يتحدّثون أبدًا بلغة الأب، بل دائمًا بلغة الأم، ولذلك أقول صَدَقَ الناطقون بالإنجليزية عندما استعملوا اصطلاح (لسان الأم) *mother tongue*، في تعريف اللغة التي يتقنها الشخص.

ففي حالة الزيجات المختلطة، ومولد طفل لأب صقلّي ولأم تشيكية، لن يتحدّث الطفل إلا بلغة الأم. يكون هذا دائمًا من أسباب الاختلافات الحادة بين القبائل الغجرية، رغبة أفراد القبيلة الصقلّية التي ينتمي إليها الأب، أن يتحدّث الطفل لغتهم الإيطالية لا لغة الأم التشيكية. لكن ما العمل إذا كان الآباء ينشغلون بكل شيء إلا بتربية الأطفال، التي يتركونها تمامًا في أيدي الأمهات!

t.me/qurssan

(١١)

ملحوظة أخيرة تتعلق بسلوك الغجري عند اقترابه من أي تجمّع أو معسكر غجري، يضرب خيامه عند عين ماء، ليس به إلا نساء وأطفال يسبحون في بحيرة، بصرف النظر عن كون أفراد هذا المعسكر من الأصدقاء أو من الأعداء، فإن أول ما يفعله الرجل هو أن يخرج سلاحه الأبيض من غمده، وأن يمسك به في يده في وضع الاستعداد.

فكّرت في أن هذا السلوك يشبه تمامًا سلوك العقرب عندما يقترب مما يعتبره كائنًا مُعادِيًا، فيُصَدّر تجاهه ذيله المشحون بالسم، حتى يكون هذا الذيل أداة دفاعه عن نفسه، حال تعرّضه للخطر، وبالتالي يكون من السهل عليه في لحظة واحدة توجيه السمّ القاتل إلى جسد الكائن المُعادي.

هذه هي غريزة الرجال الغجر، بسبب إحساسهم الدائم الذي لا يفارقهم أبدًا بأنهم معرّضون للخطر، لاعتقاد الرجال الغجر أن مَن يعادونهم أكثر بكثير ممن يسالمونهم.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثامن عشر

موضوعات ملحقة

أولًا - كيف أصبحتُ كاتبًا؟

سنة ١٩٠٨: لم أنسَ أبدًا ما قاله لي ذات يوم الكاتب الفرنسي الكبير ريمي دو جورمنت، الذي أعتبره أحد أهم أساتذتي في الكتابة، عن كيفية تحقيقَ الحلم بأن تصبح كاتبًا:

١- نصيحتي الأولى هي أنك ككاتب ناشئ حاول تخصيص ولو ساعتين اثنتين فقط لا غير في كل يوم من أيام حياتك لمحاولة تحقيق حلمك ككاتب.

٢- نصيحتي الثانية هي أن تبدأ بصياغة أفكارك بشكل مبدئي كيفما اتفق، على أن تستمرَّ في إعادة صياغتها بمفردات جديدة، طالما أنك لم ترضَ عنها.

٣- أما نصيحتي الثالثة فهي ألَّا تكتب أبدًا إلَّا عن أشياء تعرفها.

بفضل هذه النصيحة الثالثة، لم أندم أبدًا في حياتي الصاخبة على أيّ مغامرة من مغامراتي السابقة، ولم أتردّد أبدًا في حياتي اللاحقة عن

t.me/qurssan

خوض المزيد من المغامرات، حتى ما كان منها قادرًا على تعريض حياتي نفسها للخطر.

ثم إنني اعتدت كذلك على تدوين ملاحظات شبه يوميّة -منذ أجدت الكتابة في صباي- في كرّاسات لم أعرف أبدًا متى سأستفيد منها في تأليف كتبي، لكنها كانت حائط صدّ ضد غزو أمراض الشيخوخة من فقدان الذاكرة وخلافه؛ لأنني عندما بدأت في كتابة الروايات المستوحاة من حياتي كنتُ أقترب من الستّين.

سنة ١٩١٠: كنت أعمل بحّارًا بشكل منتظم بين مينائي ليباوا ببولندا ونيويورك، على متن السفن التي تقلّ المهاجرين من فقراء دول أوروبا الشرقية إلى العالم الجديد، في رحلة الذهاب إلى أمريكا، حيث كنت أقضي أغلب وقت فراغي من العمل في محاولة ممارسة ما أسميته لاحقًا في حياتي القدرة على الانخراط في حوارات تبدو تلقائية.

كنت أبدأ بالحديث مع الناس بلغتهم، أو باللغة التي يجيدها أحدهم، وأنا في ذلك العام كنت أتقن أربع لغات، هي الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية، وأجيد التحدّث بلغتين أخريين هما الروسية والإسبانية، وكانت لديّ معرفة بالبولندية والهولندية، فكنت أجد دائمًا مَن يفهمني.

كنت أقول في نفسي: من المؤكّد أن من بين هؤلاء التعساء -الذين يسافرون الآن على سطح السفينة، دون أن تكون لهم قمرات، ويضطرون إلى قضاء الليالي وهم معرّضون لهذا البرد القاسي في مواسم شتاء شمال الأطلسي- مَن سيعودون لاحقًا في زيارة إلى أوروبا وقد أصبحوا

t.me/qurssan

أثرياء؛ لأن أمريكا تعطي الفرص المتساوية للجميع، دون أيّ تفرقة بسبب الجنس أو الدين.

ثم حدث خلال تلك المرحلة شيئان إضافيّان ساهما في بداية اهتمامي بالكتابة وهما:

أولًا- أنني بفضل إتقاني للغات، بدأت في العمل كمترجم لهؤلاء المهاجرين، بمكافأة مالية من السلطات الأمريكية، عند وصول ركّاب هذه السفن إلى المكاتب الأمامية للجوازات والجنسية، في ميناء نيويورك. هذا هو بالتحديد، ما أثرى معرفتي بدقائق حياة هؤلاء المهاجرين، وما جعلني فيما بعد أجد سهولةً أكبر في الانخراط في حوارات تبدو تلقائية معهم على ظهر السفن، حين يعلمون بمسألة عملي كمترجم لهم، عند وصولهم إلى نيويورك. وقد استعدت هذه التفاصيل في بعض رواياتي.

وثانيًا أنني كنت أعود إلى بولندا على متن نفس تلك السفن، لأفاجأ فعلًا بوجود مهاجرين يشغلون أجنحة الدرجة الأولى الفاخرة، بعد أن أصبحوا شديدي الثراء. هم يعودون إلى أوروبا الشرقية في إجازات قصيرة، بعد أن حقّقوا النجاح السريع في أرض الأحلام؛ ليعرضوا على مَن تركوه خلفهم من الأهل والأصدقاء حجم الثراء الذي حقّقوه. كان أغلب هؤلاء يحدّثونني عن اكتشاف الذهب في كاليفورنيا.

هنا أدركت أنني في حياتي الأدبية، لن أكتفي بكتابة الشِّعر الذي كنت أكرّس نفسي له، بل سأتجه إلى كتابة الرواية، وقد جاءني هذا الإدراك بالتحديد حين جاءتني فكرة روايتي الأولى (الذهب)، التي لم

t.me/qurssan

أبدأ فعلًا في محاولة كتابتها إلَّا بعد ذلك بأربعة أعوام سنة ١٩١٤، ولم تنشر إلَّا سنة ١٩٢٥، أي بعد البداية في كتابتها بأكثر من عشرة أعوام، وهي في اعتقادي فترة الحضانة اللازمة حتى ينضج العمل في دماغ المؤلّف.

هذه الرواية (الذهب) هي عن قصص حقيقية لناس حقيقيين، كانوا من بين أولئك الذين قابلتهم على متن تلك السفن. بإنصاتي إلى هذه القصص بدأت الأفكار تشحذ ذهني بخصوص موضوع روايتي الأولى.

سنة ١٩١٤: أثناء خدمتي كجندي متطوّع في سلاح المشاة في الفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي، قرّرت أن أبدأ في تنفيذ وصيّة كاتبي المفضّل، فبدأت في تعويد نفسي على الاستيقاظ في الساعة الرابعة صباحًا، والذهاب للجلوس القرفصاء بالقرب من أحد مصادر الضوء في معسكر الجيش، حتى أتمكن من تخصيص ساعتين للكتابة، بين الرابعة والسادسة صباحًا، وهما أفضل ساعات النهار من حيث الصفاء الذهني قبل أن يستيقظ الآخرون.

في الحقيقة كانت أفكار الرواية تدور في ذهني طول الوقت نهارًا وليلًا، حتى إنني في لحظة الجلوس للكتابة لا يعود متبقّيًا لي إلا اختيار المفردات المناسبة.

سنة ١٩٢٦: استمرّت معي عادة الاستيقاظ المبكّر، أثناء إقامتي الطويلة في قصر صديقتي بخيتة في ضواحي باريس، وفي أغلب الأيّام كنت أخرج من القصر وحدي في السادسة صباحًا، لأمارس ما أسميته

t.me/qurssan

الانخراط في حوارات تلقائية مع أكبر عدد ممكن من الناس، الذين كنت ألقاهم في الشوارع والطرقات والأسواق والحانات، وكنت أتعمّد ارتداء ملابس يبدو عليها القِدَم والإهمال، وأترك ذقني دون حلاقة، حتى أتمكن من إقناعهم أنني منهم، أو على الأقل أنني أقرب ما يمكن إليهم.

* * *

t.me/qurssan

ثانيًا- حواري مارسيليا

(١)

كل مرة كنا نعبر فيها مضيق جبل طارق قادمين من المحيط الأطلسي، كان صديقي البحّار الفرنسي رينيه يقول: «عدنا إلى منزلنا». البحر المتوسّط هو منزلنا الذي يمكننا أن نشمّ فيه الروائح الخاصة بدواليب ملابسنا، وببرطمانات المربّى الموضوعة فوق أرفف مطابخنا. هبط الليل أثناء عبورنا منطقة المضيق الخطرة غير المستقرّة، ووصلنا إلى ميناء مارسيليا بعد ظهر اليوم التالي.

مارسيليا هي واحدة من عواصم العالم القديم، مثل أثينا والإسكندرية وروما، العالم الذي نشأ على سواحل هذا البحر القديم، أول البحار التي عرفها الإنسان، في القرون الأولى للميلاد. ومارسيليا رغم أنها مدينة قديمة، إلا أنها لا تسحقنا بثقل تاريخها وآثارها، مثلما تفعل روما. بالإضافة إلى أن مصيرها الاستثنائي المدهش يقفز إلى أعيننا فور رؤيتنا لها، بفضل مظهرها الحديث.

t.me/qurssan

فإذا كان لنا أن نتخيّل أنه في القرن الأوّل للميلاد، امتلأت كل هذه المدن بالمباني القديمة، من قصور ومعابد وقلاع، فإن هذه الآثار ذهبت تغوص تحت الأرض، تحت طبقات متتالية من العصور المتتالية، في مدينتين اثنتين من هذه المدن الأربع وهما مارسيليا والإسكندرية، وبقيت فوق سطح الأرض في المدينتين الأخريين وهما روما وأثينا.

إلّا أن مارسيليا هي أكثر واحدة من مدن العالم القديم التي يصعب فكّ شفرتها، فأنت لا تعرف إن كانت امرأة عجوزًا، أو شابة شقيّة يؤدّي بها فرط حيويتها إلى قدر من المرح والانطلاق، الذي يصل أحيانًا إلى درجة الوقاحة.

إنها الميناء الأول لفرنسا، والميناء الأكبر في محيط دائرة مدن موانئ البحر المتوسّط. إنها تنتمي إلى عالم أولئك المتوسّطيين، أكثر من انتمائها إلى عالم فرنسا الأوروبية. يصل إليها المتوسّطيّون من جهة البحر، ويندمجون على الفور في صخبها، مهما كانوا غرباء عنها. ورغم ذلك فهي تحاول الآن في منتصف القرن العشرين، أن تدير ظهرها للبحر، وبالتالي لفرنسا المتوسّطية الشمال أفريقية، لصالح تقوية اتصالها بفرنسا الأوروبية.

إن الانطباع العام لمَن يصل إلى هذه المدينة لأول مرة، ويقوم بعمل جولة على الأقدام في شوارعها، هو أنها مدينة المنفيّين من أوطانهم، الذين جاؤوا إلى هذا المكان مطرودين من ديارهم، ولم يحضروا معهم إلا القليل من ملابسهم، التي يحملونها في صرر على أكتافهم.

t.me/qurssan

إنها المدينة كما ينبغي لها أن تكون وفق هوى قلبي، مدينة للعمارة والفنون والآداب. هي نتاج الحضارة الرومانية قبل ألفي عام، ولكنها كذلك نتاج التاريخ الاقتصادي للملكية الفرنسية بين القرون ١٦ و١٧ و١٨، ثم للجمهورية الفرنسية منذ ١٧٨٩، لكن يغلب عليها الآن طابع الطبقات الوسطى (البرجوازية)، والطبقات الشعبية العمّالية (البروليتاريا).

هي أكثر مدينة فرنسية تظهر فيها المعاناة بسبب الفوارق بين الطبقات، بين فاحشي الثراء من ساكني قصور التلال المحيطة بالمدينة، وفاحشي الفقر من سكّان الأحياء العمّالية وحواري المدينة القديمة حول الميناء القديم.

أما المظهر الحديث للمدينة فيعود الفضل فيه إلى سلسلة منشآت القرنين الأخيرين:

١ - فهناك مثلًا من القرن العشرين معامل تكرير البترول القريبة من موقع الميناء الحديث، التي تنافس في حجمها طواحين الغلال بطراز القرن التاسع عشر.

٢- ثم الواجهة العملاقة المؤثّرة لمحطّة سان شارل لقطارات السكك الحديدية، المقامة أعلى أحد التلال، بالسلالم العملاقة المؤدّية إليها، التي تساوي السلالم الموجودة في العمارات السكنية ذات الخمسة طوابق.

٣- والكاتدرائية العملاقة الجديدة في مواجهة الميناء الحديث.

t.me/qurssan

٤- وكنيسة عذراء الحماية، الواقعة فوق أعلى تلّ يحمي ظهر المدينة.

أتمنى لو أعرف ماذا تكتب الأدلة السياحية المطبوعة حديثًا ونراها في أيدي السيّاح، في وصف كل هذه الآثار الحديثة، هل تقدّرها وتعطيها قيمتها الحقيقية، أم تسخر منها؟ أضع في مخطّطاتي شراء دليلين سياحيين منها على الأقل، هما ميشلان *Michelin* وبيديكر *Baedecker*.

(٢)

بمجرّد توقّف السفينة، على أحد أرصفة الميناء الحديث الخاصة بتفريغ سفن نقل البضائع، قفزت منها على الفور، وأخذت سيّارة أجرة للذهاب إلى مقاهي الميناء القديم ومطاعمه وحاناته، والميناء القديم لا يبعد عن الميناء الحديث إلا بعشر دقائق في سيّارة أجرة. مَن كان يراني في مثل هذه الحالات، قد يتوقّع أنني مهرّب أفيون، أسرع بالحمولة المكلّف بنقلها إلى التاجر الذي سيشتريها ليخلّصني منها، ويعطيني ثمنها.

في الحقيقة هذا هو ما يحدث فعلًا؛ فالأفيون رخيص في أمريكا وفي بلاد الشرق عنه في أوروبا، وقد يكون لهذا الفرق في السعر صلة بمدى قدرة الحكومات في تلك البلاد على السيطرة على مثل هذا النوع من التجارة، فكلما زادت السيطرة الحكومية، شحّت البضاعة وارتفع ثمنها. كنت في السيّارة الأجرة مشغولًا بمحاولة الانتهاء من تأليف

t.me/qurssan

قصيدة عن صيد الأفيال في أفريقيا.

تنقلت بين المقاهي والحانات أبحث عن أصدقائي، الذين عادةً ما يتناثرون في مثل هذه الأماكن، لأجلب إليهم الضحكات، بما كنت أخترعه لهم من نكات، وبما كانت تمليه عليَّ قريحتي من قفشات. لاحظت هذه المرة الفرق الذي شغل تفكيري، بين النساء الفرنسيات من صديقاتي في مارسيليا، وبين النساء البرتغاليات من صديقاتي في لِشبونة، فالفرنسيات يتفوّقن في الترحيب بحرارة بالعائدين من الرحلات الطويلة، في حين أن البرتغاليات يتفوّقن في التوديع بالدموع والآهات. هل هذا يعني أن البرتغاليات ذوات مزاج سوداوي أقرب إلى الحزن؟ وأن الفرنسيات أكثر إقبالًا على الحياة؟ أعتقد أن الإجابة (نعم).

بسبب وجود الكثير من الغرباء في المدينة، الذين يأتون إليها طوال العام من بلاد العالم المختلفة، بالإضافة إلى السيّاح الأوروبيين الذين تغصّ بهم شوارع المدينة صيفًا وشتاءً، فإن أهل مارسيليا هم أكثر الفرنسيين ميلًا إلى الكذب والخداع، وإلى اختلاق القصص الوهمية؛ لأنه كلما كَثُرَ الغرباء سَهُلَ الكذب والادعاء.

إن أهل مارسيليا -كما يحدث غالبًا في مدن السواحل- يخلو بالهم من مسألة التمسّك بالمبادئ الأخلاقية، ويوجد بينهم عدد كبير من أصحاب العقول المتحررة من الإيمان بالمعتقدات الدينية، مثل الثواب والعقاب في الآخرة، لذلك فهم يسمحون لأنفسهم باستغلال الغرباء والسيّاح إلى أقصى حدّ ممكن، وبكل أشكال الخداع الممكنة، التي من أبسطها بيع بعض الأشغال الفنية بثمن أكبر من قيمتها الحقيقية.

t.me/qurssan

وهم رغم ميلهم إلى الثرثرة، إلا أنهم لا يبوحون على الإطلاق بأسرار تجارتهم غير النزيهة، حتى لا تنفضح الأسرار التي يحصلون بواسطتها على الثروة.

(٢)

أردت أن أجرّب حانة جديدة، دلّني على عنوانها البارمان في حانة دارتينيان، والحانة الجديدة تحمل اسم مقهى فيليكس، وصاحبها من جزيرة كورسيكا، وتقع في قلب متاهة من حواري المدينة القديمة وشوارعها الضيّقة، إلا أنني بذلت هذا المجهود لأن بارمان دارتينيان وعدني بالعثور هناك على مفاجأة، وهو يعرف ولعي الشديد بالاستكشاف، وحب استطلاعي الذي لا ينضب معينه.

قادني العنوان إلى زقاق ضيق قذر بين بنايات سكنية مرتفعة، وجدت عند مدخله لوحة من الرخام مكتوبٌ عليها النصّ التذكاري، الذي يشير إلى عدد من ذكريات مارسيليا التي يغصّ بها هذا الزقاق القذر. كأنني وجدت جوهرة في مقلب قمامة.

١ - في القرن الأول للميلاد، لجأ إلى هذا المكان القدّيس لعازر، حيث اختبأ في الكهوف المحفورة في الصخور أسفل الأرض، تحت معبد روماني قديم، من الذين كانوا يريدون قتله.

وقصّة لعازر يرويها لنا إنجيل القدّيس يوحنّا، إذ كان لعازر صديقًا شخصيًّا ليسوع المسيح منذ طفولتهما، مات ولم يلحق به يسوع إلا بعد ثلاثة أيام من وفاته، بعد أن كان قد كفّن ودفن، فجاء يسوع وأزاح حجر

t.me/qurssan

القبر وأمر لعازر أن يخرج، فخرج وهو مقيّد بكفن كتّاني يلتفّ حول جسده. هذا طبعًا وفقًا للأناجيل.

كان هذا قد حدث سنة ٣٣ ميلادية، وبعد ذلك بثلاثين عامًا ذهب لعازر إلى أوروبا للتبشير بكلمة المسيح، مثلما ذهب بطرس وبولس إلى روما، فقبض عليه وقتل على يد نائب الإمبراطور الروماني فسباسيان، واعتبرته الكنيسة -بعد ذلك بقرون- أول شهداء المسيحية في بلاد الفرنجة، كما حدث لبطرس وبولس في روما سنة ٦٨ ميلادية، واعتبرتهما الكنيسة أيضًا من بين شهدائها.

٢- في هذا المكان وُجِدَ معبد الإلهة ديانا، إلهة الصيد عند قدماء الرومان، الذي كان مزدهرًا حتى القرن الثالث الميلادي، عندما كانت فرنسا لا تزال واقعة تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية الوثنية، ثم مع تحوّل الإمبراطورية الرومانية إلى الديانة المسيحية، تمّ تحطيمه بسبب كونه من بقايا الوثنية، ولم تحتفظ منه مارسيليا كعادتها بقطعة حجر واحدة.

٣- كان هذا الزقاق هو مقرّ إقامة (كربون)، أكبر تاجر مخدّرات في المدينة بين الحربين العالميتين، وقد مات بالصدفة ضمن مَن مات من المواطنين الفرنسيين والجنود الألمان، الذين كانوا في عربات قطار فجّره رجال المقاومة الفرنسية سنة ١٩٤٣؛ للتخلّص من الجنود الألمان.

t.me/qurssan

هذه المرّة كانت للحانة شرفة جميلة تطلّ على أرصفة الميناء القديم، الذي لم يعد منذ إنشاء الميناء الجديد يستقبل السفن الكبيرة، بل فقط البخوت الخاصة اللازمة للنزهات البحرية. أما داخل هذه الحانة/ المطعم فكانت المساحة المتاحة قليلةً نسبيًا، ولا تسع إلا أربع موائد مربّعة، حول كلٍّ منها أربعة كراسي من القشّ. عدا ذلك كانت هناك في السقف نجفة حديثة الطراز، وفي مواجهة باب الدخول كان هناك دولاب ضخم بأرفف عديدة، موضوعة بداخله زجاجات الخمور، أمامه كاونتر البار وهي المنضدة النحاسية (أو من معدن الزنك) التي توضع عليها الأكواب والأطباق.

بالإضافة إلى فرن ضخم يشغل الركن الأيمن، تتمّ عليه عمليات تسوية أنواع المأكولات المختلفة، التي تقدّمها الحانة لتحفّز الزبائن على استهلاك المزيد من الخمور، فاحتساء الخمور غير مستحبّ على معدة خالية. هذا الفرن كان مصدرًا للتدفئة في أيام الشتاء الباردة، حين يتكدّس الزبائن الستة عشر، داخل الحانة للاستدفاء، وتترك موائد الشرفة نهب المطر المتساقط.

كانت أطباق الطعام تختار بعناية، لتختلط فيها روائح الزيت والبصل والثوم والزعتر، مع روائح صلصات الطماطم المختلفة، المختلطة بمرق تشكيلة كبيرة من التوابل والزعفران، القادمة طازجة من الشرق الأقصى، مما كان يجلب اللعاب إلى الفم.

t.me/qurssan

المسؤولة عن المطبخ سيدة ممتلئة دائمة الابتسام والضحك عند اللزوم، كنا نسمّيها (الريّسة تيتي)، كانت حتمًا في شبابها امرأة جميلة، لكنها للأسف لم تكن تستطيع أن تتكلم، منذ أن فقدت قبل سنوات لسانها في حادث سيّارة، لكن دون أن يشوّه هذا الحادث وجهها، أو يترك أثره على أي جزء آخر من جسمها.

كنا نجلس عادة أربعة أشخاص معًا على الموائد، حتى لو لم نكن نعرف بعضنا البعض، وغالبًا ما يحدث هذا في المطاعم الشعبية الفرنسية، ولكنه لا يمكن أن يحدث في المطاعم غالية الثمن. هذه المرة كان هناك صديقاي فيكتور وفيليكس، ومعنا شخص ثالث لا أعرفه. قام صديقاي لاحتضاني بمجرّد ظهوري عند الباب. كنا نبدأ عادة باحتساء الباستيس *pastis*، وهو نفس المشروب الذي تطلق عليه أسماء عديدة أخرى مختلفة، ففي اليونان مثلًا هو الأوزو، وفي مصر هو العرقي. نأخذ كأسًا وكأسين وثلاث كؤوس، ثم نأخذ في الثرثرة غير المحكومة بالعقل.

(٥)

كنت في تلك المرّة قد عدت من رحلة إلى مصر، ومنها كنا قد وصلنا إلى منطقة أعالي نهر النيل في أوغندا وجنوب السودان، بغرض المشاركة في تصوير وإخراج فيلم تسجيلي عن حياة الأفيال اليومية في الغابات الأفريقية. لم يكن الفيلم عن صيد الأفيال كما هو مألوف، بل عن عادات هذه الحيوانات في البحث كل يوم عن الطعام، وعن اهتمام

t.me/qurssan

أفراد أسر الأفيال بعضهم ببعض، على سبيل المثال ما هو مدى العناية التي يمكن أن يحصل عليها الفيل الطفل الوليد من أمه ومن أبيه.

لم نضطر إلى إطلاق النار في اتجاه الأفيال إلا في حالتين اثنتين فقط لا غير، ليس بغرض إصابتها بل بغرض إخافتها، ولم يحدث هذا إلا عندما كانت الأفيال تفقد أعصابها، بسبب صوت دوران ماكينة آلة التصوير، فهي لم تكن قد سمعت هذا الصوت من قبل، مما كان يجعلها تشعر بالقلق.

ما كنّا نسمعه بوضوح عند الاقتراب من الأفيال هو صوت أمعائها أثناء حركة الطعام بداخلها؛ لأننا كنا في بعض الأحيان مضطرين إلى الاقتراب من الحيوان حتى خمسة أمتار، بسبب عدم قدرة آلات التصوير في ذلك الزمان على التقاط التفاصيل عن بعد، لذلك أيضًا لم نكن نميل إلى تصوير القطعان؛ لتجنّب خطر الاندهاس، لو حدث أن اقتربنا كثيرًا وهاج القطيع ووقعنا تحت أقدامه، لكننا رغم هذا الحرص نجحنا في تصوير قطيع يتكون من عشرين فيلًا متفاوتة الأحجام جدًّا.

لذلك كنّا نفضّل التقاط صور الأفيال المنعزلة، مثل الأفيال المتقدّمة في السن التي تنعزل عن القطعان لتستعدّ للموت، أو الأفيال الإناث التي تنعزل لترضع صغارها. وددت لو تمكنت من تصوير ذكر وأنثى أثناء التزاوج، إلا أن هذا لم يحدث، وقد قيل لي إن الأنثى تتخذ الوضع الكلبي، أي أنها تركع بثني طرفيها الأماميين، ورفع مؤخّرتها بالقائمين الخلفيين، حتى تسهّل على الذكر عملية الإيلاج. هذا هو الشيء العجيب جدًّا الذي نتعلمّه من الطبيعة، التي تتشابه

فيها كل المخلوقات دون أن يكون هناك تواصل بينها، بل إنها الفطرة والغريزة.

(٦)

سبق أن قلت إن مارسيليا لا تنتمي إلى قاطنيها بقدر انتمائها إلى أولئك القادمين إليها من أعماق البحار الجنوبية الدافئة، ومن مياه المناطق الاستوائية في المحيطين الهادئ والهندي، الذين أحرقت الشمس الملتهبة جلود وجوههم وأذرعهم وصدورهم، أولئك الذين شاهدوا من غرائب الطبيعة والمخلوقات، ما لم يخطر يومًا على أذهان سكّان مارسيليا الآخرين، المعتادين طوال حيواتهم على المشي في نفس الشوارع. الشخص العادي هو الشخص المعتاد على الحياة طوال عمره في مدينة واحدة، أما الشخص غير العادي فهو ذلك الذي يتنقّل طوال عمره بين عشرات المدن، فيصبح بذلك مواطنًا عالميًّا.

أنا لم أندم أبدًا على أنني اخترت مهنة العمل في البحر لمدّة عشر سنوات في بدايات شبابي، ثم تركتها مؤقّتًا عند تجنيدي في الجيش الفرنسي خلال الحرب، لأعود إليها بعد الحرب من جديد لمدة عشر سنوات أخرى. لذلك فهي المهنة التي مارستها لأطول فترة في حياتي، مقارنةً بالعمل كمخرج سينمائي، أو بالعمل كمراسلٍ صحفيٍّ، هذا لو لم نعتبر تأليف الكتب مهنة.

t.me/qurssan

(٧)

مارسيليا إذَنْ واحدة من مدن المفارقات في الحياة، التي تظهر فيها ملامح من الفقر المدقع وأخرى من الغنى الفاحش، لذلك فإنّ أكثر ما يؤلم لو فكّرت في الجلوس على أرصفة مقاهي أو مطاعم مارسيليا، هو تكاثر الشحّاذين حولك، من الأطفال الحفاة في أسمال بالية قذرة، ومن الشيوخ العجزة لفاقدي البصر، وطابور طويل من المصابين بالصرع والشلل والجذام، في وقت لم تكن قد اخترعت فيه بعد علاجات لهذه الأمراض.

يأتون إليك فرادى أو جماعات، في مشيتهم التي يتعكّزون فيها على دعامات خشبية، يغطون طرفيها العلويّين الموضوعين تحت الإبطين بقطع من القماش كيفما اتفق، لتقليل الاحتكاك بين النهايتين الخشبيّتين وبين الإبطين. بالإضافة إلى الأحدب والحدباء، والأقزام والقزمات، الذين حتى لو كانوا في حالة صحّية جيّدة، يرفض صاحب العمل تشغيلهم لديه، وهي حالات من الظلم الاجتماعي الواضح الصريح.

يأتون إلى مائدتك وهم يتباكون وتتحشرج أصواتهم، ليبدأ كل منهم في تلاوة المونولوج الذي يحفظه عن ظهر قلب، ويروي فيه كل منهم مأساة حياته، لعلّ قلبك يحنّ عليهم، فأتساءل بيني وبين نفسي: ماذا ينبغي أن أفعل؟ وأتساءل: كيف يتوقّع كل هؤلاء أن أعطيهم جميعًا صدقات؟

t.me/qurssan

ثمّ يأتي إلى مائدتك بعض محترفي الألعاب البهلوانية في السيرك، من أصحاب الأجسام المطّاطية، الذين يتلوّون أمامك في كل الأوضاع، كأنه لا يوجد داخل أجسامهم مفاصل من العظام والغضاريف، فيدخلون رؤوسهم بين أطرافهم الخلفية، في لياقة بدنية عالية.

أو يأتي إليك أولئك الذين يقذفون الكرات الخشبية الصغيرة في الهواء، ثم يعيدون التقاطها في سرعة كبيرة دون أن تسقط من أياديهم، أو المهرّجون الذين يلطّخون وجوههم بالألوان، ويضعون كرات حمراء صغيرة فوق أنوفهم، وطراطير فوق رؤوسهم، بغرض إضحاك الأطفال، وحبّذا لو ضحك منهم أيضًا بعض الكبار. لكنني لم أتمكن أبدًا من الضحك على مثل هذه المآسي البشرية، التي لا تستطيع هذه الأقنعة التنكّرية أن تخفيها.

كانت استعراضات البؤس البشري تلك تلمس وترًا حسّاسًا في قلبي؛ لأنها كانت تذكّرني بأيام المعاناة من آلام المعدة بسبب استمرار الجوع لأيام متتالية، وآلام العضلات بسبب استمرار الارتعاش من البرد لساعات متتالية، في بعض شتاءات بكين ونيويورك، التي عانيت فيها من شحّ المال بسبب البطالة.

ولماذا أذهب بعيدًا، فقد حدث لي نفس الشيء في بعض شتاءات باريس، حين كنت أذهب إلى بعض المطاعم المتواضعة في الأحياء الشعبية، حيث كانوا يسمحون لي أحيانًا بلحس بقايا الطعام في أطباق الزبائن، قبل أن أقوم أنا نفسي بغسلها!

لذلك فكلّما كنت في مزاج طيب، أثناء جلوسي على رصيف

t.me/qurssan

أحد مطاعم مارسيليا، لا أبخل على كل هؤلاء بالعطايا، وكنت أشتري الحلويّات لأوزّعها على الأطفال، أو أدعو بعضهم إلى تناول الطعام على مائدتي، وأعطي ما يتبقّى من زجاجات النبيذ إلى مَن يطلبها من الشحّاذين البالغين، ليدفئوا بها أبدانهم ولو لبعض الوقت. المشكلة التي كنت أواجهها دائمًا، هي أنك بمجرّد أن تُظهر بعض الكرم تجاه خمسة أشخاص، تجد نفسك وقد أحاط بك عشرون أو ثلاثون شخصًا. فماذا تفعل؟

في مثل هذه الحالات عادةً ما كان أصحاب المطاعم والحانات يقولون لي إنه لا يصحّ لمطاعمهم المحترمة أن يجلس إلى موائدها مثل هؤلاء الفقراء من السوقة والدهماء ورعّاع الطريق، فكنت أردّ عليهم قائلًا إنهم يتعرّفون عليَّ لأنني كنت واحدًا منهم، هم يدركون ببصيرتهم أنني ذات يوم كنت أنا نفسي أحد بائسي الشوارع، من بين مَن تصفوهم أنتم يا أصحاب المطاعم بالسوقة والدهماء، لهذا السبب هم يلجؤون إليَّ ليطلبوا مني المعونة بصفتي أخٌ سابق.

في الحقيقة لم أعد أعرف السرّ، أو لم أعد أدرك الكيفية التي يتعرّفون بها عليَّ بصفتي زميل بؤس سابقًا؟ لكن حيث إنني أرتدي ثيابًا محترمة، فقد ملت إلى الاعتقاد أن ما يستدلّون به عليّ هو شيء يبدو في ملامح وجهي. كنتُ أشعر كما لو أنني كنت سجينًا سابقًا، هرب من زنزانته قبل نفاذ مدّة سجنه، ويستمرّ في التخفّي والهروب طوال حياته، خوفًا من أن يتعرّف عليه أحد السجّانين، أو أحد الزملاء السابقين في الزنازين.

t.me/qurssan

ثالثًا - الصحافة

(١)

أذهب إلى مقر جريدة (الباريسي الصغير)، فأُضطرّ إلى مصافحة العشرات من الصحفيين الجالسين في قاعات التحرير الضخمة، إذ كان معارفي من الصحفيين قد تضاعف عددهم، بالتدريج وعلى مراحل منذ بدأت في نشر دواويني الشِّعرية وكتابة التقارير الصحفية وأنا في العشرين من العمر. ورغم أنني مارست مهنًا عديدةً، مثل تجارة المجوهرات والسمسرة في المشاريع الصناعية والتأليف والإخراج السينمائي، إلا أنني كنت أعود إلى البحار كلما أمكنني ذلك، حتى تعدّيت السن المناسب للعمل في البحار، الذي يحتاج إلى لياقة بدنية عالية، فاخترت أن أنتقل إلى العمل في الصحافة بشكل منتظم منذ سنة ١٩٣٦، وكنت في الخمسين من العمر.

إن الفرق الرئيس بين تأليف الكتب وبين كتابة المقالات في الجرائد اليومية، هو أنه عند تأليفك لكتاب يمكنك أن تراجع نفسك مرّات عديدة قبل الطبع، وتكتب ثم تنتظر بضعة أيام، ثم تمحو وتكتب من جديد. أما

t.me/qurssan

عند كتابة مقالات في الجرائد اليومية، فيجب أن تكون واثقًا تمامًا مما تكتب؛ لأنه بمجرّد ذهاب الجريدة مساءً إلى المطبعة، لن تُتَاح لك أبدًا بعد ذلك فرصة مراجعة ما كتبت.

لهذا لم أقبل أبدًا أن أكون مضطرًّا كل ٢٤ ساعة إلى تسليم مقال جديد بصرف النظر عن حالتي المزاجية، وفضّلت أن أبقى صحفيًّا حرًّا، أقدّم مقالاتي وتقاريري الصحفية، عن الموضوعات التي أختارها أنا، إلى الجرائد التي أختارها أنا، في الأوقات التي أختارها أنا، وفقًا لإيقاعي الخاص في الكتابة. إلا أن الحقيقة هي أن الجرائد ما كانت لتقبل مني هذا الأسلوب في التعامل معها، إلا بعد أن أصبح لي اسمًا معروفًا في عالم الأدب.

(٢)

لم يكن هذا الترحيب الحار بي هو فقط في (الباريسي الصغير)، بل كانت هذه هي حالتي كذلك في أغلب الجرائد الباريسية اليومية والأسبوعية، مثل جرائد الرجل الحرّ/ والرجل العنيد/ والإكسلسيور/ والكوميديا. في الفترة ما بين الحربين العالميتين (١٩١٨- ١٩٣٩) كانت جريدة الرجل العنيد، أو التي يمكن أن تعني كذلك (الرجل المتشبّث برأيه)، هي أشهر جريدة معارضة في باريس.

كانوا كلهم يجعلونني أشعر كما لو أنني بظهوري بينهم أُحضِر معي هواء البحار النقي، الذي يستنشقونه فيشعرون بامتلاء رئاتهم به، كأنهم كانوا كلهم يحسدونني على هذه الفرصة الاستثنائية، وهذه

t.me/qurssan

التجربة الفريدة في الحياة التي كانت من نصيبي، أقصد تجربة التنقّل الدائم في أعالي البحار، وبين موانئ النصفين الجنوبي والشمالي من الكرة الأرضية، باستعمال السفن عابرة المحيطات.

كانوا عندما يرونني بينهم -خاصة صغار السن منهم- يعيشون معي لحظات حالمة، يتخيّلون فيها أنه قد يمكنهم يومًا ما بضربة حظّ أن يفعلوا مثلي، وأن يستردّوا بالتالي جزءًا من الحرّية التي يحرمون أنفسهم منها، بقبولهم العمل في مقر جريدة، في وسط الشوارع المخنوقة المزدحمة بالناس والسيّارات، لمدينة من أكبر مدن العالم، يحضرون إليه كل يوم في ساعة محدّدة، ويبقون فيه كل يوم إلى ساعة محدّدة.

حتى إن بعض مديري التحرير كانوا ينصحونني دائمًا دون أن يعرف بعضهم بما يقوله لي بعضهم الآخر، بعدم الارتباط بعمل صحفي، حتى أظلّ هكذا حرًّا طليقًا مثل العصفور، وألّا أقبل أي وظيفة مهما كانت، فإن الوظيفة هي مثل قفص، ينتهي فيه مصيرك إلى الاختناق.

(٢)

كان رئيس تحرير (الباريسي الصغير) يجلس طوال الليل في مكتبه الضيّق، يتلقّى البرقيّات التلغرافية والمكالمات التليفونية، التي تحمل إلى الجريدة كل الأخبار، القادمة من داخل فرنسا أو من أطراف العالم، ليعيد صياغتها وفقًا لذوقه الأدبي، ووفقًا لمعجم مفرداته، بحيث يصبح بعض هذه الأخبار للصفحة الأولى، ويصبح بعضها الآخر للصفحات

t.me/qurssan

الداخلية، ويحتسي بين وقت وآخر كأسًا صغيرًا من زجاجة نبيذ أبيض سعتها لتر، ينتهي منها عند طلوع الصباح، فهو يأتي على زجاجة بأكملها كل ليلة. كان هذا النبيذ يساعده على الاسترخاء، وبالتالي على حُسن اختيار الكلمات.

كان رئيس التحرير في ذلك الزمان، يبقى من الثامنة مساءً إلى السادسة صباحًا في مكتبه، ويبدأ عمله بمراجعة نسخة منتصف الليل التي تسافر إلى أقاليم فرنسا المختلفة بالقطارات، لتكون في متناول يد القرّاء في جميع أنحاء فرنسا التي تذهب إليها القطارات في الصباح الباكر. ثم ينشغل بقية الليل بمسألة توزيع الأخبار على الصفحات حسب أهميّتها، ومراجعة البروفة الأخيرة لنسخة الخامسة صباحًا، التي ستكون في جميع أكشاك ونقاط توزيع الجرائد في باريس قبل السابعة صباحًا.

كان هذا هو أسلوب العمل في كل الجرائد الباريسية في ذلك الوقت، وهو أسرع ما أمكن وقتها الوصول إليه، في تكنولوجيا الطباعة ووسائل المواصلات المتاحة، التي تسمح بوصول الأخبار يومًا بيوم، إلى المواطنين الفرنسيين في كل مكان، حتى ثلاثينيات القرن العشرين، ذلك قبل أن تصاب كل هذه الجرائد بضربة في مقتل، أدّت إلى انخفاض حاد في أرقام التوزيع.

كانت أسباب هذا الانخفاض الحاد في التوزيع، هي أولًا ظهور أجهزة الراديو في كل البيوت الفرنسية، ثم ثانيًا ظهور محطّات الإذاعة

t.me/qurssan

الرسمية للحكومة الفرنسية، ودخولها في منافسة غير شريفة مع الجرائد الورقية. أقول غير شريفة؛ لأن سرعة نقل الأخبار ساعة بساعة بموجات الأثير تفوّقت بشكل واضح ونهائي على الجرائد الورقية.

(٤)

لكني لن أغفل هنا عن ذكر تجربة قصيرة دامت لبعض الوقت، مررت بها في مهنة الصحافة عند عودتي من جبهة القتال سنة ١٩١٦، وكنت في احتياج إلى المال، فتقدّمت بطلب العمل في إحدى الجرائد كمترجم بالقطعة للأخبار والمقالات عن فرنسا الواردة في صحف ومجلّات ألمانية أو إيطالية أو إنجليزية أو روسية، خاصة تلك اللغة الأخيرة، التي بدأت منذ اندلاع الثورة البلشفية في روسيا في أكتوبر ١٩١٧، في جذب انتباه الرأي العام في فرنسا، لمعرفة حقيقة ما يدور هناك.

كنت أذهب إلى مقرّ الجريدة تقريبًا كل يوم، بما في ذلك يومَي إجازة نهاية الأسبوع، فأجد في المتوسّط عشر مقالات مختلفة تنتظرني كل يوم، وكانوا يدفعون لي مستحقّاتي بالقطعة وكل يوم، مما جعل دخلي من هذه المهنة يحقّق لي الاستقرار النسبي لبعض الوقت، هنا قرّرت التوقّف عن الاستعانة بوالدي، الذي أراد مساعدتي ماديًّا بعد الحرب، وكنت قبلتُ مساعدته على مضض.

وكانت معرفتي الجيّدة بجغرافية وتاريخ العديد من الدول، ومعرفتي بالصور الشخصية للعديد من شخصيّات العالم، قد جعلت

t.me/qurssan

رؤساء التحرير في الجرائد التي عملت بها مترجمًا، يعهدون إليّ كذلك بالعمل في مراجعة الصور الفوتوغرافية، التي أصبحت لا غنى عنها في الصحافة إلى جوار كل مقال، على الأقل لمنافسة الراديو، فكنت أراجع التعليقات الموجودة أسفل الصور الفوتوغرافية، حتى تكون الصورة متطابقة مع الشخص الموجود فيها، أو المدينة الموجودة فيها.

* * *

t.me/qurssan

رابعًا- ثقافة عائلتي

١- أعتقد أن جدّتي لأمي كانت مثقّفةً، فأنا لم أرها أبدًا إلا وهي ممسكة بكتاب في يدها، وكانت أغلب هذه الكتب تدور حول موضوعات غامضة، تتعلّق بالمعتقدات السماوية، وبالغموض الذي يحيط بهذه المعتقدات. لفترة طويلة من طفولتي ظننت أن جدّتي هي إحدى قدّيسات الكنيسة.

٢- لاحظت في طفولتي أن والدي قد قرأ المجلّدات العشرين للأعمال الكاملة للمؤلّف الروائي الفرنسي أونوريه دي بلزاك *Balzac*. من الأشياء التي تبدو لي الآن غريبة، هي أنه أهداني وأنا في العاشرة من العمر رواية (فتيات النار) لجيرار دي نيرفال *Nerval* ، وهي عن غراميّاته.

٣- أما أعجب الأشياء على الإطلاق، فهي رغبة أمي وقد تعدّت الثلاثين من العمر، في تعلّم مبادئ اللغة اللاتينية؛ لأنها بفضل اهتمامها بالنباتات بشكل عام، وبالزهور بشكل خاص، أرادت أن تعرف الاسم العلمي لهذه النباتات، بالطريقة التي ابتكرها الطبيب وعالم النباتات السويدي أوبسالا لينيه *Linne*، في منتصف القرن الثامن عشر.

t.me/qurssan

كان هذا العالم قد وضع تصنيفًا للنباتات وفقًا لجنس ونوع كل صنف منها، وقامت التسمية *nomenclature* على أساس أن يكون لكل نبات اسمه العلمي المركّب من جزأين، بحيث يدلّ جزؤه الأول على جنس النبات، ويدل جزؤه الثاني على نوعه داخل هذا الجنس.

مثالًا على ذلك شجرة الجمّيز وشجرة التين، ينتميان إلى عائلة واحدة، رغم اختلافهما في الشكل الخارجي.

يمكن بسهولة ملاحظة أن التكوين الداخلي لثمرة الجمّيز يتشابه تمامًا مع التكوين الداخلي لثمرة التين، لذلك فإن الاسم العلمي لشجرة الجمّيز هو *ficus sycomorus*، والكلمة الأولى تعني التين، والثانية تعني الجمّيز.

ظلّ هذا التصنيف معمولًا به لمدّة طويلة، وسهّل كثيرًا على علماء النبات اللاحقين معرفة أسرار التشابه بين النباتات التي قد تبدو مختلفة.

٤ - من بين أهم أقربائي من جهة عائلة والدتي يمكنني أن أذكر اسم العالم يوهان كاسبار لافاتر *Lavater*، الذي عاش بين ١٧٤١ و١٨٠١، وهو الذي كان في نفس الوقت كاتبًا وفيلسوفًا وطبيبًا عالمًا في مجال وظائف الأعضاء *physiology*، وهو المعروف حاليًا بصفته من وضع أساسيات علم الفراسة *physiognomy*، أي العلم الذي يساعد في محاولة معرفة ملامح الشخص النفسية، بدراسة ملامحه الجسدية.

هذا العلم أرهق الكثير من مؤلّفي القرن التاسع عشر، الذين لن أذكر من بينهم إلا اثنين، هما الأمريكي إدجار آلان بو والفرنسي شارل بودلير.

t.me/qurssan

خامسًا- بار القزم الأصفر

(١)

بعد جولة طويلة بين حانات وعلب الليل، حيث رقصتُ في كل ساحات الرقص المتاحة، مرة مع تيتي ومرة مع وبرتا، كانت الساعة قد أصبحت الثانية صباحًا، وقد وقفنا على أحد أرصفة شارع كانبيار، الشريان الرئيس المؤدّي مع شارع أثينا من محطة القطار إلى الميناء القديم. قصدنا نحن الثلاثة حانة (القزم الأصفر)، التي ترتبط بحكاية طويلة عن قزم صيني أقام في المدينة لفترة، قبيل سنة ١٩٠٠، وكان أسطوريًّا فيما يتعلّق بالنباتات والأعشاب المخدّرة غير المعروفة في أوروبا، التي كان يجلبها من الصين مع بحّارة من بني جلدته، فأصبح هو المورّد الوحيد لها في المدينة، وبذلك اكتسب شهرة كبيرة.

كانت الحانة تشغل الطابق الأرضي من بناية من ثلاثة طوابق، والبوّابة الرئيسة للحانة تفتح على الشارع الرئيس، إلا أن هذه البناية كانت لها بوّابة خلفية لغير مرتادي الحانة؛ لأنها لا تؤدّي إلى الحانة، بل إلى بيت دعارة تشغل حجراته الثلاثة طوابق، التي كان يمكن الوصول

t.me/qurssan

إليها من أيٍّ من البوّابتين، أي أن زبائن الحانة يمكنهم الصعود إلى حجرات الطوابق، إلا أن زبائن الطوابق لم يكن يمكنهم ارتياد الحانة، ولم أعرف أبدًا الهدف من هذا التقسيم.

وبسبب كثرة تردّدي على الحانة، عرفت أنها المكان الذي يعقد فيه الاجتماع الشهري لأصحاب حانات وعلب ليل مارسيليا لمعالجة الحسابات بينهم والمسائل المعلّقة التي تخصّهم، التي يمكن أن تؤدّي إلى مشاكل مستفحلة إذا أهملوها، مثل مسألة أن تقوم راقصة أو فتاة ليل بالانتقال من مكان إلى آخر؛ لأنها وقعت في هوى أحد رجال العصابات، إذ يجب أن يتمّ هذا بموافقة صاحبَي المكانين القديم والجديد. كنتُ أعتبر أن حضوري لمثل هذه الاجتماعات فرصةً لا مثيل لها لمعرفة الحياة السرّيّة للمدينة.

بالصدفة البحتة كانت ليلة ذهابنا هي ليلة الاجتماع الشهري، وكانت الفتاتان سعيدتين بهذه السهرة غير المتوقّعة، التي ستستمرّ إلى صباح اليوم التالي، وستتعرّفان خلالها على مَن لم تكونا تعرفانه، من بين أصحاب حانات المدينة، ومن بين كبار رجال عصاباتها، وهي معرفة من المؤكّد أنها ستكون مفيدة، في المواقف غير المتوقّعة في حياة كلٍّ منهما، مع ملاحظة أنهما كانتا الفتاتين الوحيدتين في هذه السهرة؛ لأن هؤلاء الرجال لا يصحبون صديقاتهم إلى مثل هذه السهرات.

كنت أكثر ميلًا إلى برتا، بسبب فمها الشهواني وشفتيها المكتنزتين كحبّتي فراولة، وضحكتها الرنّانة التي تدلّ على أنها لا تشغل تفكيرها بالهموم، وكذلك بسبب قاموس مفرداتها الغريبة التي تستعملها في

t.me/qurssan

كلامها العادي، وتدلّ على أنها على قدر كبير من الذكاء الاجتماعي، لم أعرف كيف اكتسبته في حياتها الرتيبة؟! كانتا تقفان معًا إلى جواري عند منضدة الزنك (الكاونتر)، واحدة عن يساري والأخرى عن يميني، تضغطان جسديهما على جسدي، كلما مالت واحدة منهما نحو أذني، لتسرَّ إليَّ شيئًا لا تريد أن يسمعه الآخرون، كأنهما تريدان احتضاني عرفانًا بالجميل.

(٢)

من منطقة البار في الطابق الأرضي، كان يمكننا المرور إلى صالة خلفيّة خفيّة يسمّونها (صالة الدخّان)، كانت تقع مخفيّة خلف حائط من الخشب، يمكنه أن يتحرّك في مزلاج، ليفتح الطريق إليها. يتمّ في هذه الصالة تقديم كل أنواع المخدّرات المعروفة وغير المعروفة، القادمة ليس فقط من الصين، بل من جميع أنحاء العالم؛ لأن ميناء المدينة تأتيه السفن من جميع أنحاء العالم. ومن الغريب أنه رغم وفاة القزم الصيني قبل سنوات، فقد استمرّ المورّدون الصينيون في التعامل مع أرملة صاحب المكان.

عدا برتا وتيتي لم تكن في هذه الصالة أيّ امرأة أخرى، باستثناء صاحبة (القزم الأصفر) الحالية، وهي الصديقة السابقة للصيني، التي يقال إنها كانت زوجته، وهو قول من المحتمل أن يكون صحيحًا؛ لأنها ورثت المكان بعقود موثّقة بعد وفاته. إنها لوحة فنّية مصقولة ملمّعة لامرأة خمسينية جميلة، ليس في وجهها تجعيدة واحدة، بعينين

t.me/qurssan

زرقاوين بهما بعض الاخضرار، بأسنان سليمة كلها، لا تظهر إلا عندما يظهر الجانب الإداري المسيطر، في شخصية هذه السيّدة، الذي يحكم على الأشخاص ويدينهم. كانت تضع حول الإصبع الأوسط ليدها اليسرى خاتمًا به قطعة كبيرة من الألماس، تخطف بانعكاسات الأضواء حولها أبصار كل من تتحدّث إليه، كأنها تفعل هذا بقصد تشتيت انتباه مَن تتحدّث إليه.

وضعتني بما لها من قدرة في السيطرة على الآخرين في فوتاي عميق، وبدأت في استجوابي باللغة الإنجليزية، التي يجهلها تقريبًا كل الموجودين، وهي تصهل كفرسة عجوز، وبين وقت وآخر يأتي أحد الرجال للوقوف إلى جوارنا، كأنه مبعوث من بقيّة مجموعة الرجال، وقد يكون على بعض المعرفة بالإنجليزية، في محاولة منهم لمعرفة الموضوع الذي يدور حوله جدلنا.

هذه الحانة بكل ما فيها من خفايا وأسرار هي أكثر الحانات قدرة على إثارة الهواجس الغامضة والأفكار الشاذة في نفوس زائريها، من بين كل الحانات التي عرفتها في حياتي، بما فيها من ممرات غامضة وغرف سريّة، وأساليب تشتيت الإضاءة التي هي في الأساس خافتة، كأن صاحبتها ترغب في تشتيت أفكار كل الحضور، إذ يوجد خلف كاونتر البار لوح من الزجاج المصنفر، الذي تنعكس عليه وعلى مئات الزجاجات الموضوعة على الأرفف أضواء القاعة حيث البار، بشكل فنّي جميل، كأن هذا الحائط الزجاجي هو قطعة كبيرة من الألماس.

t.me/qurssan

ينطبق هذا الكلام خاصة على (صالة الدخّان)، التي لم يكن يدخلها إلا خاصة الروّاد، غالبًا في صحبة صاحبة الحانة نفسها. كانت هذه الصالة ذات حوائط مغطّاة كلها بأكملها، بنفس ألواح الزجاج المصنفر، الموجود خلف كاونتر البار، أي الذي يعكس الأضواء في مئات المواضع، لكنه لا يُظْهِر وجوه البشر.

بسبب حالة السكر البيِّن التي وصلت إليها، اعتقدت أنني أجلس داخل دورق زجاجي، حيث كانت الفكرة الثابتة المسيطرة على ذهني، هي: ما هذا المشروب الكوكتيل؟ ومن أيّ مكوّنات تمّ صنعه؛ حتى أصل إلى هذه الدرجة من السكر، ومن الإرادة المسلوبة، رغم اعتيادي طوال عمري على جميع أنواع الخمور؟

جعلني هذا المشروب أشعر بالحالة التي خبرتها مرة واحدة من قبل في حياتي، وهي حالة الوقوع تحت تأثير مخدّر الكلوروفورم، الذي يستعمل في المستشفيات، وفي غرف إجراء العمليات الجراحية، ويُعطى للمرضى قبيل إجراء الجراحات الخطيرة، إذ ينفصلون تمامًا بكياناتهم الجسدية عن مراكز الإحساس والتمييز في أمخاخهم. طبعًا أنا أتحدّث هنا عن عملية بتر الأجزاء التالفة المتهتكة الباقية من الذراع التي أطارتها قنبلة.

(٢)

لم أعد أسيطر على أفكاري في هذه المتاهة، ولحسن الحظّ أنني كنت مقيّد الحركة؛ لأن الأرملة كانت تصرّ على بقائي جالسًا أمامها،

t.me/qurssan

حتى تنتهي من حديثها معي، وذلك لأنني لو كنت تمكنتُ من القيام من الفوتاي، لفقدت على الفور توازن جسمي، ولسقطت على الفور على الأرض. إلا أنني لم أعد أعرف فيما كانت تتحدّث إليّ هذه الأرملة. قرب الفجر سُمِحَ لنا بمغادرة (القزم الأصفر)، فخرجت مع الفتاتين إلى شارع كانبيار من جديد، بعد أن مررنا في سرداب طويل بدا لي كأنه بلا نهاية.

في الشارع اتخذت الفتاتان طريقًا مغايرًا لطريقي، فهما كانتا تقيمان في أحد الأحياء الشعبية بالمدينة، في حين كنت أنزل في فندقي المعتاد، المطلّ على أرصفة الميناء القديم، وحيث إنه في هذه الساعة من الليل يصعب العثور على سيّارة أجرة، فقد مشيت وحدي على الأرصفة، وأنا أميل بجسمي إلى اليمين، ثم أميل بجسمي إلى اليسار، كأنني كنت أمشي وأنا أحاول أن أحمي جسمي من الوقوع على الأرض. وصلت بمعجزة إلى حجرتي في الفندق، حيث ألقيت بنفسي على الفراش.

قبل أن أذهب في النوم، تتابعت الصور في ذهني، وكانت أغلبها صورًا من أمريكا الجنوبية، حيث سفن شحن البضائع التي عملت عليها، تتوقّف في موانئ مختلفة عامًا بعد عام؛ لأكتشف أن الناس هناك على زمن حضارة الآزتك قبل خمسة قرون عبدوا قزمًا أصفر، هو في اعتبارهم أحد الآلهة المسؤولين عن خلق البشر، الذي يظهر في رسوماتهم ونقوشهم الجدارية، وعلى وجهه تعبير الامتعاض والاشمئزاز، لسبب غير معلوم.

بعد سنوات طويلة كنت في باريس، أزور المكتبة الخاصة بعائلة البوربون الملكية، التي حكم أفرادها مملكة فرنسا لسنوات طويلة، حيث وقعت في يدي مخطوطة متأثرة بحضارة الآزتك من القرن السادس عشر، مكتوبة باللغة الإسبانية القديمة، وتحكي بأسلوب ساذج قصّة غزو الأساطيل الإسبانية بقيادة فرناندو كورتيز للمكسيك، لا من وجهة نظر الغزاة الإسبان، بل من وجهة نظر سكّان المكسيك الأصليين من الهنود الحمر، حيث كانت النصوص مصحوبة برسومات توضيحية، ومرسومة بأسلوب رسم بسيط وساذج.

لم تكن هذه المخطوطة تحمل اسم مؤلّفها، لذلك من المحتمل أن تكون هذه النصوص الساذجة والرسومات البسيطة، بقلم وبريشة أحد رهبان الكنيسة الأوائل، المتعاطفين مع السكّان الأصليين، من بين أولئك الرهبان الذين قدموا مع سفن الاحتلال الإسباني؛ لنشر الدين المسيحي في ربوع القارة الجديدة.

في إحدى الرسومات يبدو الغازي كورتيز وقد التفت حول قدمه أنشوطة حبل تعوق حركته، يمسك بطرفها الآخر في يده هذا الإله الخالق القزم الأصفر، كأنه يحاول أن يحمي شعبه من هذا الغازي الأجنبي بتقييد حركته. يظهر كورتيز مرة أخرى في الصورة الأخيرة بالمخطوطة، وقد مات مقتولًا بأسهم عديدة تخترق جسده، وقد وقف إلى جوار الجسد الممدّد على الأرض، نفس الإله القزم الأصفر، وقد أمسك هذه المرة في يده بسيف، كما لو أنه كان ينوي أن يقطع به رأس كورتيز.

t.me/qurssan

سادسًا - الصين

كنت أقرأ رواية تدور أحداثها في الصين المعاصرة، عن مهرّبي المخدّرات من أفيون، وعن تجّار اللؤلؤ المزيّف، وعن القراصنة من ربابنة السفن التي تبحر فوق مياه الأنهار الصينية، الذين لا يكتفون بسرقة ضحاياهم، بل يتفنّنون في تعذيبهم ثم يقتلونهم، وعن نفوذ أمراء المقاطعات الداخلية في مقاطعاتهم، وهو النفوذ الذي لا يزال هناك أقوى من نفوذ الدولة المركزية، حيث يلجأ هؤلاء الأمراء إلى القصاص بأنفسهم من أعدائهم بدلًا من اللجوء إلى القضاء؛ لأنه هو الآخر فاسد لا يحكم بالعدل، بل يحكم غالبًا لمصلحة مَن يدفع أكثر. هذه الرواية جعلتني أعتقد أن كل الصينيين هم أشخاص خطرون على الأمن العام.

أذكر أنه أثناء إقامتي في الصين، أنني حاولت أن أتعلّم فنّ كتابة الحروف الصينية، وهو فنّ منتشر جدًّا هناك، وله مدارس في كل المدن، في محاولة منّي لإدراك حقيقة العلاقة بين شكل الكلمة وبين معناها؛ إذ إنهم هناك كانوا قد قالوا لي: إن كلمة بيت تُرْسَم في شكل بيت، وإن كلمة رجل تُرْسَم في شكل رجل، وهي ما يُسمِّيه المتخصّصون

t.me/qurssan

الكتابة التصويرية *figurative writing*، كما فعل المصريون القدماء، إلا أنني لم أتمكّن من متابعة الدراسة؛ لأنني لم أكن أملك هذه الرفاهية في الوقت الذي لم أكن أجد فيه ما يكفيني من الطعام.

أدركت مبكّرًا جدًّا في حياتي -ما بدا لي أنه شيءٌ غريبٌ جدًّا- وهو كيف أن حضارات العالم المختلفة كانت قد توصّلت إلى نفس الاكتشافات، أو إلى نفس الحلول لنفس المشاكل، التي تتعرّض لها مع غيرها من الحضارات تقريبًا في نفس الوقت، رغم البعد الجغرافي الشاسع بينها، فمصر القديمة مثلًا، لجأت إلى نفس هذه الطريقة التصويرية في الكتابة، التي لجأت إليها الصين، رغم عدم وجود أي صلات بين الحضارتين.

والعراق القديم مثلًا أدرك قادته، أهميّة وجود دولة مركزية، قادرة على التحكّم في منسوب سريان مياه الأنهار، بهدف حسن توزيعها على كل مناطق الدولة، في نفس الوقت الذي أدرك فيه قادة الصين ومصر نفس الشيء. هذا هو أحد أدلّتي على أن الإنسان هو نفسه في كل مكان، رغم الاختلافات الشكلية، في لون البشرة والطول والعرض.

* * *

t.me/qurssan

سابعًا- ملامح العمارة في عصر الباروك

قصر بخيتة تمّ بناؤه وفقًا للطراز المعماري الذي كان منتشرًا في بدايات القرن الثامن عشر، وهو طراز الباروك *Baroque*، وسأحاول هنا اختصار ملامحه المعمارية في نقاط محدّدة:

١- هذا الطراز تنتشر فيه الزخارف والمنمنمات، وهو ما يبدو ليس فقط في معمار ذلك العصر، بل يبدو كذلك بوضوح في موسيقاه، التي تنتشر فيها هي كذلك الزخارف والمنمنمات، مثل ما نسمعه في موسيقى يوهان سباستيان باخ (١٦٨٥/ ١٧٥٠)، وأنطونيو فيفالدي، وفردريك هيندل.

٢- أغلب الزخارف المعمارية مأخوذة من أشكال نباتية أو هندسية منمّطة، بالإضافة إلى شعارات النبالة، الدالة على أصل الأسرة ساكنة القصر الرفيع.

٣- بالإضافة إلى الزخارف والمنمنمات، هناك الكثير من الشرفات الصغيرة التي تعلوها قباب مستديرة، وتعرف اختصارًا باسم الشرفات المقبّبة.

t.me/qurssan

٤- تكون كلّ النوافذ في مجموعات ثلاثية، جوانبها الحجرية مشغولة بما يشبه زخارف الدانتيلا القماشية، وتعلوها أبراج صغيرة مدملكة، بها هي الأخرى زخارف من الدانتيلا، وبها فراغات محفورة في صخور البناء، تنفذ منها أشعة الشمس عندما تمرّ خلالها.

٥- تمتلئ جوانب القصر بالسلالم الحلزونية، المعروفة في طراز الروكوكو *Rococo*، بأعمدة درابزيناتها القصيرة المثقّلة هي الأخرى بالزخارف.

٦- وفقًا لعقلية نبلاء القرن الثامن عشر، المصابة بوسواس الخوف من اعتداء الغير، كانت تحيط بهذا القصر -على غرار قصور عصر النهضة- بحيرة صناعية متسّعة وعميقة، بغرض حماية سكّان القصر من الأعداء.

٧- ولذلك كانت تصل بين القصر وسواحل البحيرة الصناعية المحيطة به مجموعة من الكباري الرشيقة، التي كان يمكن لسكّان القصر رفعها وضمّها إلى جدار القصر، في حالة التعرّض لاعتداء خارجي، وهي المعروفة هندسيًّا باسم الكباري التي ترفع *Ponts – Levis*.

٨- وبذلك يتمّ منع المعتدين من الوصول إلى القصر عبورًا فوق الكباري، وهو ما يُسَهِّل على سكّان القصر قتل المعتدين وهم في الماء، أو وهم لا يزالون على حافة البحيرة، إمّا بإطلاق الأسهم عليهم، أو باستعمال الأسلحة النارية في عصر لاحق.

٩- في أوقات السلم العادية، كانت هذه الكباري متّصلة بالقصر، ومرتفعة بعض الشيء عن مستوى سطح الماء، حتى تسمح للقوارب

t.me/qurssan

بالمرور أسفلها، وهي قوارب من نوع الجوندولا *Gondola*، المنتشر استعمالها في مدينة فينيسيا (بينتسيا/ بنيديكتا/ البندقية/ المباركة).

١٠- كان البجع الأبيض يعيش طوال العام في مياه البحيرة الصناعية المحيطة بالقصر.

١١- سكّان القصر الأصليّون كانوا على علاقات صداقة وثيقة ببعض العائلات الإيطالية النبيلة، التي كانت تأتي من شمال إيطاليا بشكل منتظم، لزيارة سكّان القصر.

* * *

ثامنًا - ضواحي باريس بعد الحرب

قبل الحرب العالمية الثانية، كانت هناك رحلات بحرية كثيرة، تقوم كل يوم من الموانئ الأوروبية ذهابًا إلى أمريكا، لكنها توقّفت كلّها بسبب الحرب. أما بعد انتهاء الحرب فقد حدث أن:

١ - اندفعت الملايين من البشر اليائسين من الأوضاع القائمة في بلادهم، القادمين بالأخصّ من بلاد أوروبا الشرقية، في محاولة للهروب من المستقبل المظلم، في ظلّ النظم الشيوعية السوفيتية التي وضعت يدها على بلادهم، وللهروب كذلك من مشقّة إعادة بناء الدول التي حطّمها النازي تمامًا. اندفعوا إلى موانئ أوروبا، في محاولة للوصول من جديد إلى موانئ أمريكا.

٢ - إلّا أن الولايات المتحدة الأمريكية، أدركت استحالة استقبال كل هذه الملايين، فأغلقت أبوابها أمام المهاجرين.

٣ - فعادوا كلهم إلى أوروبا على ظهور نفس السفن، ومنهم مَن كان لا يزال في الموانئ الأوروبية، صرف النظر عن موضوع السفر.

t.me/qurssan

٤- توقّفت كل الرحلات البحرية المنتظمة التي اعتادت أن تنقل المهاجرين إلى أمريكا، وبدأت الولايات المتحدة بعد ذلك التاريخ بقليل في تطبيق ما عرف باسم سياسة الكوتا *Quota*، أي سياسة الأنصبة، أي أن يكون لكل قارة من القارات الخمس نصيبها السنوي من أعداد مواطنيها المسموح لهم بالهجرة إلى أمريكا.

٥- استمرّت السفن لبعض الوقت في نقل المهاجرين، على أمل فرض الأمر الواقع، إلا أن أمريكا كانت ترفض نزول الركّاب على أرصفة موانئها، وكانت تعيد هذه السفن من جديد إلى أوروبا، بما عليها من حمولة بشرية.

٦- كانت فرنسا في نظر أغلب هؤلاء المهاجرين العائدين إلى أوروبا، هي أفضل بلد أوروبي من حيث ظروف ما بعد الحرب.

٧- فذهب عدد كبير منهم إليها، من إيطاليا وإسبانيا والبرتغال، ومن بولندا وأوكرانيا وإستونيا وروسيا البيضاء، ومن مقدونيا وبلغاريا واليونان، ومن القوقاز وأرمينيا وسوريا ولبنان، بكل وسائل المواصلات المتاحة من قطارات وسيّارات، بل حتى أحيانًا مشيًا على الأقدام.

٨- اختاروا أن يذهبوا إلى العاصمة باريس، التي دخلها الألمان دون قتال، فنجت بذلك من الدمار، إلا أن المساكن المحدودة المتوفّرة لهم فيها، كانت مرتفعة الثمن، فما كان عليهم إلّا أن يقبلوا السكن في ضواحي باريس.

٩- رجال ونساء وشيوخ وأطفال، دون أيّ نقود، وغالبًا كان الرجال دون أيّ مهنة، فهم غالبًا كانوا جنودًا في الجيوش.

t.me/qurssan

١٠- كانت فرنسا مرهقةً تمامًا، بل يمكنني أن أقول مستنزفة الدماء، أقرب ما تكون إلى جثّة هامدة، فجاء المهاجرون إليها ليزيدوا من معاناتها.

١١- ذهب المهاجرون إذَنْ إلى الضواحي، ليسكنوا المنازل المهجورة المهدّمة، بل إنهم سكنوا أيّ حفرة وجدوها في الأرض، تسبّبت فيها سابقًا القنابل، أو كانت من الخنادق التي حفرها الفرنسيون ضمن خطط الاستحكامات العسكرية.

١٢- وضع المهاجرون فوقها ألواحًا من الصاج أو من الصفيح أو من الخشب، من بين تلك الألواح المتناثرة في كل مكان؛ ليحتموا بها من المطر. هذا هو قانون الاستسلام للأمر الواقع. كان هذا هو القانون الأول.

١٣- أما القانون الثاني فكان هو قانون القبيلة، الذي حتّم على البولنديين أن يسكنوا معًا، وعلى الأرمينيين أن يسكنوا معًا، على الأقل لأنهم يتحدّثون نفس اللغة، وبالتالي يكون هناك الحدّ الأدنى من القدرة على التفاهم، مما قد يسمح بالتعايش السلمي وحسن الجوار.

١٤- القانون الثالث هو أن كل قبيلة أحاطت نفسها بالأسلاك الشائكة، وطلبت من الرجال الأشدّاء فيها بالعمل كفتوّات لحمايتها من الاعتداءات المحتملة من قِبَل فتوّات القبائل الأخرى.

١٥- لكن طبعًا هؤلاء الفتوّات ليسوا ملائكة من السماء، لذلك حاولوا أولًا إرهاب الناس، ولو حتى ناس قبيلتهم، للحصول على المزيد من المال.

t.me/qurssan

١٦ - لكن سرعان ما اكتشف هؤلاء الفتوّات مصدرًا آخر للمال تقريبًا لا ينضب، فزبون هذه الخدمة التي يقدّمونها له موجودٌ دائمًا، هكذا تحوّل هؤلاء الفتوّات إلى قوّادين، حاولوا ولو بالضغط والغصب والإجبار دفع أكبر عدد ممكن من أجمل نساء وفتيات قبيلتهم إلى العمل في الدعارة، فكانوا يذهبون بهنّ إلى باريس بحثًا عن الزبائن الأثرياء.

هذا هو حال ضواحي باريس سنة ١٩٤٧.

* * *

t.me/qurssan

مختصر أحداث حياة المؤلّف

١٨٨٧- مولده في سويسرا، لأب سويسري كان عالمًا ورجل أعمال، ينشغل طول الوقت بمحاولات لا نهاية لها لتنفيذ مخترعاته، ولأم إنجليزية إسكتلندية. وبلاز سندرار هو اسم شهرة اختاره بنفسه، في حين أن اسمه الأصلي هو فردريك سوسر.

- قضى طفولته وصباه ومراهقته الأولى متنقّلًا مع والديه بين الإسكندرية في مصر، ونابولي وبرينديزي في إيطاليا، حيث تلقّى تعليمه غالبًا في مدارس دولية، كانت هي صاحبة الفضل -بالإضافة إلى كثرة التنقّل بين الدول- في إجادته القراءة والكتابة بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.

١٩٠٣- قبل بلوغه سن السابعة عشرة، ترك منزل والديه في سويسرا، دون أن يخطرهما بذلك أو يودّعهما، واستجاب لدعوة نفسية غامضة، ليبدأ سلسلة رحلاته متنقّلًا بين الدول، وهي الرحلات التي استمرت معه تقريبًا طوال حياته، إلا أنه في رحلته الأولى تلك أخذ القطار إلى روسيا، حيث عمل مساعدًا لأحد تجّار المجوهرات، وتنقّل معه بين الصين وروسيا.

t.me/qurssan

١٩١٠- في باريس قابل أبولليناز *Apollinaire*، في الوقت الذي كان فيه هذا الشاعر والفنّان التشكيلي يؤسّس للحركة السيريالية ما وراء الواقعية في الشِّعر والأدب والفنون، التي لن تتضح معالمها إلا في نهاية الحرب.

- قبيل الحرب العالمية الأولى نشر بلاز قصائد بدت فيها روح الحداثة، كانت أشهرها القصيدة التي نشرها وهو في نيويورك، تحت عنوان (عيد فصح في نيويورك).

١٩١٥- أثناء تطوّعه كمقاتل في الحرب العالمية الأولى، في الفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي، فقد ذراعه اليمنى بسبب انفجار قنبلة، وقضى بعض الوقت حتى استطاع استعمال يده اليسرى في الكتابة وفي قيادة السيّارات.

١٩١٩- عمل في مجال السينما في إيطاليا وفرنسا وأمريكا، أولًا كمؤلف، ثم كمساعد مخرج، ثم كمخرج. واشتهر بإخراج مجموعة من الأفلام التسجيلية، التي صوّرها للحيوانات كالأفيال في الغابات الأفريقية، وكالثعابين في وادي نهر الأمازون بأمريكا الجنوبية. كان في بعض الأحيان مليونيرًا، وفي أحيان أخرى كان يعاني من الإفلاس التام.

١٩٢١- عمل كمساعد مخرج للمخرج الفرنسي الشهير آبل جانس *Gance*، في فيلم (العجلة) *La Roue*،' ولأنه كان دائمًا يحاول مساعدة أصدقائه الفنّانين، كان هو مَن اقترح على المخرج الاستعانة بموسيقيٍّ شبه مجهول، لوضع الموسيقى التصويرية لهذا الفيلم، وتلك كانت هي البداية للموسيقي المعروف إيريك هونيجر *Honegger*.

t.me/qurssan

١٩٢٥- نشر روايته الطويلة الأولى (الذهب)، وهي عن حمّى البحث عن الذهب في الغرب الأمريكي، في نهايات القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين.

١٩٢٩- نشر روايته الطويلة الثانية (اعترافات دان ياك).

- كان من بين أهم أصدقائه مجموعة الفنّانين التشكيليين الفرنسيين أو المتفرنسين، بين عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، من أمثال فرناند ليجيه، وأميديو موديلياني، ومارك شاجال. وهو ما يفسّر قيام كل منهم برسم صورة شخصية (بورتريه) لبلاز، ضمن إنتاج كلٍّ منهم الفنّي.

- في الثلاثينيات كان رئيسًا للتحرير في دار نشر (عروس البحر) *La Sirene*، وبالتالي كان هو صاحب الفضل في معرفة الجمهور الفرنسي بالفنون الزنجية، مثل موسيقى الجاز *Jazz* كما قام بنشر مجموعات من الشِّعر الزنجي، بعد رحلاته في أفريقيا الاستوائية، وفي وادي نهر الأمازون في أمريكا الجنوبية.

- نشر كتابًا عن الشاعر لوترىامان *Lautreamont* المتوفّى سنة ١٨٧٠ في منتصف عشرينياته، كان بمثابة إعادة اكتشاف لهذا الشاعر، مما جعل منه فيما بعد إحدى أيقونات الحركة السيريالية الفرنسية.

١٩٣٥- قرأ رواية (مدار السرطان) لهنري ميلر، وكتب عنها مقالات كثيرة، أطلق فيها عليه لقب [المخلّص المنتظر]، ومن المعروف أن هذا اللقب هو أحد ألقاب يسوع المسيح.

- في الفترة بين ١٩٢٤ و١٩٣٦ كان يسافر بضعة أشهر كل عام إلى دول أمريكا الجنوبية، حيث حاول في مجالات مختلفة أن يكون رجل أعمال، وفي بعض الأحيان كان ثريًا جدًّا لدرجة أن يأخذ معه سيّارته الألفا روميو الإيطالية على ظهر السفينة، ولكنه في أحيان أخرى كان مفلسًا تمامًا، لدرجة اضطراره إلى أن يعمل كبحّار موسمي على ظهر هذه السفن، ضمن طاقم بحّارة السفينة، بما كان له من خبرات سابقة في هذه المهنة.

١٩٣٩ - في بداية الحرب العالمية الثانية، عمل مراسلًا حربيًا في إنجلترا، لبعض الجرائد اليومية الفرنسية.

١٩٤٠ - بعد سقوط باريس في يد النازي، استقرّ في مدينة آكس بجنوب فرنسا حتى نهاية الحرب.

- بين ١٩٤٤ و١٩٤٩ كتب رواياته الأربع الأكثر شهرةً، المستوحاة من أحداث قصة حياته المثيرة، وهي: (المغامرة)، و(الدهشة)، و(اليد المقطوعة)، و(نصيب من السماء).

١٩٦١ - مات في الرابعة والسبعين من العمر في باريس، بسبب تدهور حالته الصحّية.

* * *

t.me/qurssan

مقتطفاتٌ من حوار مع بلاز سندرار

هذا الحوار مع المذيع الفرنسي ميشيل مانول *Manoll*، أُذيع في الإذاعة الفرنسية على حلقات بين أكتوبر وديسمبر ١٩٥٠، وتحدّث فيه عن بعض انطباعاته عن مؤلّفاته، وعن بعض الأشخاص الذين عرفهم في حياته، وقد طبعته لاحقًا دار نشر دنويل *Denoel* في كتاب، وقد اخترتُ منه هنا بعض الفقرات.

١- ما رأيك في شكوى المؤلّفين الحاليين من صعوبة مهنة الكتابة؟

أعتقد أنهم يجب أن يحمدوا ربّهم على المزايا التي توفّرها لهم هذه المهنة، فهم عندما يكتبون يجلسون في منازلهم على مقاعد مريحة، يتأمّلون المنظر الطبيعي أمامهم عبر النافذة. يكفي جدًّا أن يذهبوا إلى باريس، لمراقبة محطّات مترو الأنفاق، أثناء خروج ودخول الموظّفين ذهابًا إلى/ وإيابًا من أعمالهم، ليدركوا كم هم محظوظون.

٢- هل يمكنك أن تقترح على المستمعين بعض أسماء لمؤلّفين أعجبوك؟

- هناك بحّار عجوز جاب كل بحار العالم، ثم عند التقاعد جلس ليسجّل ذكريات حياته كتابةً، اسمه كابتن لاكروا. في تلك الكتابات نجدُ

t.me/qurssan

الكثير من العجائب، فهو يصف الجغرافيا والمدن والشوارع والناس والعادات، والبحار والمحيطات والسواحل والسفن، والعواصف والأعاصير والكوارث التي عاشها، من جنوب الأرجنتين حيث تتجمّد مياة المحيط، إلى بحر الصين المار بخطّ الاستواء.

- تمتعني كذلك قراءة نبوءات نوسترادراموس، التي حاولت طوال حياتي أن أفك شفراتها، وأن أفهم ألغازها.

- يمكنني كذلك أن أقترح قراءة الأعمال الكاملة لجيرار دي نيرفال ولإلكسندر ديماس.

- كانت آخر القراءات الممتعة التي اكتشفتها، قاموس التعريفات التجارية والجمركية، حيث يمكنك مثلًا أن تجد ٢٠ صفحة في شرح كل ما يتصّل بكلمة بسيطة مثل (شريط) من القماش أو من البلاستيك، مع ذكر استعمالات الكلمة في مجالات الصناعة.

٣- ما المشروع التاليفي الذي تنشغل الآن سنة ١٩٥٠ بالتحضير لكتابته؟

تمنّيت أن أستطيع التفرّغ بعض الوقت لتأليف رواية مستوحاة من حياة (مريم المجدلية)، المرأة التي أحبّت يسوع المسيح، ومحاولة الإجابة على السؤال: هل هي نفس المرأة الزانية التي أنقذها هو من الرجم، أم أنهما امرأتان مختلفتان؟

t.me/qurssan

٤- ماذا تقول لنا عن أخبار الثقافة والأدب بعد آخر رحلاتك إلى البرازيل؟

إنها دولة جديدة تمامًا نشأت في بدايات القرن التاسع عشر، بعد حصولها على الاستقلال من التبعية للتاج البرتغالي، لذلك لم يكن لسكّانها أي تراث أدبي معروف قبل الاستقلال، فكان ما فعله الشعب هو قراءة تراث أوروبا من الأدب الشعبي.

إلا أن العجيب في الموضوع هو أنهم اختاروا أن يبدأوا بقراءة قصص الخرافات والأشباح والأساطير الشعبية والفروسية، وهي النوعية التي تحقّق هناك حاليًا أفضل المبيعات في مكتبات البلاد.

كان أول ما ترجموه من الأدب الإنجليزي هو قصص الجرائم والمخبرين السريّين، ومن الأدب الأمريكي قصص عصابات شيكاجو. في الحقيقة هذا هو الدليل على انتشار شعبية هذا النوع الأدبي.

لكن بالطبع ينتشر هناك كذلك الأدب البرتغالي الحديث، حيث إن اللغة الرسمية للبلاد هي لغة المستعمر السابق. كما أن الأدب الأمريكي فيما بين الحربين العالميتين يجد لديهم نجاحًا كبيرًا، مثل مؤلفات هيمنجواي وهنري ميللر وجون دوس باسوس.

٥- ألم يكن هناك أي تأثير لأدب الأفارقة السود على الأدب البرازيلي، وهم يمثّلون نسبةً كبيرةً من الأصول العرقية للشعب الحالي؟

كان المستعمر البرتغالي يتعامل مع السود بصفتهم عبيدًا فقط لا غير، ليست لديهم أيّ حقوق، يعملون في الزراعة مقابل طعامهم اليومي، وبالتالي كان المستعمر يمنع السود من الحصول على أي قدر

t.me/qurssan

من التعليم، لذلك كانت الأغلبية السوداء لا تعرف القراءة.

الشاعر جريجوريو دي ماتوس الذي عاش في القرن السابع عشر، وكان نتيجة زواج هجين بين أب برتغالي وأم أفريقية، كان لديه حظّ أفضل، رغم أنه أخذ لون أمّه الأسود، إذ كان والده الأبيض يمتلك مزرعة قصب سكّر، ويعمل لديه فيها ١٣٠ أفريقيًّا، لذلك تمكن الوالد من إرسال ابنه لدراسة الحقوق في البرتغال، وبالتالي أدرك الابن حجم الظلم الواقع على أفارقة البرازيل.

عندما عاد جريجوريو إلى بلده، بدأ في كتابة أشعار تسخر بشدّة من المستعمر البرتغالي، ثم بدأ يجوب الطرقات وهو يغنّي هذه الأشعار على جيتاره. لذلك حاربه المستعمر البرتغالي، حتى مات يائسًا فقيرًا مُعدمًا.

أصبح يُسمّى لاحقًا الفم الناطق بعذابات السود، أو فم الجحيم، وظلت أشعاره تتنقّل شفهيًّا، أو في مخطوطات سرّية مكتوبة بخط اليد، عبر الأجيال المتتالية لمدة أكثر من مائتي عام، إذ إنها لم تطبع إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

٦- عندما غادرت منزل الأسرة في سويسرا هل كنت تخطّط للذهاب إلى روسيا؟

في الحقيقة لقد ركبت في أول قطار قابلني، وبالصدفة كان يتجّه إلى شرق أوروبا، ومنها إلى روسيا، أمّا لو كنت قد أخذت قطارًا يتجّه غربًا، فربّما كنت قد وصلت إلى ليشبونة، ومنها أخذت سفينة إلى أمريكا. مسألة قدرية بحتة.

t.me/qurssan

٧- ما أصعب وقت مررت به؟

في نيويورك شتاء ١٩١١/ ١٩١٢، كنت في حالة جوع دائم، وليس لدي ما يكفي من الملابس اللازمة لصدّ برد الشتاء، وكنت أقبل العمل بين وقت وآخر فقط لبضعة أيام، كمرمطون أجمع القمامة في المحلات والمطاعم، حتى أستطيع أن أحصل على بعض الطعام، وكنت أقضي أغلب وقتي في القراءة في المكتبات العامة.

ثم قرّرت أن أعود إلى باريس، ودفعت ٥ دولارات ثمنًا لتذكرة ركوب سفينة مواشي إلى أوروبا. ثم في باريس وجدت مَن يطبع لي ديواني الأول (عيد الفصح في نيويورك)، مقابل أن أدفع أنا من جيبي ثمن الطبعة، وحصلت منه على ١٢٥ نسخة، وكان ثمن النسخة المطبوع عليها هو ربع فرنك.

لم أبع منها ولا نسخة واحدة، رغم أن اسمي كان معروفًا إلى حدٍّ ما في المقاهي الأدبية الباريسية. فيما بعد ألقيت بهذه النسخ المائة وخمس وعشرين في القمامة، ولم أحتفظ منها ولا بنسخة واحدة لي ولو للذكرى والتاريخ.

٨- لقد أعلنت مرارًا وتكرارًا أن القائمة الكاملة لأعمالك تشتمل على ٣٣ عنوانًا، كيف تفسّر لنا هذا الرقم، رغم أن أعمالك لا تصل إلى نصف هذا العدد؟

التفسير هو أن حياتي لم تنتهِ بعد، وأنا في نيّتي أن أصل بأعمالي إلى هذا الرقم؛ لأنه الرقم الدال على الاكتمال، وقد أحقّق هذا الرقم بالعودة

t.me/qurssan

إلى بعض أعمالي القديمة لأضيف إليها، وأحذف منها، وأعيد طبعها تحت عنوان جديد.

هذا بالإضافة إلى عشرة كتب قد تصدر يومًا ما، أو قد لا تصدر في حياتي، أضع لها عنوانًا شاملًا هو (ضواحي باريس)، قد تطبع وتنشر ذات يوم تحت عشرة عناوين مختلفة، وهي نصوص مكتوبة بخط يدي لا أزال أحتفظ بها في خزائن بنوك أجنبية، في دول أمريكا الجنوبية، وأشرت إلى هذه الواقعة في كتابي (الدهشة).

كما أن أحد كتبي وكان بعنوان (حياة وممات الجندي المجهول)، ويتكوّن من خمسة أجزاء، قمتُ بحرقه في اليوم الذي كنتُ أعتقد أنني سأسلّمه فيه إلى الناشر، تراجعت في آخر لحظة عن النشر، وقمتُ على الفور بإعدام العمل وإنهاء وجوده إلى الأبد. قد تُسمّي هذا جنونًا، ولكني أُسمّيه الصدق مع النفس. قد أعود إلى كتابته.

❊ ❊ ❊

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الدهشة

هذا المؤلف قال عنه هنري ميلر في الكتاب الذي أصدره بعنوان (الكتب في حياتي) من ترجمة أسامة منزلجي (إن الشيء الأساسي الذي تجب معرفته عن بلاز سندرار هو انه رجل متعدد المواهب، غزير الانتاج من الكتب، ومن أنواع متعددة، شديدة الاختلاف فيما بينها، ورغم انه دودة كتب، الا انه كذلك رجل اجتماعي بامتياز. إن متابعة مسيرته منذ أن تسلل من منزل والديه في سويسرا، وهو بالكاد في السابعة عشرة من عمره، وطوال حوالي خمسين عاما، أي تقريبا حتى نهاية الأربعينات، يجعلنا نقول إن خط رحلاته كان أصعب في التتبع من خط أعظم رحالة التاريخ، ماركوبولو او ابن بطوطة أو السندباد البحري أو جيمس كوك).

آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

t.me/qurssan